عبده مباشر

أنا وعبد الناصر والسادات

سطور من السيرة الذاتية


دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

أنا وعبدالناصر والسادات

سطور من السيرة الذاتية

عبده مباشر



إهـــــداء

لصديـق العمـر ورفيق الدرب ونجم الليالى بالعواصـم العربية، لا القاهرة فقـط، بخفة الظل وبقدرته كمثقف على اسـتدعاء المعلومـات بذاكرة حادة وذكاء مفرط.

لإسماعيل النقيب الذى اختاره الله إلى جواره، بعد أن غيبه المرض طويلا عن ممارسـة عشق السهر والسمر، وربما لا يعرف كثيرون أنه من المتحدثين المبدعـين، بل ويعد آخر عنقود سـلالة الظرفاء الكبار عبد العزيز البشـرى وكامل الشناوى ومحمود السعدنى.

وياصديقى، وأنا أدعو لك بالرحمة، فإن المقطوع به أننا إلى لقاء.

ويا صديقى لم تعد الحياة بعد رحيلك مثلما كانت، ولن تكون.

المؤلف

مقدمة

أتاحت ظروف عملى كمحرر عسـكرى ومراسـل حرب فى بلاط صاحبة الجلالة لأكثر مـن نصف قرن فرصا للاقتراب من رؤسـاء مصر الثلاثة جمال عبدالناصر وأنور السـادات وحسنى مبارك.

وللتاريخ فإننى لم أسع إلى هذا الاقتراب، ولكن توالت الخطوات، وكل خطوة تقود إلى الأخرى دون أى تدبير من جانبى.

وخطوة إثر خطوة وجدت نفسـى فى الشـارع الخلفى للأحداث شـاهدا فى كثير من الأحيان على بعضها ومشاركا فى أحيان أخرى فى بعض آخر.

ومثـل هذا الوجود كان له ثمنه وكانت له بصماته وآثاره على حياتى، وها أنذا أحاول أن ألقى الضوء على جوانب من بعض ما عشته أو شاركت فيه من أحداث.

وأوضح أن الأمر ليس أكثر من رؤية ذاتية وليس تاريخا أو حتى محاولة لتصحيحه.

وعلى الله قصد السبيل.

عبده مباشر
القاهرة فى أكتوبر ٢٠١٢ م

الباب الأول

أنا.. وعبد الناصر

الفصل الأول

الطريق إلى الملك فيصل «١»

لم يكن اللقاء بالرئيس عبدالناصر مخططا، كما لم اسـع إليه لا فى المرة الأولى ولا فيما بعد، وبالمثل فإننى لم أسع للقاء الرئيس السادات أما الرئيس حسنى مبارك فقد عرفته وهو ضابط وقائد بالقوات الجوية وظلت العلاقة مستمرة بعد أن أصبح نائبا لرئيس الجمهورية ولكنها تراجعت بعد أن صعد إلى مقعد الرئاسة.

وإذا ما عدت إلى الخلف وحاولت العثور على نقطة بداية لكل ما جرى وما عشته من أحداث يمكن تبين علامات على الطريق لم يكن من الممكن قراءتها وقتذاك. والآن أجد أن الحياة سلسلة متصلة من الحلقات كل منها تفضى إلى الأخرى دون أن تبوح بالمجهول أو بما هو قادم. حتى الطموحات والأحلام والأمانى لم تكن تشى بشىء فالكل يملكون أحلامهم الخاصة والعامة والكل يحاول الوصول إليها أو لا يحاول ويكتفى بامتلاك الأحلام أيا كانت عظمتها أو تواضعها.

وعالم أحلامى منذ البداية ارتبط بقضية الوطن والتحرر من الاستعمار. فى ذلك الوقت كان الطرح بسيطا، أن مشروع النهضة والتقدم سيبدأ وينطلق بقوة بعد القضاء على الاستعمار أى أن مقاومة المستعمر الإنجليزى هى الطريق للانعتاق والانطلاق.

وعاش جيلى يحلم ويعمل من أجل التحرر من الاستعمار وكان المناخ آنذاك هو التظاهر.

وكتلميذ بالمرحلة الابتدائية كنت اكتفى بالمشاركة فى المظاهرات التى تخرج من المدارس الثانوية لتسير فى شوارع مدينة الزقازيق.. وفى بداية المرحلة الثانوية التى عشتها بمدرسة الزقازيق الابتدائية الأميرية التى كان بها سنتان من مرحلة الدراسة الثانوية السنة الأولى والسنة الثانية، مرت مظاهرة خرجت من مدرسة الزقازيق الثانوية الأميرية وعبرت بحر مويس حتى وصلت إلى أسوار مدرسة الزقازيق الابتدائية الأميرية والكل يهتف يحيا اتحاد

الطلبة.. كنا فى الفصول والدراسة مستمرة والمدرسون ينصحوننا بالاستمرار فى الدراسة وعدم الالتفات إلى المظاهرة إلا أننى غادرت مقعد الدراسة وهتفت «يحيا اتحاد الطلبة» فخرج الفصل معى فى مظاهرة وتمكنا من إخراج باقى الفصول وانضممنا إلى مظاهرة الزقازيق الثانوية. وأفسح لى قادة المظاهرة الكبار مكانا للاشتراك فى القيادة وكانت المرة الأولى التى أقود فيها مظاهرة ولم تكن الأخيرة.

وعندما أعلن مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء فى أكتوبر عام ١٩٥١م إلغاء معاهدة ١٩٣٦م بدأت عمليات فدائية فى منطقة القناة للضغط على قوات الاحتلال من أجل أن يرحل. كنت بالسنة الثالثة الثانوية بمدرسة الزقازيق الثانوية فتوجهت للتطوع بكتائب حزب الوفد التى رأيت أنها الأنسب بالنسبة لى.

ورغم صغر سنى «١٤ عاما» تم قبول تطوعى ورحبوا بى باعتبارى زعيما صغيرا أى أنه لولا قيادتى لمظاهرة مدرسة الزقازيق ما قبلوا تطوعى.

حلقة تقود إلى أخرى دون أن تشى بشىء مما هو قادم.

وبعد مرحلة تدريبية قصيرة اشتركت فى العمل الفدائى. فى البداية شاركت فى نقل الأسلحة والذخائر، ورأى القادة أننى يمكن أن أشارك فى العمليات الفدائية بشكل مختلف فانتقلت لمرحلة الاشتراك فى العمليات العسكرية ضمن القوة السائرة أو قوة الحماية بعدها شاركت فى عمليات الاقتحام وذاع صيتى باعتبارى الأصغر سنا بين الفدائيين بمنطقة القناة.. والأكثر جرأة وربما كان ذلك لأننى صغير السن لا أحسب العواقب جيدا. وبعد معركة الإسماعيلية التى هاجمت فيها قوات الاحتلال الإنجليزى مبنى مديرية الإسماعيلية وقوات الشرطة والأمن يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢م واحتراق القاهرة اليوم التالى توقفت الأعمال الفدائية بمنطقة القناة، وعاشت مصر مرحلة المخاض اليوليوى.

وكان المحور الثانى فى عالم اهتماماتى هو القراءة وقبل أن أحصل على شهادة التوجيهية «إتمام الدراسة بالمرحلة الثانوية» كنت قد تمكنت من قراءة معظم الكتب الموجودة بمكتبة البلدية «المكتبة العامة» بالزقازيق بالإضافة إلى مكتبة المدرسة وقد أقام الأستاذ عطية السيد مدرس اللغة العربية والمشرف على المكتبة حفل تكريم لى حضرها الناظر والمدرسون وممثلون من التلاميذ لمختلف السنوات الدراسية وتم إهدائى مجموعة من الكتب، وأقر الجميع أنها المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك.

هذا الاســتغراق فى القراءة وهذه العوالم المبهرة للكلمة والسياحة عبر الصفحات التى لم تعرف التوقف فى عالم المعرفة والأفكار شــجعنى على التردد على ندوات الكبار بالقاهرة. العقاد. مندور. نادى القصة. النادى الثقافى بجاردن سيتى، نجيب محفوظ، القبانى كلما كانت الفرصة متاحة.

والأهــم كان بداية التســاؤل، ولمــاذا لا أحاول الانضمــام إلى عالم أهــل الكلمة؟ ولماذا لا أحــاول أن أكــون صحفيا؟ وكانت تلــك نقطة البداية فى حلــم الالتحاق ببلاط صاحبة الجلالة، وعلى امتداد سنوات الأحلام لم تتوقف محاولاتى إلا بعد الانضمام لأسرة جريدة الأخبار ولم يكن هناك من أبناء العائلة من فكر فى اختيار الصحافة مهنة له قبلى وهذا ما جعلنى أول أفراد الأسرة فى بلاد صاحبة الجلالة ليس ذلك فقط بل لم يكن هناك خال أو عم أو قريب أو صهر أو نسيب يمكن أن استفيد من خبرته أو أن يقدم لى يد المساعدة لذا لم يكن أمامى سوى الاعتماد على الله وعلى نفسى إذا ما أردت الاستمرار والنجاح. ولقد كنت راغبا فى النجاح بكل خلية وكل ذرة فى كيانى كما كنت فى الوقت نفســه أخشــى الفشل جدا، ولم يكن أمامى سوى العمل بكل ما أملك من طاقة بل وبما يجاوز حدود هذه الطاقة، كانت المنافسة شديدة الشراسة فالمهنة مهنة منافسة والسوق مفتوحة ولم تكن قرارات تأميم الصحافــة قد صــدرت بعد. وكان النجاح هو طريق الصعــود. وكانت نماذج النجاح عديدة وكلها ســارت على الدرب بالعمل والكفاءة والــذكاء والموهبة، وكان الجميع يقولون لنا إن الموهبة تشــكل ١٪ فقط أما المثابرة فتشــكل ٩٩٪ هذه إذن معادلة النجاح. المثابرة والموهبة وفى ظل هذه المنافســة المشــروعة فى مهنة لا تعرف الأقدمية والدرجات كان الكل يعمل ويســعى للنجاح ووضعت نصب عينى أن أعمل أكثر مــن الآخرين وأن أتجنب الوقوع فى الأخطاء قدر الإمكان، وقد كان، كنت أعمل لأكثر من ١٦ ســاعة يوميا فبعد جولة الصباح والظهيرة بحثا عن الأخبار والمعلومات أنضم إلى الفريق الذى يســاعد نائب رئيس التحرير المسئول عن إصدار الجريدة ولا أغادر المبنى إلا بعد صدور الطبعة الأولى.

هذا الحرص الفائق على النجاح والخوف الكبير من الفشل ومتابعة الجميع للجهد الذى أبذله كان وراء ترشيح مجلس التحرير لى بالإجماع للسفر إلى المملكة العربية السعودية بعد توقيــع كل مــن الرئيس عبدالناصر والملك فيصل اتفاقية جدة فى أغســطس ١٩٦٥م لإنهاء الصراع العسكرى فى اليمن، لإعداد مجموعة من التقارير والتحقيقات عن الموقف والأوضاع

عقب هذه الخطوة الرئيسية، وهذا القرار فتح لى الباب للقاء الملك وبسبب الحوار الصحفى مع الملك، كان اللقاء مع الرئيس عبدالناصر لأول مرة، حلقة تقود إلى أخرى دون أن تشى، أو تبوح بأى شــىء. خطوات على طريق الأقدار لا يمكن لبشــر تقديرها أو التنبؤ بها. أما المحور الثالث للاهتمامات فيرتبط ارتباطا وثيقا بالمحور الثانى فقد كشــفت لى قراءة تاريخ مصر الارتباط بين الانتصارات العسكرية والازدهار والعكس صحيح أى الارتباط بين الهزائم والانكســار ودون الاســتغراق فى التفاصيل ســنكتفى بالإشارة إلى أن ســنوات الانتصارات العسكرية لجيش محمد على باشا كانت هى السنوات المضيئة فى عصره وهى التى شهدت بنــاء قواعد النهضة المصرية الحديثة بــكل جوانبها العلمية والتعليمية والثقافية والصناعية والزراعية والاجتماعية.

وعندمــا ذاقــت مصر طعــم الهزيمة بعد اشــتراك القوى العســكرية الأوربية فى تدمير الأسطول المصرى فى نافارين عام ١٨٢٧م وإرغام الجيش المصرى على الانسحاب من الشام والتقوقــع داخل حدود مصر وفــرض معاهدة لندن ١٨٤٠م على والى مصر الشــجاع بدأت سنوات التراجع والانكسار الداخلى.

وتكرر الأمر فى عصر إسماعيل باشــا، فقد تحركت قواته للاســتيلاء على كل من زيلع ومصوع وســواكن على شــاطىء البحر الأحمر الغربى، ووفرت الحماية لعمليات استكشاف منابــع النيل فبدأت ســنوات الازدهار من جديد وانطوت الصفحــة فى عصر ابنه الخديو توفيق باحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢م.

وعاد الجيش المصرى إلى صدارة المشــهد بالعمليات العسكرية فى السودان وواكب ذلك وأعقبه ثورتا مصطفى كامل وســعد زغلول وإصدار دســتور ١٩٢٣م، فعادت مصر لتواصل الســير على طريق بناء مشروعها النهضوى الذى بدأه محمد على باشا. وعندما بدأ الصراع العســكرى المصرى الإســرائيلى فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى وواجهت مصر الهزيمة فى معركة ١٩٤٨م بدأت الشروخ فى الجسد المصرى.

وكان هــذا المحــور وراء اختيارى العمل فى القطاع العســكرى بجريــدة الأخبار دعما للقوات المسلحة وأحلام الانتصار الذى سيقود مصر للازدهار من جديد.

وهذا التخصص فتح الباب لعلاقات وطيدة ومفتوحة بقادة وضباط القوات المسلحة والمهم لقبول تطوعى بالصفة المدنية بقوات الكوماندوز والمجموعة ٣٩ قتال بعد نكبة يونيو ١٩٦٧م للعمل خلف خطوط العدو فى سيناء المحتلة.

وتجدر الإشـــارة هنا إلى أن طلب التطوع كان السبب فى الاقتراب للمرة الثانية من عالم الرئيـــس عبدالناصـــر فبعد أن رفض الفريق أول محمد فـــوزى وزير الحربية طلب تطوعى، قـــرر اللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية عرض الأمر على الرئيس عبدالناصر الذى وافق عليه.

والانخراط فى العمل الفدائى لمقاومة الاحتلال الإسرائيلى هو الاستمرار المنطقى للاشتراك فـــى مواجهة قـــوات الاحتلال الانجليزى عام ١٩٥١م، وهـــذا التخصص هو الذى أتاح لى الاقتراب من المشير عبدالحكيم عامر وأنور السادات وبناء علاقة بحسنى مبارك بالإضافة إلى كل من الملك فيصل والملك فهد والمشير عبدالله السلال ونائبه الفريق حسن العمرى والعقيد معمر القذافى ونائبه جلود وباقى قادة الثورات الليبية وياسر عرفات وصدام حسين والشيخ زايد وأمير الكويت وتيتو وسوهارتو وماوتسى تونج وأولبريشت وهيلموت كول وغيرهم.

وبما أن لقاء الملك فيصل كان الســـبب فى أول لقاء لى مع الرئيس عبدالناصر ســـأعود إلى أوراقى لأروى حكاية هذا اللقاء.

اجتمـــع مجلـــس تحرير الأخبار صباح اليـــوم التالى لتوقيع اتفاقية جـــدة وكان من بين القرارات التى اتخذها بالإجماع ســـفرى إلى الســـعودية لمتابعة الموقف الســـعودى من تنفيذ الاتفاقية التى اســـتهدفت حل المشكلة اليمنية التى بدأت بانقلاب السلال على حكم أسرة حميد الدين يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م ثم تحولت إلى مستنقع لاستنزاف مصر ماديا وبشريا. وهنا يجب أن نشـــير إلى أن مصر كانت تخســـر يوميا أكثر من خمسة ملايين دولار بجانب خســـائرها من الأفراد والأســـلحة والمعدات وأدى التدخل العســـكرى المصرى الذى بدأ فى أعقـــاب نجاح الانقلاب العســـكرى إلى تدخل أطراف أخرى إقليمية مثـــل المملكة العربية السعودية وإيران والأردن وإسرائيل وعالمية مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وأصبح الهدف الرئيسى لكل هذه القوى هو حصار التدخل المصرى واستنزاف عبدالناصر ونظامه.

وفى وقت قصير نســـبيا تســـلمت من إدارة الأخبار تذكرة الســـفر «وفاوتشـــر» يسمح لى بالتنقل داخل المملكة على طائرات الخطوط السعودية وبدل السفر وبطاقة للاتصال التليفونى بالجريدة دون ســـداد نقود بالخارج collect وكان تقديرى أننى ســـأحصل على التأشيرة دون إبطاء إلا أن السفارة السعودية احتاجت ما يقرب من ثلاثة أشهر لكى أحصل عليها.

وقبل الوصول إلى جدة ســـألت عن الفنادق الموجودة بها فأخبرونى بوجود فندقين الأول

«الكندرة» والثانى «قصر البحر الأحمر» ولأن الأخير كان يطل على البحر وقريب من السوق الرئيسى بالمدينة فقد اخترت الإقامة به وبعد أن أقمت فى جدة تبينت أننى الصحفى المصرى الوحيد الموجود بالسعودية والمكلف بمثل هذه المهمة وبالتالى كنت على بينة من أن السلطات ستفرض رقابة على تحركاتى واتصالاتى التليفونية بسبب الحذر والشك فى صحفى يعمل فى صحافة عبدالناصر الذى عادى المملكة بل وكل نظم الحكم الملكية باعتبارها نظما رجعية تقف فى معسكر الإمبريالية ومع ذلك كنت فى حاجة إلى لقاء كل المسئولين سواء من داخل الأسرة السعودية أو خارجها الموجودين فى جدة قبل الانتقال للعاصمة الرياض للقاء الملك الذى يعد الهدف الرئيسى لهذه المهمة الصحفية. وفى جدة التقيت بالأمير عبدالله الفيصل الابن الأكبر للملك والشاعر الكبير والشيخ كمال أدهم شقيق زوجة الملك ومدير المخابرات السعودية بالإضافة إلى عدد من الوزراء الموجودين بجدة ورجال الأعمال وفى مقدمتهم سالم بن محفوظ المالك الرئيسى للبنك الأهلى السعودى والذى يعد فى قائمة الرجال الأكثر ثراء فى المملكة والذى يلعب دورا رئيسيا فى المجال الاقتصادى.

كما التقيت بالمالك صاحب النسبة الأكبر من رأسمال الفندق رجل الأعمال المصرى وعميد الجالية المصرية بالمملكة حسن آدم وعرض على التوسط للقاء الملك ولكننى أخبرته أننى أفضل أن أسلك الطريق إلى هذا اللقاء وحدى وعبر القنوات الرئيسية بالمملكة خاصة وزير الإعلام. ثم علمت فيما بعد أن آدم عديل الملك فيصل وصاحب مركز متميز داخل الأسرة الملكية. وفى مكتبه التقيت بالفنان سعد عبدالوهاب الذى اختار الإقامة لفترات طويلة بالمملكة وبفندق قصر البحر الأحمر واصطحبنى الفنان الكبير لسهرات فى بيوت عدد من الأمراء السعوديين وكثيرا ما تحولت هذه السهرات إلى ندوات ثقافية تمتد حتى ساعات الصباح الأولى.

واللافت للنظر أن أحدا من الحاضرين لم يطرح قضية سياسية للنقاش بالرغم من تعدد السهرات والمجاملات.

وكانت المجاملة والتحفظ طابع معظم هذه اللقاءات باستثناء اللقاء مع الأمير عبدالله الفيصل والشيخ كمال أدهم.

وقد حرص الأمير والشاعر عبدالله طوال اللقاء على اختيار كلماته وهو يعبر عن موقفه

من عبدالناصر ونظامه وعلى الفصل دائما بين مصر وحاكمها وعلى تأكيد صداقته بعدد كبير من المثقفين والفنانين والكتاب والصحفيين المصريين.

وقد توقف الحوار بيننا عندما قال إنه مستعد للانفاق حتى آخر هللة «مليم تقريبا» من ماله حتى يركع عبدالناصر.. وكانت إجابتى «أن عبدالناصر لن يركع».

والمثير للدهشة أن الحوار مع الشيخ كمال أدهم انتهى بنفس الصورة فقد قال الجملة نفسها التى قالها عبدالله الفيصل ولم تختلف إجابتى.

كان الرجلان حادين فى عدائهما للرئيس عبدالناصر ولم يحاولا إخفاء هذا العداء ولم يناورا، وحمدت لهما شجاعتهما الأدبية ورأيت أن هذا الموقف هو أول القصيدة، وأن اتفاقية جدة أو عشر اتفاقيات من هذا النوع من الصعب أن تحقق أى نجاح على أرض الواقع. وكان تقديرى خاصة بالنسبة لكمال أدهم أنه رجل يعلم حقيقة اتجاهات السياسة السعودية إن لم يكن يقبض بيديه على بعض خيوطها من خلال موقعه المتميز على رأس جهاز المخابرات العامة السعودية وأيقنت أن وقت التوجه إلى الرياض قد حان. وهناك بالعاصمة التقيت بالشيخ جميل الحجيلان وزير الإعلام وقتذاك وحاول الرجل إقناعى بقبول استضافة المملكة لى واعتذرت موضحا أننى كصحفى مصرى فى صحافة مملوكة للحكومة أفضل أن أتحمل تكاليف إقامتى من باب الحذر والوقاية من شكوك أجهزة الأمن القوية.

كما أن المسئولين بالقاهرة قد يسيئون فهم قبولى هذه الضيافة. فتفهم الرجل وابتسم ثم حاول تقديم هدية لى كانت تحمل وقتذاك اسم «خلعة» عرفت فيما بعد أنها تضم سبحة وعباية فخمة ومبخرة وطاقم أقلام وسجادة للصلاة ولكننى اعتذرت برقة شديدة.

وبعد حوار حول اتفاقية جدة التزم فيه الرجل بالموقف الرسمى، ولم يحاول أن يخصنى بمعلومات من تلك التى يطلب فيها المسئولون عادة عدم نشرها لأنها للعلم فقط Offrecord.

وطلبت منه أن التقى بالملك فقال ببساطة اذهب والتقى بالملك ودق الجرس فحضر سكرتيره فطلب منه أن يصحبنى المرافق لى الآن إلى القصر الملكى والتفت إلى مودعا وداعيا لى بالتوفيق.

وأمام القصر توقفت السيارة، وقال المرافق السعودى إنه يمكننى الدخول ولقاء الملك وتركنى وانصرف.

وأمام هذه المفاجأة التى لم أتوقعها كان على أن اتخذ قرارا إما الدخول الآن وإما العودة إلى وزارة الإعــلام أو العــودة إلى الفندق وبما أننى أمام القصر وبما أن الوزير والمرافق أوضحا لى أنه يمكننى لقاء الملك فقد قررت الدخول والتصرف وفقا لما ســوف أواجهه داخل القصر الملكى من مواقف.

❑❑❑

حوار مع الملك فيصل (٢)

عندمـــا طلبت من الشـــيخ جميل الحجيلان وزير الإعلام الســـعودى مقابلة الملك فيصل من أجل إجراء حوارٍ صحفى للنشـــر بجريدة الأخبار المصرية، وافق الرجل فورا وتصورت أنه ســـيجرى اتصالاً بالقصر الملكى لتحديد موعد لهذا اللقاء وقبل الموعد سيمر على المرافق الســـعودى بالفندق ليصحبنى للقاء الملك، وســـينتظر بمكتب رئيـــس الديوان الملكى إلى أن ينتهـــى اللقـــاء ليعود بى إلى الفندق أو للقاء الوزير إلا أن كل ذلك لم يحدث وقال لى الوزير اذهب وقابل الملك. وطلب من المرافق أن يصحبنى إلى القصر الملكى. وهناك أمام بوابة القصر قـــال لى المرافـــق ادخل وقابل الملك وتركنى وانصرف. ومن قلب الدهشـــة والحيرة والمفاجأة قـــررت أن أدخل القصر. وليكن ما يكون واجتزت البوابة الرئيســـية والحديقة الصحراوية التى تضم عددا من أشجار النخيل والنباتات الشوكية وبقايا مساحات خضراء طغت عليها الرمال. ثم دلفت من الباب الرئيسى. وأنا أتعمد عدم النظر إلى من ألتقى بهم وكان اللافت للنظر عدم وجود حراســـة أو أفراد أمن أو أســـوار أمنية لمنع الدخلاء مثل تلك التى أعرفها فى مصر. وسرت قليلا فى الممرات فوق سجاد أحمر اللون. وقلت لنفسى سوف أعرف مكان مكتب الملك ومكاتب المديرين من خلال هذا السجاد وحرصت على ألا أسأل أحدا حتى لا أواجه بسؤال أو بأسئلة من أى نوع. ولكن كان واضحا لكل من يمرون بجوارى أننى لست سعوديا لأننى الوحيد الذى يرتدى حلة وربطة عنق ويحمل جهاز تسجيل على كتفه. ومع ذلك لم أسأل أو أستفسر وواصلت السير فى الممرات وفى إحداها وجدت أن السجاد ازداد سمكه فاســـتنتجت أننى بالممر الذى يقود إلى مكتب الملك وما أن سرت قليلاً حتى وجدت نفســـى أمام مكتبين متقابلـــين أحدهما له باب جانبى أى على ممـــر آخر وبابه مفتوح أما الآخـــر فبابه مغلق. فأدركت أنه مكتب الملك أما الثانـــى المفتوح فمكتب مدير مكتبه وكان اسم الرجل قد تردد كثيرا فى لقاءاتى السابقة باعتباره المسئول عن مكتب الملك وقررت أن أدخل المكتب وســـألت الجالس عليه عن الشـــيخ أحمد إبراهيم فقال إنه هو فقدمت نفسى إليه فطلب منى الجلوس وأمر بالقهوة وكلما انتهيت من شـــرب هذه الرشـــفات من القهوة

العربية قدموا لى المزيد وطال الوقت قليلا فتوجهت إلى مكتب الرجل لأسأل متى سأقابل طويل العمر جلالة الملك فطلب منى الانتظار مع وعد بأننى سأقابله.

وجلست مع الجالسين الذين تزايد عددهم وبعد فترة فتح الشيخ الباب المطل على الممر الرئيسى والمواجه لمكتب الملك الذى كان مفتوحا وطلب من الجميع أن يتفضلوا إلى مكتب طويل العمر ووجدت أن من دخلوا قد جلسوا على المقاعد الجانبية بالمكتب المتسع المساحة الذى يتصدره المكان الذى جلس فيه الملك.

وظل الرجل يستقبل الحاضرين فردا فردا وبعد أن يستمع إليهم يصدر أوامره همسا وبما يفيد استجابته لمطالبهم.

وبعد قليل قال فليتفضل الصحفى المصرى ويجلس بالقرب منى واتجهت إلى حيث أشار ثم خاطبنى قائلا: إنه سينظر فى مصالح الناس إلى أن أنتهى من شرب قهوتى.

وحتى لحظة جلوسى بالقرب من الملك ثم بجواره لم أمر بأى إجراءات أمنية ولا حتى بمكتب للاستعلامات ولم يسألنى أحد إلى أين؟ أو من أين؟ أو من أنا؟

وأخيرا أشار الملك لكى أجلس بجواره. وسألنى عن أحوالى وكيف أجد الإقامة فى المملكة ومن ثم فتح الباب أمامى لأستأذنه فى إجراء حوار معه فأشار إلىّ أن الشيخ جميل أخبره أننى رفضت هدية فأجبت بسرعة إن هديتى الحقيقية هى الحوار مع جلالته.

وقبل أن أطرح أسئلتى استأذنته فى تسجيل الحوار، وأذن الملك وكانت البداية ما سمعته من الأمير عبدالله الفيصل والشيخ كمال أدهم، فاستنكر الملك ما قالا، ووصف الأول بأنه ولد وقال عن الثانى إنه تركى لا علاقة له بسياسة المملكة، وكانت بداية غاية فى السياسة والذكاء والبراعة والاقتدار، كان الاستهلال رائعا وتوالت الأسئلة حول الأوضاع فى اليمن واتفاقية جدة والموقف فى العالم العربى وإسرائيل والقضية الفلسطينية والنفوذ الغربى فى المنطقة ومستقبل الصراع الإقليمى والدولى حول الشرق الأوسط فى ظل الحرب الباردة أو محاولات الاستقطاب الحادة التى يقودها المعسكران الشيوعى والرأسمالى.

كانت قائمة الأسئلة طويلة وكنت قد استغرقت وقتا طويلا فى إعدادها، وكان من الضرورى أن أقرأ عشرات الملفات والكتب والدراسات والوثائق فقد كانت المرة الأولى التى يلوح فى الأفق احتمال لقاء وحوار مع الملك فيصل ولم أكن أريد أن تكون الفرصة المتاحة هى الأخيرة، كنت أتمنى لنفسى النجاح وأن تتكرر المهام التى تقود إلى ما هو أفضل.

وبجانب الاستغراق فى الملفات والأوراق، سعيت للتعرف بشكل أفضل إلى شخصية الملك فيصل خاصة بعد أن تمكن من إزاحة سعود والحلول محله.

ولقد كانت هناك أسباب موضوعية من وجهة نظر الأسرة السعودية تتطلب عزل الملك سعود وإسناد المسئولية لفيصل. فقد اتسم أداء سعود بالارتجالية والتخبط والتهور منذ أن تفجرت أحداث اليمن كما كان عاشقا للذة والنساء ومحبا للحياة المنطلقة التى لا تعرف القيود فى حين عرف عن فيصل الحكمة والتقشف والزهد والذكاء.

ولأن فيصل كان مريضا خاصة بالقرحة المعدية فقد فرض عليه الأطباء نظاما غذائيا خاصا يخلو من الدهون والتوابل ويعتمد بشكل أساسى على الأطعمة الخفيفة السهلة الهضم مع مراعاة تناول كميات محدودة فى كل وجبة وبجانب هذا النظام الغذائى كان عليه أن يلتزم بحياة معتدلة وبعيدة عن الإغراق فى المتع الحسية.

وقد ناسبته هذه الحياة المتقشفة لأنه بطبيعته هادىء ومحب للاستقامة والاعتدال.. وكان قد تعلم من ماضيه وخبراته أن يكون كتوما وألا يثق فى أحد وأن يعمل ويفكر وحده دائما وإن تطلب الأمر كان يلجأ لاستشارة من هم أهل للإستشارة. ومن ميزاته أنه فى قراراته لا يعرف الاندفاع أو التهور وكان باستمرار رجل الأزمات فى المملكة كما كان موضع ثقة والده الملك عبدالعزيز.

كل ذلك أسهم فى تكوين صورة إيجابية عنه فى أذهان الناس بجانب السمعة الطيبة.

ومنذ البداية قرر أن يتحرك ويعمل على عدة محاور فى الوقت نفسه. ولكن كان عليه أن يجمع كل خيوط السلطة فى يده. وألا يسمح بوجود قوى مناوئة أو معارضة سواء داخل الأسرة السعودية أو بين صفوف المواطنين.

بدأ بالأمراء المعارضين أو المناوئين أو هؤلاء الذين سحرتهم دعاوى القومية العربية والأحلام الوحدوية بجانب الذين أضيروا أو أضيرت مصالحهم من جراء عزل الملك سعود. وبالرغم من أن الرئيس المصرى قد استغل الملك سعود وهو بالمنفى فى معركته مع المملكة السعودية والملك فيصل بأن استقبل سعود فى مصر واحتفى به حفاوة بالغة ودفعه للقيام بزيارة لليمن للتدليل على انقسام الأسرة السعودية وللتلويح لفيصل بقدرته على استخدام سعود للتآمر على العرش السعودى وحرمان فيصل من الإحساس بالاستقرار فإن الملك السعودى واجه الموقف بكثير من الصمود.

وبذكاء استغل فيصل الخطأ الذى وقع فيه سعود لحصار وعزل ونفى عدد من الأمراء خاصة من أبناء سعود وأنصاره.

ولم يكن عسيرا عليه تقليص نفوذ عدد آخر من الأمراء المشايعين للعروبة أو المعارضين خاصة وهو يملك قدرات وإمكانات هائلة لمارسة الضغط عليهم سواء بسياسة المنح أو المنع أو بتحريك قوى من داخل الأسرة السعودية للتأثير عليهم مع التلويح بالمخاطر التى تهدد المملكة.

أما بالنسبة لكبار الأمراء الذين يتحملون مسئوليات مباشرة فى الدفاع عن المملكة وفى صياغة السياسات وصناعة القرارات. فقد عمد إلى تحقيق توازن فى القوى. بمنع انفراد أى منهم بالسيطرة على قوة عسكرية توفر له القدرة على ممارسة أى ضغوط أو التلويح بها.

ويعتبر الملك فيصل المهندس الرئيسى لسياسة توازن القوى داخل الأسرة السعودية بل وداخل المملكة، ولما كان سلطان هو وزير الدفاع المسئول عن القوات المسلحة السعودية فقد كان ذلك يعنى أنه القائد الحقيقى وصاحب النفوذ القوى سواء داخل المملكة أو بين أبناء الملك عبدالعزيز ولأن فيصل كان فى سبيله لعقد صفقات سلاح ضخمة لدعم قدرات القوات المسلحة، خاصة القوات الجوية والدفاع الجوى وإنشاء قواعد عسكرية خاصة على الحدود الشمالية لليمن فقد استغل الموقف وضاعف ميزانية وزارة الداخلية لكى تتوسع فى مجال القوة البشرية والسلاح والخبرات الفنية والتكنولوجية.

وعلى ضوء هذه السياسة أصبحت القوى العسكرية التابعة لوزارة الداخلية قوة يعتد بها وفعل مع قوات الحرس الوطنى السعودى ما فعله مع وزارة الداخلية.

وهكذا أصبحت هناك ثلاث قوى عسكرية بالمملكة على رأس كل منها أمير من أصحاب السطوة والنفوذ. وبهذه القوى المستقلة نسبيا والموزعة والمنتشرة فى أنحاء المملكة والقوية التسليح وإن لم تكن متكافئة تماما تحقق التوازن بالمملكة وداخل الأسرة الحاكمة وأصبحت كل قوة تنظر للقوة الأخرى بكثير من الاعتبار.

وبهذه السياسة حافظ فيصل على تماسك الأسرة وأمن مخاطر الانقسام أو بروز مركز أو قوة قادرة على ممارسة أى نوع من الضغوط.

أما معركته الأخطر داخليا فكانت مع جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر القوية والمسيطرة استنادا إلى دورها وتأثيرها الدينى والأهم إلى التحالف القائم بين الأسرة السعودية

ومؤسس المذهب الوهابى والذى شكل نقطة الانطلاق لإنشاء الدولة السعودية فى منطقة شبه الجزيرة العربية.

وأهم ما فى هذا التحالف تقاسم السلطة بين الطرفين.. السلطة الزمنية أو السياسية للأسرة السعودية والسلطة الدينية للشيخ محمد بن عبدالوهاب وآل الشيخ من بعده أى أسرته.

كان الملك يدرك أن الجماعة تقف عقبة أمام أية محاولة لتطوير وتحديث المملكة وأن أى إصلاحات ستواجه بمعارضة قوية وواسعة النطاق من جانب هذه الجماعة، وكان قراره ضرورة المواجهة، وما أن اعترضت الجماعة على خطته الخاصة بتعليم البنات حتى أمر بوقف مخصصاتها المالية، ومضى فى طريقه وأمر بفتح أبواب المدارس أمام البنات وبتوفير الحماية الكافية لهن ولأهاليهن ومعاقبة كل من يحاول من أعضاء هذه الجماعة التعرض لهن أو الاعتداء عليهن بأية صورة من الصور.

وأدركت الجماعة أنها تخوض معركة وجود ضد الملك فيصل ولم يكن مطروحا أن تستسلم أمامه وأمام أفكاره التى ترى أنها تتعارض مع التقاليد الراسخة للمجتمع السعودى بل ومع الدين من وجهة نظرها.

ومع ذلك لم يكن أمامهم سوى التراجع حرصا على المخصصات المالية وكسب فيصل هذه الجولة.

وسرعان ما دقت المعركة الثانية الأبواب وكان ميدانها الإذاعة.

ومنذ عرفت السعودية البث الإذاعى ظل الأمر مقصورا على إذاعة القرآن الكريم والتفاسير والأحاديث النبوية والشروح الخاصة بالمذهب الوهابى.

وبمثل هذه الإذاعة لم يكن ممكنا للسعودية أن تثبت فى مواجهة أعاصير الإذاعة المصرية أو غيرها من الإذاعات خاصة بعد أن انتشرت أجهزة الراديو الرخيصة السعر.

ولم يكن الملك فيصل ليقبل أن يترك المواطنين السعوديين لقمة سائغة للإعلام الناصرى، فأمر بتطوير الإذاعة وبدأ بإذاعة أغانى للمطربين الرجال خشية من أن يثير صوت المطربات مشكلة يصعب مواجهتها فى تلك المرحلة المبكرة من خطة التطوير.

كانت القضية مرتبطة بالأمن القومى السعودى وبالصراع مع كل القوى العربية والإقليمية المناوئة صاحبة الخط الثورى الذى يستهدف القضاء على الممالك العربية لا المملكة السعودية فقط

باعتبارهــا قوى رجعية تخدم مصالح الاســتعمار والإمبريالية. لم تكن القضية هنا قضية خلاف بين ملك مصلح وجماعة محافظة، بل بين الاستقرار وعدم الاستقرار، بين البقاء وعدم البقاء.

ومن أجل هذه الرؤية الصحيحة سياسيا واستراتيجيا وإعلاميا خاض الملك هذه المعركة باعتبارها جزءا من الصراع مع مصر وباقى القوى الثورية العربية.

ولم تبــد الجماعة أى ردود أفعــال فى البداية بعدها اســتخدمت الإذاعة مذيعات من الإناث وكان من بينهن ابنة وزير الإعلام وقتذاك الشــيخ جميل الحجيلان ثم انتهى الأمر بإذاعــة أغانــى للمطربات ولم يجرؤ أى من أعضاء الجماعة علــى الاعتراض والصياح بأن صوت المرأة عورة أو فســق أو أن الأمر كله مخالف للدين والتقاليد أو أن الأغانى من عمل الشيطان لأنها تلهى الناس عن الصلاة وعن الذكر خشية من قطع المخصصات المالية بشكل نهائى.

ولكن الجماعة لم تلتزم الصمت عندما بدأوا العمل فى إنشاء محطة للإرسال التليفزيونى فقد تحركت بســرعة وكســبت فى صفها عددا من الأمراء وخططت للهجوم على المحطة وتدمير الهوائيات الخاصة بها وكانت الأوامر الصادرة لقوة الحراســة تقضى بإطلاق نيران فى الهواء للتحذير والإنذار إذا ما اقترب المهاجمون من مبنى المحطة بعدها توجه النيران إلى المهاجمين إذا ما استمروا فى التقدم.

وعلى مقربة من المبنى سقط أحد الأمراء قتيلا. وانسحب المهاجمون.

وفى النهاية تراجعت الجماعة عن خططها الخاصة بمعارضة الملك علنا.. وهكذا سيطر فيصل على الجماعة وأحكم قبضته عليها.

ولجــأ الملك إلى سياســة الإنفاق العام ليدعم مكانته وليكســب شــعبية لمســاندة موقفه وسياساته.

وفى هذا الإطار عمل على توفير الخدمات وبناء المدارس والمستشــفيات وإنشــاء الطرق. هذه السياســة وفرت آلافا من فرص العمل وفتحت الباب أمام شــركات المقاولات للإثراء وهكذا تدفقت أموال سائلة كثيرة إلى جيوب المواطنين، وبما شكل قوة شرائية هائلة أسهمت فى إحداث رواج بالسوق.

أما بالنسبة للصحافة فقد خطط الملك للسيطرة عليها بتأميمها عبر قانون للصحافة. كان الملك ينهج نهجا معاديا للاشــتراكية والفكر الاشــتراكى ومع ذلك لجأ لتأميم الصحافة وقد

قبل بهذا التناقض طالما يحقق له أهدافه المتمثلة فى سـيطرة تتيح انطلاق حملة قوية على الفكر القومى والتوجه الاشـتراكى ولم تخيب الصحافة ووسـائل الإعلام ظن الملك، وشنت هجوما شرسـا وشـاملا وقويا على الفكر الاشـتراكى، ومزجت بين الاشتراكية والإلحاد، وأوضحت بجلاء أن هذا الفكر ينكر وجود الله والأديان كلها.

وطوال هذه الحملة تجنبت وسـائل الإعلام الهجوم على القاهرة أو عبدالناصر بشـكل مباشـر. ولكى يـبرز الملك فيصل اقليميا وعالميا كحاكم قوى ونـد لعبد الناصر ونظامه كان من الضرورى العمل على عدة جبهات الأولى إعلامية عالمية والثانية عربية والثالثة إقليمية والرابعة فكرية وعقائدية، وعلى الجبهة الإعلامية أبرزت وسائل الإعلام الأمريكية والغربية الملك فيصل كقائد حكيم يقود نظاما مسـتقرا ودولة رائدة، ويعمل من أجل الاسـتقرار فى العالم العربى ومنطقة الشـرق الأوسط التى تغلى بالاضطرابات بسبب تطرف النظم الثورية وحكامها المغامرين الذين يدورون فى الفلك السوفيتى.

وبالنسبة للجبهة العربية عمد الملك إلى دعم النظم الملكية وإعادة بناء التحالف فيما بينها بشكل يجعل تحركها أكثر فاعلية وتأثيرا.

واسـتند التحالف إلى توثيق التعاون والعمل المشـترك ضد النظـم الثورية وضد الوجود العسكرى المصرى فى اليمن.

وفى الوقت نفسـه حرص فيصل على الاحتفاظ بشـعرة معاوية مـع باقى دول المنطقة التى ليسـت ملكية والتى عرفت بأنها ثورية، وكان بذلك يحاول إقامة شرخ فى العلاقات بينها وبين مصر مستغلا فى ذلك الجفوة بين النظامين السورى والعراقى ونظام عبد الناصر ومواقف البعثيين فى البلدين من الرجل خاصة بعد أحداث الانفصال السورى عام ١٩٦١م والشكوك العراقية المصرية المتبادلة والتى ترسخت خلال فترة حكم عبدالكريم قاسم.

وانطلق الحاكم السـعودى على المسـرح الإقليمى بقبوله دعوة لزيارة إيران حيث أعد له الشـاه اسـتقبالا حافلا اراد له أن يحمل الكثير من الـدلالات وأن تقرأ القاهرة أن كل من طهران والرياض يشكلان حلفا قويا يقف فى وجه مخططاتها وأحلام حاكمها الإمبراطورية التوسعية.

خلال الزيارة تقاسم الشاه وفيصل مناطق النفوذ فى منطقة الخليج ولم يقف العاهل السعودى فى وجه أطماع الشاه فى المنطقة وفى الوقت نفسه وافق الشاه على دور ونفوذ للسعودية.

وفــى مجال المعركــة الفكرية والعقيدية رفع الملك فيصل بقوة شــعار العمل الإســلامى والإســلام ليواجه الفكر القومى والعمل الوحدوى. وهذا الشــعار ســبق أن رفعه وتبناه الملك سعود اعتبارا من عام ١٩٥٧م.

وبما أن الســعودية هى الأرض التى تضم الحرمين الشريفين، الكعبة بيت الله والمسجد النبوى، فقد توفرت لها قاعدة راســخة لرفع وتبنى الشــعار الإسلامى وقد وجدت أنصارا كثيرين بين دول العالم الإسلامى وما منظمة المؤتمر الإسلامى إلا أحدى تجليات هذا النهج.

وفــى هــذا الإطار خطت المملكة خطوات واســعة لدعم وتمويــل كل القوى والمجالات والمنظمــات والأحــزاب الإســلامية فى دول العــالم. ولم تكن مصر بعيدة عــن هذا التوجه السعودى بل كانت فى القلب منه.

وبالوصــول إلى هــذه المرحلة توفرت الظروف الملائمة للمناورة ضــد الرئيس عبد الناصر واستغلال تورطه فى اليمن للضغط عليه وكشف عورات نظامه.

وســرعان ما تبنت السعودية مجموعة من طروحات الســلام كمرحلة من مراحل العمل التى تستهدف إحراج مصر وعبد الناصر.

وعلى هذا الطريق جاءت اتفاقية جدة عام ١٩٦٥م ويمكن القول إن كلا الطرفين لم يكن راغبا فى التوصل إلى حل جذرى للقضية، وكان كلاهما يناور لكســب الوقت على أمل أن تتاح له فرصة لتحقيق انتصار عســكرى حاســم يجعله فى موقع أفضل للمساومة أو إنجاز على المسرح السياسى يضعه فى موقف تفاوضى أفضل.

وخلال الحوار الذى أعددت نفســى له طوال الفترة التى ســبقت اللقاء قال الملك فيصل كلامــا طيبــا فى حق الرئيس جمال عبد الناصر ووصفه بأنــه يعمل من أجل التقدم العربى ولا يبخــل بأى مجهــود لإنجاز هذا الهدف وقال إنه يدرك أن ما يقوله الرئيس جمال فى خطبه العامة ليس أكثر من كلام للاســتهلاك المحلى ولا يقصد به أبدا الإســاءة لأى حاكم أو شخصية عربية.

وطوال فترة الحوار ظل يذكر عبد الناصر بكل الخير. ويلتمس له الأعذار.

وعــن نتائج مؤتمر جدة قــال بوضوح إنه حريص مثله فى ذلك مثل الرئيس جمال على حل المشــكلة اليمنية التى وصفها بأنها تطورت وأصبحت أكثر تعقيدا. وطوال الحديث لم تتغير نبرة الملك وظل هادئا ووقورا ورائعا ونبيلا وصبورا.

وبعد أن طرحت أسئلتى الرئيسية تبينت أننى قد مكثت طويلا وأنه آن الأوان للتوقف حتى وإن كانت هناك أسئلة لم أطرحها بعد.

وشكرت الملك بحرارة وغادرت مجلسه وأنا أشعر بالامتنان فالحوار مع الملك فيصل والذى يعد أول حوار مع حاكم عربى بالنسبة لى يمثل خطوة رئيسية ومهمة على طريقى المهنى وكنت فى تلك اللحظة أراه إنجازا كبيرا.

ورأيت أن أعجل بالعودة إلى القاهرة ولكن بعد أن أزور قبر الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقد كنت قد اعتمرت أكثر من مرة ولكن لم أقم بمثل هذه الزيارة. ومن الرياض توجهت إلى المدينة المنورة ومن هناك عدت إلى جدة وعلى أول رحلة طيران، كانت العودة إلى القاهرة، كانت الطائرة تحلق فوق السحاب وكنت أحلق فى سماء الأحلام والأمانى.



الفصل الثانى

عبد الناصر وأنا.. وجها لوجه للمرة الأولى

بعـد أن تمكنت من إجراء حديث مع الملك فيصل قـررت التعجيل بالعودة إلى القاهرة سـعيا وراء نشره وقطف ثمار هذا النجاح فالحديث كان الأول للملك منذ اللقاء مع الرئيس جمال عبدالناصر بمدينة جدة فى أغسـطس عام ١٩٦٥م والذى تم تتويجه بتوقيع اتفاقية لإنهاء المشكلة اليمنية التى استنزفت موارد مصر الاقتصادية وتحولت إلى مستنقع كبير لمصر وقواتها المسـلحة وبالرغم من اللقاء مع مسئولين سـعوديين آخرين، إلا أن التعجيل بنشر حديث الملك هو الأكثر جدوى.

وبتعجيلى العودة كنت أعرف أننى سـأفتقد الصحبة الجميلة للفنان سـعد عبدالوهاب جـارى فـى الفندق، وكان قد قرر تجربة حظه فى السـعودية بعـد نجاحه فى مصر وكنا نجتمـع أحيانا فى المسـاء مع عدد مـن أصدقائه من البيت السـعودى وغيرهم من نجوم المجتمع فى جدة من المصريين والسـعوديين وبمثل هذه الصحبة تضاءلت مشـاعر الغربة طوال فترة الزيارة.

وخـلال هذه الفـترة كان من الصعوبة بمكان إجراء اتصـال تليفونى وإملاء الحديث أو أى تقاريـر صحفية كما أن إرسـال المادة الصحفيـة بالفاكس لم يكن متاحا لأنه لم يكن قد تم التوسـع فى استخدامه مثلما هو الحال الآن ومع أنه كان فى إمكانى اللجوء إلى السفارة المصرية لإرسـاله عبر شـبكتها اللاسـلكية إلى مقر الوزارة بالقاهرة ومنها يتم إرسـاله إلى الجريدة إلا إننى لم أكن أريد للسـفارة أن تعرف بما دار بينى وبين الملك السـعودى. لذا كانت العودة هى الاختيار الأنسب.

وكنت أحمد الله سـرا وعلنا على لقاء الملك السعودى والفوز بهذا الحديث ولأنه وفقنى إلى إنجاز يجعلنى أشـعر أننى لم أخذل هؤلاء الأسـاتذة والزملاء الذين رشحونى بالإجماع فى مجلس التحرير للسفر فى هذه المهمة. ووفقا لما أجريته من حسابات رأيت أن الحديث

صالح جدا للنشر. بل يعد خبطة صحفية كبيرة خاصة أن ما ورد على لسان الملك فيصل من مديح وتقدير للرئيس جمال عبدالناصر يعد قوة مساندة لفكرة النشر ومثل هذه الحسابات كانت تفتقد للخبرة الصحفية والفهم الجيد لمجريات الأمور والأهم فهم شخصية الرئيس عبدالناصر بكل عمقها وأبعادها وجوانبها الظاهرة والخفية.

كان العود مازال أخضر وقد تغلب الطموح والحماس على ما أجريته من حسابات، أما حسابات مصطفى أمين فكانت أكثر عمقا وأبعد أدراكا فقد توقع أن الرئيس سيكون له موقف آخر، والاحتمال الأرجح إن لم يكن المؤكد أنه سيرفض نشر مثل هذا الحديث.

وكان مصطفى «بك» على بينة من أن ما جاء على لسان الملك سيضىء للرئيس أبعادا كانت خافية عليه وسيكشف له جوانب جديدة فى شخصيته بالإضافة إلى إزاحة الستار عن صور من حنكة فيصل.

أما صورة الملك العف اللسان المتسامح الذى يتجاوز عن الإساءات التى نالت منه علنا والتى وردت فى خطب الرئيس عبدالناصر ومنها «ننتف ذقنه» ويزجى المديح فى الوقت نفسه لمن أساء إليه ويلتمس له الأعذار فقد رأى مصطفى أمين بخبرته وفطنته وحصافته وذكائه أنها تدعم صورة الملك فيصل لدى المصريين والعرب وتضيف إليها عددا من الصفات الايجابية وأن ذلك سيكون خصما من رصيد عبدالناصر ومن ثقة الجماهير فيه، كما أن النشر سيجعل من المقارنة، بين من يشتم ومن يمدح ومن تجرى على لسانه الألفاظ النابية والملك العف اللسان، ما لا يريده الرئيس المصرى حرصا منه على صورته الجماهيرية ومكانته، وأيضا على سياسته وتوجهاته التى تتصادم مع سياسة الملك والمملكة.

لذا قرر إرسال الحديث كما كتبته لكى يطلع عليه عبدالناصر ويقرر ما يراه.،كنت جالسا على مقعد أمام مكتب مصطفى أمين وأحاول أن أقرأ ملامح وجهه وهو يقرأ ما كتبت. فى أحيان كنت أراه مندهشا وأحيانا أخرى ينظر إلىّ نظرة سريعة مشفقا علىّ ومرة أخرى معجبا بتلميذه وفى النهاية قال بعد أن أبدى إعجابه بما كتبت. إنه يجب أن يرسل الحديث للرئيس عبدالناصر وطلب منى ألا أغادر المبنى دون أن أخبره، واستجبت لطلبه، وظللت أترقب نتائج إرسال الحديث للرئيس بقلق وتوتر وخوف وكنت أتساءل وأين الخطأ؟

تبخرت وبسرعة أحلام النشر، وتبعثرت ثمار الإنجاز، ولم يبق سوى الوساوس والمخاوف واستعدت ما كتبت مئات المرات ولم أجد سببا لما أعانيه من مخاوف، ولكن

القضية ليســت ما أراه بل ما يراه عبدالناصر وبعد فترة وجدت أصواتا كثيرة تنادى، عبده «مصطفى بيه عايزك» فصعدت إلى الدور التاســع حيث يوجد مكتبه وما أن فتحت الباب حتى طلب منى التوجه بسرعة إلى مكتب الرئيس بمنشية البكرى.

وطوال الطريق تناوشتنى المخاوف وتعددت سيناريوهات هذا الموقف الذى لم أتوقعه ولم أحســب له حســابا وكنت بين الحين والحين أطمئن على وجود شريط التسجيل الخاص بالحوار فى جيبى ووجود فواتير الإقامة فى كل الفنادق التى أقمت بها خلال هذه الزيارة ســواء فى جدة أو الرياض أو المدينة، وكنت أحمد الله على أنه ألهمنى أن اشــترى جهاز تسجيل قبل لقاء الملك واستئذان الملك فى تسجيل الحوار فعملية التسجيل والاعتماد عليها فى الكتابة وعدم الخروج عنها والاعتماد دائما على ما قاله الملك حرفيا ستؤكد أننى قابلت الملك وأن الحوار، كما كتبته موجود ومسجل كما أن الفواتير ستدحض أية ظنون أو شكوك حول الزيارة، وفى النهاية لم أجد أفضل من التسليم لله وقراءة القرآن.

وعندما وصلت منشــية الكبرى، مررت بأســوار الأمن الذى كان لديها نبأ عن وصولى. ومن صالة أو مكتب انتظار إلى مكتب آخر إلى أن وصلت إلى مكتب ســكرتير الرئيس الذى استقبلنى بجفوة واضحة وبعد قليل أى بعد أن فرغ من النظر فى أوراق أمامه والرد على عدة مكالمات تليفونية تحدث إلى مهاجما الحديث الذى أجريته مع الملك فيصل بقســوة ومتهما من يفعل ذلك بخدمة السياسة السعودية المعادية لمصر والرئيس جمال.

كان يتحدث وهو يضغط على الحروف والكلمات ثم تســاءل عن الأسباب التى دفعتنى إلى ذلــك؟ ولمــاذا ذهبت أصلا إلى هناك؟ ووصل الموقف إلى ذروته عندما قال إن الســعودية على اســتعداد لدفع الكثير من المال لكل من يقف موقف العداء من الرئيس جمال، وآثرت الصمت وإن تســاءلت بينى وبين نفســى أهذا هو أول القصيدة؟! وظللت أتقلب على جمر القلق والغضب مما قاله سكرتير الرئيس، وكثيرا ما فكرت فى الرد على هجومه إلا أن الأمر لم يتجاوز حدود التفكير، وبعد فترة لم تطل طلب منى هذا السكرتير أن أتوجه إلى مكتب «سيادة الرئيس».

وبعد أن دلفت من الباب وجدت نفسى أمام الرئيس مباشرة، صافحنى الرجل وهو ينظر بعينيه النافذتين فى عينى وكأنه يحاول قراءة ما أفكر فيه.

الرجــل قوى الشــخصية بلا جدال ويمتلك قوة حضور طاغية، ولكنه آســر وقادر على

السيطرة على أفكاره ومشاعره وبود شديد وضع يده اليمنى على كتفى اليسرى ومدها لتصل إلى الكتف اليمنى وتبينت أن طول قامته ساعده فى السيطرة على قدرتى على الحركة وبشكل يتيح له ضبط خطواتى وبدأ فى السير بخطى بطيئة داخل حجرة المكتب وطلب منى أن أحكى له قصة لقائى بالملك منذ البداية.

وبدأت أحكى منذ لحظة قرار مجلس التحرير، الذى لم أحضره، بسفرى إلى السعودية لمتابعة الموقف فى أعقاب اتفاقية جدة وقد حدث ذلك دون طلب منى بأى صورة من الصور بل ولم يكن الأمر مطروحا أمامى لكى أفكر فيه أو أطلبه وقلت له.. ربما شجعهم على ذلك ما حققته من نجاح فى عملى كمحرر عسكرى بالإضافة إلى نشاطى خارج هذا المجال ومثابرتى ووجودى بالجريدة طوال ساعات اليوم تقريبا، ومساعدتى أو تطوعى لمساعدة نائب رئيس التحرير المسئول عن الطبعة الأولى وتنفيذ أى عمل يكلفنى به إلى أن تدور آلات الطباعة.

ثم قصصت عليه قصة التأشيرة التى تأخرت من شهر أغسطس حتى شهر ديسمبر ١٩٦٥م إلى أن وصلت إلى اللحظة التى وجدت نفسى فيها واقفا وحدى أمام مدخل القصر الملكى بالرياض وسردت بالتفصيل كيف دخلت القصر وسرت فى ردهاته وممراته إلى أن وصلت إلى اللحظة التى دخلت فيها مكتب الملك وكيفية إجراء الحديث وظل الرئيس واضعا يده على كتفى بمودة شديدة ونحن نقطع حجرة المكتب سيرا على الأقدام فى خط دائرى وبعد أن وصلت إلى النهاية طلب منى أن أعيد عليه ما حدث مرة أخرى ثم طلب ذلك للمرة الثالثة.

كان الرجل يستمع بتركيز شديد ونادرا ما تدخل بسؤال استفسارى.

وكان كلما طلب أن أروى له القصة أرويها بحماس وإن خمنت أنه يبحث عن ثغرة أو تناقض أو تعارض فيما أرويه يمكنه منها أن يحطم روايتى ويكتشف كذبى لو كنت كاذبا، بعدها توجه للجلوس إلى مكتبه وأشار إلى أن أجلس ثم أمسك بالأوراق التى كتبت عليها حوارى مع الملك وسألنى عما قاله كل من الأمير عبدالله الفيصل والمستشار كمال أدهم فذكرت له ما قالاه بالتفصيل وردى عليهما ثم سألنى ولماذا رويت للملك ما قالاه، ولماذا سألته عن ذلك؟ فقلت للرئيس لقد أردت ببساطة أن يعرف الملك أننى التقيت بشخصيتين هامتين فى المملكة وأن لهما موقفا سلبيا وسيئا تجاه النظام والرئيس المصرى وأنهما لم

يتورعا عن إعلان ذلك أمامى كصحفى مصرى، كما أردت أن أسمع رده على ذلك فسألنى عما إذا كنت قد شعرت بالخوف فى أى لحظة خاصة وأننى وحدى هناك، فأجبت بأننى كنـت أؤدى عملى بكل ما يفرضه علىّ من مسـئوليات والتزامـات، ولم أفكر فى الخوف إطلاقا ولو كنت قد خفت لما رددت عليهما فورا ولما نقلت ما قالاه للملك.

ثـم سـألنى عما إذا كنت وصلت إلى مكتب الملـك دون أن يعترضنى أحد فعلا أو حتى يسألنى من أنا؟ أو إلى أين أنا ذاهب؟ فأكدت له أن أحدا لم يستوقفنى ولم يسألنى وتذكرت أنـه حتـى مدير مكتب الملك لم يطلب أن يرى أى وثيقة تثبت من أنا أو أين أعمل؟ وكان واضحا أن الرجل يحاول أن يكتم دهشته من مثل هذا الأمر.

بعدها سـألنى عما إذا كنت قد سـجلت الحديث فأجبته بالإيجاب بسرعة من يبحث عـن النجاة من الغـرق، وواصلت قائلا كما أن معى الفواتير التـى تثبت أننى أقمت على حسابى طوال فترة الزيارة وسلمته شريط التسجيل والفواتير وبسرعة ألقى نظرة على الفواتير ثم أعادها لى ثم قال سنسـمع معا الحوار ووضع الشـريط فى جهاز تسـجيل كان موجودا بجواره، وبدأ يسـتمع لنص الحوار بين الحين والحين كان يوقف الاسـتماع ويسألنى عن رد فعل الملك وملامح وجهه فأجيب بأمانة وبقدر ما تسعفنى الذاكرة. ومرات أخرى أوقف شـريط التسجيل ليستفسـر عن فقرة أو جملة ما، وكنت أسترسل فى الحديث حتى يدرك ويقتنع أننى لا أخفى شيئا، وبدا أن الرئيس قد عرف كل ما كان يريد أن يعرفه وأنه وجد إجابات لكل الشكوك التى دارت بخلده.

وخلال اسـتماعه للفقرة التى أخبرت فيها الملك فيصل بأن ابنه وصهره سـيعملان على أن يركع عبدالناصر وأننى قلت لهما إنه لن يركع. ابتسـم ابتسامة رضا، وكان واضحا أنه يقـدر جيدا الموقف الذى كنت فيه، ومع ذلك لم أتردد فى أن أعلن رأيى ولكنه لم يتوقف ليسـألنى. لقد سـألنى من قبل وسمع منى إجابة، وربما لو سأل مرة أخرى لقلت له إننى كنت أدافع عن رئيس مصر وعن رمزها فى تلك اللحظة ولم أكن أدافع عن شخص الرئيس بل عن مكانه ومكانته.

ووصل عبدالناصر إلى ما يريد فابتسم فى النهاية وهو يشكرنى على شجاعتى وأمانتى، ثم بدأ يسألنى عن عملى وعن دراستى فأدركت أنه طلب معلومات عنى قبل أن يستقبلنى، ثم قال إن الحديث عمل صحفى ممتاز وخاصة لصحفى فى سـنواته الأولى واستطرد قائلا،

أننى تحدثت وحاورت الملك فيصل كصحفى «فاهم شغله»، وبالرغم من كل ما فعله الرئيس لبث الاطمئنان فى قلبى منذ اللحظة التى دخلت فيها مكتبه للمرة الأولى فى حياتى فإننى لم أشعر بالاطمئنان حقيقة إلا وهو يوجه لى الشكر، ومع ذلك كان هذا الاطمئنان مشوبا بالحذر.

ثم سألنى عما إذا كنت سأحزن كثيرا إذا لم ينشر هذا الحديث، فأجبته قائلا إن مصالح مصر أهم من أى حديث صحفى فقال أنه يرى عدم نشره ثم أخبرنى إنه سيحتفظ بالشريط وعندما وقف إيذانا بانتهاء اللقاء ومد يده ليصافحنى مودعا سألته وإلى أين سأذهب؟ فابتسم وعلى وجهه ملامح حيرة وسألنى ماذا أقصد؟ فقلت له إن بعض الزملاء فى الجريدة قد قالوا لى وأنا فى الطريق إلى سيادتك إنهم سيشترون لى خبزا وحلاوة، فضحك الرجل وقال هذه المرة ستعود إلى عملك ومنزلك وضحك من جديد.

ووجدت الفرصة سانحة لأخبره أن سكرتيره قد أوقع الرعب فى قلبى ربما بصورة أكثر من زملائى بالعمل قبل أن أنال شرف اللقاء فاستوضح الأمر فرويت له ما قاله سكرتيره فاتصل به طالبا حضوره وسأله بغضب واضح عما إذا كان قد قال ذلك؟ فصمت الرجل فوبخه توبيخا شديدا ووجه له اللوم وقال له أن الأستاذ عبده أدى عمله بوطنية وبكفاءة وشجاعة ولو أن الكل فعلوا مثله لتغيرت الصورة كثيرا، ثم أمر بأن أعود إلى جريدة الأخبار فى سيارة من سيارات الرئاسة، وأدركت فى هذه اللحظة أننى كسبت عدوا قويا بمكتب الرئيس وأن الرجل لن ينسى ولن يغفر ذلك أبدا.

وبعد أن خرجت إلى شارع الخليفة المأمون، سألنى السائق إلى أين؟ وبسرعة طلبت منه التوجه إلى فندق شبرد فلم أكن أريد العودة إلى الجريدة قبل أن أرتب أفكارى. ولقد كنت أتردد على صالة فندق شبرد القديمة لاحتساء الشاى وسماع عزف البيانو والكتابة أو القراءة ولم يكن الأمر يكلف سوى أقل من ٢٥ قرشا وقتذاك وبهذا القرار تجنبت أسئلة السائلين واستفساراتهم.

ورأيت بعد إعادة النظر فى الأمر أنه ليس من حقى أن أبوح لأحد بما قاله الرئيس لى لأنه أمر يخصه وليس من حقى إفشاؤه، ولكن كان من الضرورى الاتصال بمصطفى أمين لإبلاغه بأن الرئيس قرر عدم نشر الحديث وأننى سلمته شريط التسجيل، وطوال الأيام التالية تعمدت البقاء بعيدا عن دار أخبار اليوم وعن منزلى تجنبا لأى أسئلة من أى كان. واغتنمت الفرصة

لتكثيف نشاطى بالقوات المسلحة وزيارة أكبر عدد ممكن من القادة خاصة خارج القاهرة.

وخلال الأيام التالية للقاء الرئيس عبدالناصر تذكرت علاقتى التى توثقت خلال النصف الأول من الستينيات بالمشير عبدالحكيم عامر وإن مثل هذه العلاقة لا يمكن أن تغيب عن عبدالناصر وستثير أمامه الكثير من علامات الاستفهام وقلت ربما أسهمت هذه العلاقة فى مضاعفة شكوك عبدالناصر فى الحديث الذى أجريته مع الملك فيصل خاصة إذا اقتنع أننى من معسكر المشير عامر، وكان الرجلان قد اختلفا بعد الانفصال السورى عام ١٩٦١م وتحول الاختلاف إلى صدام عندما قرر الرئيس عبدالناصر تشكيل مجلس للرئاسة عام ١٩٦٢م يضم بجانب المشير عددا من أعضاء المجموعة اليوليوية والسياسيين المدنيين وبما كان يعنى أن المشير لم يعد نائبا أول لرئيس الجمهورية ولجأ المشير إلى الاختفاء فى مرسى مطروح وقرر قادة الأفرع الرئيسية من كبار القادة التوجه إلى مرسى مطروح والبقاء بجوار المشير.

وكان يسيرا أن يفهم عبدالناصر أن ما جرى هو انقلاب عسكرى سلمى عليه وأن القوات المسلحة قد انحازت إلى المشير فى الصراع الدائر بينهما، فقرر التراجع عن موقفه وألغى مجلس الرئاسة وعمل على استرضاء المشير وتقاسم معه النفوذ والسلطة وتساوى كلاهما فى المخصصات المالية التى يحصلان عليها وبما يؤكد للجميع أنهما فى مستوى قيادى واحد.

وبما أن الرئيس كان يحاط علما بعلاقات المشير عامر ويعرف كل من يتردد عليه وبما أنه طلب معلومات عنى قبل أن يستقبلنى فقد رأيت أن ذلك ربما ضاعف من شكوكه قبل أن يرانى ويسمع منى وربما كانت محاولته للعثور على ثغرة فى روايتى انعكاسا لهذه الشكوك وربما لم يكن الأمر كذلك ولكننى فكرت فيها كمجرد احتمال.

المهم أن المحصلة النهائية أن الرئيس تأكد من حسن نيتى وإلا ما شكرنى بهذه الحرارة وكان الأمر فرصة سنحت لكى يعرفنى الرئيس شخصيا، هذه المعرفة وبالصورة التى تمت بها تركت بصماتها على كل ما جرى بعد ذلك من احتكاك مباشر أو غير مباشر بيننا.



الفصل الثالث

مدنى فى وحدات الكوماندوز.. خلف خطوط العدو

بعد تجربة اللقاء الأول بالرئيس جمال عبدالناصر. قضيت وقتا طويلا أراجع وأتأمل ما جـرى، وكثيرا ما عدت للمثل المصرى الجميـل الذى سمعته من والدى ومن أمى رحمهما الله عشـرات بل مئات المرات ألا وهو.. «امشـى عدل يحتار عدوك فيك» ولا أقصد هنا أن عبدالناصر هو العدو أبدا، بل كان الرئيس الذى يبحث عن خطأ ما فى الحوار الذى أجريته مع الملك فيصل، وما سبق وواكب وأعقب هذا الحوار من أحداث وملابسات.

انتهى اللقاء بصورة إيجابية للغاية بالنسبة لى حتى ولو كنت قد حزنت على عدم نشر الحوار، وما كان يمكن أن يضيفه لى فى مشـوارى المهنى، ولكن الخروج بسلام كان أفضل آلاف المرات من نشره.

وكانـت هنـاك ضغـوط ومحاولات كثـيرة من رؤسـائى وزملائى لمعرفة مـا جرى مع عبدالناصر، وكنت أردد على مسامع الجميع مدى حزنى لأنه رفض النشر، وكفى. وكنت أعلن فى بعض الأحيان، قائلا، لابد أن لديه أسبابا قوية لعدم نشر هذا الحديث. ولم يكن وهو الرئيس ليبوح بهذه الأسباب لصحفى فى بداية الطريق.

أما مصطفى أمين فلم يسألنى قط، ولابد أنه لاحظ أننى تغيبت عن الجريدة لعدة أيام. وأن التليفون كان وسيلتى لإملاء ما لدى من أخبار أو موضوعات.

مـرت التجربة. وكنت علـى اقتناع أنها غير قابلة للتكرار. وأننى لن ألتقى بعبدالناصر مرة أخرى.

ودارت الأيام. وانشغلت بعملى ودراستى وقراءاتى وبالسفر إلى اليمن بين الحين والحين. ولم أكن أتوقع أن مشـروع السفر للدراسة سـيطرق بابى فى العام نفسه عام ١٩٦٦م، وأنه سيفتح الباب لتجربتين متتاليتين للاقتراب من عالم رئيس الجمهورية.

وكنت قد طرحت فكرة السفر للدراسة على الأستاذ جلال الحمامصى، وخلال مناقشتها، أوضحت له أننى درست القانون الذى أحببته، واخترت الصحافة المهنة التى لم أرض بها بديلا، ولهذا فإننى أتطلع للسفر لدراسة الصحافة دراسة أكاديمية ومتعمقة.

وقبل أن ينتصف العام أبلغنى أنه رشحنى للسفر للدراسة ببرلين عاصمة ألمانيا الشرقية، وعلـق قائـلا، إنها دولة شـيوعية، فأجبته قائلا إن العلم هو العلم أيـا كانت القبعة التى يضعها الأستاذ على رأسه.

وخطوة إثر خطوة. انتهت الإجراءات. وسـافرت إلى برلين. وانتظمت فى الدراسـة مع مجموعة من الدارسين تضم أعدادا من الصحفيين العرب.

وننغمس فى الدراسـة وفى تجربة الحياة بأوربا بكل أبعادها، ونشـط داخل اتحادات الطلبة، ويقع علينا الاختيار لنتحمل المسئولية.

ولأن هناك نقصا فى عدد كبير من السلع فى ألمانيا الشرقية، كنا نرسل واحدا منا كل أسبوع إلى برلين الغربية ليعود ومعه احتياجاتنا من هذه السلع.

وصباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧م، توجهت إلى برلين الغربية لشراء احتياجات المجموعة، وكنت أفضل دائما التسـوق من أكبر مركز تجارى فى برلين الغربية، وربما هو الأكبر فى القـارة. حيث يمكننى العثور على كل ما أريـد خلال فترة زمنية قصيرة، بعدها أصعد إلى الكافتيريـا والمطعم. وأتناول إفطارى وأنا أقرأ الصحف، وأشـاهد معالم برلين الجميلة من هذه النقطة المرتفعة.

وعندمـا وصلت إلى باب هذا المركز التجارى، وجدت لافتة موضوعة على المدخل تقول «ادفع ماركا تقتل عربيا» وأفقت من الصدمة التى لم أتوقعها ومن مشاعر الغضب. وبدأت أبحث عن السبب فى مثل هذه الحملة، فقد استنتجت أن الإعلان أو اللافتة جزء من حملة تبرعات عامة وراءها ما وراءها، ولابد أن قوى يهودية هى التى أطلقتها.

وأدركـت أننـى بملامح وجهى العربيـة يمكن أن ألفت الأنظار لو خاطرت وسـألت، وكان على أن أبحث عن موظفة صغيرة السن بلا خبرة كبيرة بالسياسة. وفعلا عثرت على ضالتى، وأخبرتنى عندما سألتها عن اللافتة. إن العرب بدأوا الحرب ضد إسرائيل، وأنهم يستهدفون إبادة الإسرائيليين وتدمير الدولة.

إذن لقـد بدأت المعركـة، ووفقا لتصريحات كبار القـادة ورأس الدولة، فإن النصر فى متنـاول اليـد.. هكذا تصورت ثقة منى فى كل ما قاله المسـئولون أصحاب القرار وقتذاك. وعدت بسرعة. وأبلغت الجميع باندلاع الحرب.

ومنذ رأيت هذه اللافتة وأنا أتساءل، ولماذا لا أنظم حملة مماثلة؟ ولماذا لا يكون الشعار «ادفع ماركا تنقذ عربيا»؟.

واتصلت بالمسئولين الألمان فى برلين الشرقية، ولم أحصل على إجابة واضحة. فأخبرت مـن التقيت بهم بالحملة التى انطلقت فى برلين الغربية وبالقطع فى مدن أخرى. وبما أن الدولة تناصر العرب والقضية الفلسطينية وعلى علاقة طيبة بالنظام المصرى وبالرئيس جمال عبدالناصر. فإننى أتوقع الموافقة على انطلاق حملتنا فى ألمانيا الشـرقية. وأرجو أن يتحقق ذلك قبل أن يتوقف إطلاق النيران. وقالوا سـنعقد اجتماعا. وسـنتصل بك ووافقوا. وقدموا المسـاعدة المطلوبة. ونظمـوا برنامجا لزيارة المصانع والشـركات واجتماعات بمقار الحزب الشيوعى.

وتم تقسـيم العمل فيما بين المسئولين باتحاد الطلبة. وبمباركة السلطة بدأت التبرعات تتدفق. وكان السـفر والمؤتمـرات والحوارات واللقاءات اليومية تسـتمر طويلا. ولم نتوقف ولم يمنعنـا الإجهـاد من الاسـتمرار وبعد أيـام. طلبت منهم أى من الجانـب الألمانى مد نطاق الحملة ليشـمل برلين الغربية. فاستغربوا الطلب. وأنكروا وجود أى علاقة مع برلين الغربية. وتركتهم يترافعون فى هذه القضية. وبعد أن انتهوا أوضحت لهم أن كل ما أريده هـو موعدا للقاء الطالب الألمانى «رودى دوتشـكه» الذى يلعب دورا نشـيطا فى الأوسـاط السياسية والطلابية فى برلين الغربية. وأكدت لهم إننى أعلم أن هناك اتصالات بينهم تتم بشكل دورى.

ومرة أخرى قالوا. إنهم سيعقدون اجتماعا وسأسمع منهم فور انتهاء الاجتماع والتوصل لقرار.

وتحدد الموعد المطلوب، وقدم «رودى دوتشـكه» لى يد المسـاعدة لجمع تبرعات لمصلحة مصر فى برلين الغربية. ولم يكتف الرجل بإجراء الاتصالات بالشـركات والمؤسسـات، بل رافقنى خلال الكثير منها. وكان لدوره وحضوره تأثير كبير على حصيلة حملة التبرعات.

وخـلال هـذه الفترة. كنت أتابـع العمل من أجل العودة إلى مصـر، بعد أن تبينت أن الهزيمـة قد حاقت بالجيش المصرى. بالإضافة إلى الجيشـين الأردنى والسـورى، كانت الصورة مفجعة ببشاعتها ومريرة.

واقترح المسـئولون الألمـان، بعد أن وصلت حصيلة التبرعات شـرقا وغربا إلى أكثر من

مليونى مارك غربى، أن يستبدلوا المبلغ النقدى بحمولة من الأدوات والمعدات والأجهزة والمستلزمات الطبية والأدوية. وقالوا إنهم سيوفرون لنا طائرة تنقلنا إلى العاصمة السودانية الخرطوم. ومنها ربما إلى أسوان لو كانت الظروف تسمح بذلك. والباقى تتولاه السلطات المصرية.

وفوجئت خلال كل ذلك بالسفير المصرى الذى يتحمل مسئولية القنصل العام فى ألمانيا الشرقية لأن مصر لم تكن قد اعترفت بعد بهذه الدولة وبالتالى لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بينهما، يطلب منى تسليمه كل التبرعات التى تم جمعها. فسألته: وهل شاركت بأى جهد فى حملة جمع التبرعات؟ لقد تقاعست، ولم تحرك ساكنا. والآن وبعد أن نجحنا، تريد أن تسرق نجاحنا، وتسجل نقطة ثمينة لحسابك فى القاهرة. فرد قائلا: إنك مجرد طالب بعثة. ولذا فإنه مسئول عنى. وهو الطرف الذى يحق له تسليم هذا المبلغ للمسئولين بالقاهرة، فأجبته بأنه غلطان جدا، فأنا صحفى ولست طالبا، ثم إننى سأقطع الدراسة وأعود إلى القاهرة. فقال إن التعليمات التى لديه تقضى باستمرار الجميع فى الدراسة. فأكدت له إننى سأعود إلى القاهرة. وسأحمل معى كل ما جمعناه. فاتهمنى بأننى أريد أن أحتفظ بالمبلغ لنفسى. فقلت له: إنك تجاوزت، وستدفع ثمن هذا التجاوز وستعتذر لى علنا وأمام كل من يعملون تحت رئاستك، والذين شهدوا هذا الحديث. وتركته لأتوجه إلى برلين الغربية لأتحدث مع سكرتير الرئيس عبدالناصر تليفونيا، وبعد محاولات تمكنت من الاتصال به. وأبلغته بالاقتراح الألمانى وبالحمولة الطبية وبالحصيلة التى تم جمعها خلال حملة التبرعات التى نظمناها. وأبدى دهشته من هذا النجاح. وسأل. ولماذا لم يفعل آخرون مثلما فعلت؟

وسمع منى تفاصيل رحلة العودة عبر الخرطوم. ثم نقلت إليه ما جرى مع السفير القنصل العام. فأبدى استياءه. وقال إنه سيتصل بى عن طريق القنصلية لإبلاغى بالقرار فيما يتعلق برحلة العودة. وأن ذلك ربما يكون اليوم أو غدا وعلى أن أتابع ذلك. وأن أنسق مع المسئولين الألمان ثم قال، أما السفير فاترك أمره لى وسأتولاه بعد إبلاغ سيادة الرئيس.

وعندما عدت وجدت السفير يبحث عنى، وتوجهت إلى مبنى القنصلية، وهناك سمعت اعتذارا منه أمام الجميع وأبلغنى أن مكتب سيادة الرئيس قد اتصل، وأن العودة ستكون بالطائرة الألمانية إلى قبرص ومنها ستعود بطائرة مصر للطيران التى ستطير من الإسكندرية

إلى العاصمة القبرصية فى رحلة خاصة لنقل الحمولة الطبية. ثم تحلق للهبوط بمطار النزهة بالإسكندرية.

وتمت الترتيبات مع الألمان. وعدنا إلى الإسكندرية وفقا للخطة الموضوعة. وتسلم المسئولون الشحنة. وكان فى انتظارى سيارة عادت بى إلى منزلى مساء يوم ١٥ يونيو ١٩٦٧م، وقبل منتصف الليل تلقيت مكالمة تليفونية من مكتب رئيس الجمهورية يبلغنى شكره على كل مافعلته.

وكان الاحتكاك الثانى بالرئيس. أو التجربة الثانية للاقتراب من عالمه بشكل غير مباشر.

وبالنسبة لى لم يكن الأمر مخططا على الإطلاق. ولكنها مجرد حلقات. كل منها تقود إلى الأخرى دون أن تبوح بشىء. إلى أن تصل إلى النتيجة. والتى تعد بصورة أو بأخرى حلقة من حلقات حياتنا. ستفضى إلى أخرى. وهكذا.

وفى تلك اللحظات لم أكن أعرف أو حتى أخمن أن هناك اقترابا آخر من عالم الرئيس عبدالناصر.

لقد عدت إلى مصر. وأصبح اهتمامى الرئيسى أن أعرف ماذا حدث؟ وكيف؟

والمعلومات إما عند البشر أو فى وثائق. وكنت مهتما بالاثنين.

ولم يكن هناك وقت للراحة، وكان من الضرورى أن أزور الجبهة ابتداء من الإسماعيلية وصولا إلى بورسعيد، وأن ألتقى بالقادة الموجودين وأسمع منهم مباشرة. وذلك قبل أن ألتقى بالقادة الكبار أينما كانوا. سواء فى الخدمة أو فى التقاعد بمنازلهم.

والتقيت بالعشرات طوال فترة زيارتى للجبهة، وانطلقت الألسنة تتحدث بصراحة. كان الغضب والسخط والألم والإحساس بالمرارة يسيطر على الجميع. وطالت الاتهامات معظم أهل الحكم والقيادة.

وجاء الدور على القادة، ولم يختلف الأمر كثيرا. وكان المحالون إلى التقاعد الأكثر مرارة خاصة بعد أن تبينوا أن الفريق أول محمد فوزى قد غدر بهم وأن كثيرين يمكن أن يتحولوا إلى كبش فداء.

ومن بين كل هؤلاء سأتوقف أمام المقدم إبراهيم الرفاعى. لأن الاتصال به هو الذى فتح الباب للاقتراب من عالم عبدالناصر مرة أخرى.

هــذا المقاتــل العبقرى. التقيت به عقب نجاحه المبهر فى عملية الهجوم على معســكر الدبابــات لقــوات الاحتلال الإنجليزى فى مدينة بورســعيد أثناء عــدوان ١٩٥٦م، حكى الرجل ببســاطة وتواضع تفاصيل هذه العملية الفدائية. وبعد أن انتهى فوجئ وأنا أقول له «ضع فى اعتبارك منذ الآن أننى أقدم منك فى العمل الفدائى، وعليك احترام هذه الأقدمية» وســألنى باستغراب ودهشــة كيف؟ فحكيت له تجربتى كفدائى قاتل ضد قوات الاحتلال الإنجليــزى عام ١٩٥١م. ومنذ تلك اللحظة لم تعد العلاقة بيننا علاقة بين ضابط وصحفى بل صداقة متينة. والتقيت به فى اليمن مع قادة قوات الصاعقة هناك والصاعقة البحرية.. وعندما نظمت قيادة قوات الصاعقة طابور سير من مدينة إنشاص إلى بورسعيد فى ديسمبر عــام ١٩٦٤م، كان قــرارى الســير معهم خطوة بخطــوة، فالزملاء ســيعتمدون على اللقاء بالقادة، وأعنى قادة الصاعقة وقادة الكتائب المشاركة فى نهاية كل مرحلة. وبالتالى فليس هنــاك فرصــة للتميز. لذا قررت أن أكون مع الصاعقة طوال المشــوار، أقترب من الجميع، وأسمــع. منهم ولم يصدق الكثيرون أننى ســأصمد، إلا أن إبراهيــم الرفاعى قال لهم إننى سأتمكن من قطع المسافة سيرا على الأقدام.

وبدأ الرهان فيما بينهم حول الأمر.

واكتشــف قادة الكتائب المشــاركة، أن وجودى مع أى كتيبة يجعل نتائجها أفضل، فالضباط والصف والجنود يتابعون مدنيا يسير معهم، وكلهم يحاول أن يكون الأفضل، لذا بدأ قادة الكتائب المشاركة فى مطالبتى بالسير معهم. وقررت أن أقضى يوما مع كل كتيبة. ودخلت بورسعيد مع الكتيبة رقم ١٣ التى يقودها الرفاعى.

وتكرر الأمر فى طابور السير من القاهرة إلى الإسكندرية فى فبراير عام ١٩٦٦م. وكسبت صداقــة الآلاف من الرجال. ومن خلال الثقة التــى أولاها لى بعض القادة والضباط، بدأت أسمع تفاصيل المحاولات الانقلابية التى شارك فيها بعض منهم.

وتعددت اللقاءات والحوارات والحكايات إلى أن ســافرت للدراســة فى ألمانيا الشرقية. وكان منطقيا أن أتصل بالرفاعى بعد العودة، ويسألنى عما إذا كنت قد علمت أنه فى طريقه لتشكيل مجموعة فدائية للعمل خلف خطوط العدو!

ونلتقى ويشرح لى العقبات التى يضعها سعد الدين الشاذلى قائد القوات الخاصة أمامه. ويطلب منه مدير المخابرات تنفيذ عمليتين داخل سيناء. الأولى تفجير تشوينات الذخيرة

التى تركتها القوات المصرية أثناء انسحابها. والثانية نسف قطار كان من المقرر أن ينقل الصواريخ المصرية أرض ـ أرض من طراز القاهر والظافر لاستعراضها فى شوارع العاصمة الإسرائيلية فى يوم الاحتفال باستقلال إسرائيل.

كانت العملية الأولى تستهدف حرمان إسرائيل من استخدام كل هذه الذخيرة لتشغيل كل الأسلحة المصرية من دبابات ومدفعية وغيرها والتى تركتها القوات المنسحبة دون تخريبها، وبما يضاعف من حجم السلاح فى يد القوات الإسرائيلية. أما العملية الثانية، فكانت حفاظا على الكبرياء والكرامة المصرية التى ستتعرض للأذى من جراء استعراض هذه الصواريخ.

وينفذ الرجل ما طلبه منه مدير المخابرات الحربية. ولا يتوقف الرفاعى عن العمل من أجل إنشاء هذه المجموعة الفدائية.

وأستعيد تلك الفترة الذهبية التى امتدت من أكتوبر ١٩٥١م حتى يناير ١٩٥٢م التى شهدت ميلادى كفدائى يشارك فى العمليات ضد قوات الاحتلال الإنجليزى بمنطقة القناة، ولا شك أن هذه الفترة قد أضافت لى الكثير من الخبرات والمعلومات. وباختصار كانت تجربة فى غاية السخاء والصعوبة. وربما بسبب صغر السن وقلة التجارب، لم أتمكن من تقدير حجم الأخطار التى تحيط بمثل هذا العمل، ولكن كانت القضية الوطنية هى الدافع القوى وراء هذه المشاركة.

هذا الفتى الوطنى الذى حاول بذل الجهد لإنهاء الاحتلال الإنجليزى، استيقظ قويا وعفيا وهو يتابع ما يقوله إبراهيم الرفاعى حول العمل الفدائى ضد قوات الاحتلال الإسرائيلى. وعرضت عليه الانضمام لهذه المجموعة، فيقبل بل ويرحب.

وأناقش الأمر مع مدير المخابرات. وبعد أن يسأل ويدقق ويستفسر، يطلب مهلة للتفكير فى الأمر.. وفى النهاية أتقدم بطلب التطوع فى صفوف مجموعة الكوماندوز التى يقودها الرفاعى بالصفة المدنية. ويوافق الرفاعى على طلبى، ويكتب تزكية يؤكد فيها أننى سبق أن حصلت على دورة تدريبية بوحدات الصاعقة وبمدرسة القفز بالمظلات. وأن لياقتى البدنية عالية، وروحى المعنوية قوية. كما أننى شاركت فى طابور السير الأول بالصاعقة من إنشاص إلى بورسعيد والثانى من القاهرة إلى الإسكندرية.

وأحمل أوراقى إلى اللواء صادق. وقبل أن يوافق، يقترح عليه نائبه اللواء محرز

عبدالرحمن أن أوقع إقرارا بأن القوات المسلحة غير مسئولة عنى فى حالات الأسر أو الفقد أو الإصابة أو الاستشهاد، ولأقطع الطريق أمام مناورة اللواء محرز، أكتب الإقرار وأوقعه. ويقرر مدير المخابرات الاحتفاظ به فى مكتبه. ويوافق على طلب التطوع. ومن بعده يوافق الفريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة. وأصعد إلى الدور الثانى بمبنى وزارة الحربية للحصول على موافقة الوزير الفريق أول محمد فوزى، والتى تصورت أنها مضمونة، إلا أنه يرفض الطلب. ويسألنى: هل تريد أن تعرف المزيد من أسرار القوات المسلحة؟ ويواصل قائلا. إننى أرفض مثل هذا الطلب؛ حتى لا أفتح أمامك مزيدا من الأبواب للاطلاع على أسرار عسكرية. فأوضح له أن مدير المخابرات الحربية، الرجل المسئول عن أمن وأسرار القوات المسلحة، قد وافق وأن رئيس الأركان فعل الشىء نفسه. وأعتقد أن قضية الأمن والأسرار لم تغب عنهما. فيقول بحسم: إننى القائد العام، وأرفض طلب تطوعك. فاستأذنه فى عرض الأمر على الرئيس عبدالناصر باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة وأوضح له، أننى بعد أن قطعت هذا المشوار لن أستسلم أمام رفضه، وفى البداية والنهاية فأنا لا أطلب ميزة ولا أسعى وراء مطمع، بل أسعى للمشاركة فى العمليات خلف خطوط العدو من أجل بلدى، لا من أجل شىء آخر. ويسألنى، وهل تتوقع أن الرئيس سيأخذ بوجهة نظرك ويتجاهل موقف وزير الحربية؟ وأجيبه قائلا، إننى أسعى، إنه مجرد سعى لا أكثر ولا أقل.

وأخرج من مكتبه. وأتوجه إلى مكتب مدير المخابرات الحربية، وأنا فى حالة من الغم والحزن العميق لموقف الوزير. فيخبرنى بعد أن قصصت عليه ما جرى، إنه هو الذى سيعرض الأمر على الرئيس عبدالناصر.

ويستغرب الرئيس موقف الفريق أول فوزى. ويوضح للواء صادق: إن اشتراك مدنى فى عمليات خلف خطوط العدو، سيكون أحد العوامل المؤثرة فى شحذ همة الرجال بالجبهة ورفع معنوياتهم. وسيسأل كل رجل نفسه: إذا كان هناك مدنى يفعل ذلك، فإنه يمكنهم أيضا تنفيذ عمليات خلف خطوط العدو. ثم قال بوضوح: إن دور عبده مباشر كمتطوع مدنى بالكوماندوز لن يختلف عن دور الشئون المعنوية.

ويحسم عبدالناصر الأمر. ويقرر قبول تطوعى بالصفة المدنية بوحدة الكوماندوز التى حملت فيما بعد اسم المجموعة ٣٩ قتال.. وبعد عودته من لقاء رئيس الجمهورية، يقول لى: إن مثل

هذا الاســتثناء ليس له ســابقة فى التاريخ المعاصر للقوات المسلحة. فلأول مرة يوافق رئيس الجمهورية على اشــتراك مدنى فى العمل الفدائى العســكرى. وأكــد أن الرئيس بالضرورة سيتابع، وسيحرص على أن يعرف، هل كان على صواب فى تقديره للموقف أم لا؟

ويطلب منى ومن أجهزة أخرى معرفة رد فعل اشــتراكك فى عمليات داخل سيناء بين القوات الموجودة بالجبهة.

ونصحنى بأن أضع فى اعتبارى دائما أن كل ما سأقوم به داخل هذه المجموعة مرصود. فليس من المألوف وجود مدنى وصحفى بين المقاتلين وما يتداولونه من معلومات وأســرار، وباستثناء غير مسبوق من رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة.

وأمــر الرفاعــى بإعــادة تأهيلى لما أنا مقبــل عليه. وعندما حان الوقت للاشــتراك فى العمليات، طلب منى الرفاعى خلال العملية الأولى أن أبقى بجواره طول الوقت. وقد نفذت الأمر حرفيا.



الفصل الرابع

محاولة انقلابية من داخل المجموعة ٣٩ قتال

بدأت أشارك فى العمليات خلف خطوط العدو فى سيناء. وبدأت أعلم أن الرئيس عبدالناصر بعد أن يعلم بعودة الدورية من سيناء، وإنجاز مهمتها القتالية، يتصل تليفونيا بالأستاذ هيكل ليخبره أن «عبده وصل بسلامة الله» وإذا كان رئيس تحرير الأهرام قد ذهب إلى منزله واستغرق فى النوم يترك الرسالة مع سكرتيرته أو مديرة مكتبه القديرة نوال المحلاوى.. وعندما غابت نوال عن العمل فترة بسبب وجودها فى المعتقل على ذمة التحقيق فى قضية أمن قومى. كان يترك الرسالة مع الأستاذ محمود عطاالله الذى حل محلها فى العمل بمكتب الأستاذ هيكل وعندما التقينا فى العاصمة البريطانية أنا والصديق حسنى إمام مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فى لندن ومدير مكتب وكالة الأنباء الكويتية فيما بعد مع الصديق محمود عطاالله الذى اختار الانضمام لأسرة تحرير جريدة الشرق الأوسط فى لندن، روى لنا محمود تفاصيل هذه الوقائع. وكان مازال فى حالة دهشة من مثل هذا الاتصال التليفونى الذى تحول إلى تقليد فى أعقاب كل عملية فدائية، وقال معقبا، إن عبدالناصر كان يتصل للإبلاغ عن عودة «عبده» بالسلامة، ولم يقل أبدا إن المجموعة الفدائية قد عادت بالسلامة، ولم يحاول أن يحكى لهيكل شيئا عن العملية التى تم تنفيذها.

وإذا ما اتصل عبدالناصر ورد على المكالمة محمود عطاالله وعرف منه عبدالناصر أن هيكل نائم، كان يصر على عدم إيقاظه. ويرجو إبلاغه بالمكالمة وموضوعها.

وفى كثير من الأحيان كنا نعود من سيناء فجرا أو بعد الفجر أو قبله بقليل. وكان الرفاعى عندما يجرى اتصاله التليفونى بمدير المخابرات يجده مستيقظا وكان اللواء محمد صادق يعرف أن الرئيس لن ينام قبل أن يطمئن على عودة الدورية، ويسمع ملخصا لما قامت به، وما تحقق من نجاح.

وطوال هذه المرحلة، كان الرفاعى يتوجه من رحلة العودة أيا كانت منطقة تنفيذ المهمة

إلى مكتب مدير المخابرات ويقدم له تقريرا شفهيا. وفى معظم الأحوال كان يطلب من الرائد طبيب عالى نصر وهو التالى له فى القيادة ومنى الذهاب معه وفى بعض العمليات الخاصة تلك التى لها طابع خاص كان يتلقى أمرا من اللواء صادق بالتوجه إلى مكتب وزير الحربية ليسمع منه، وفى أحيان أخرى كان يقول، إن الرئيس عبدالناصر فى انتظاركم.

وخلال اللقاء مع وزير الحربية، كنت اعتذر عن حضور اللقاء، أما بالنسبة للرئيس عبدالناصر، فقد كنت أحرص دائما على الحضور. وفى المرة الأولى، سألت اللواء صادق ومن بعده إبراهيم الرفاعى عما إذا كان من اللائق أن أشهد مثل هذه المقابلة وكان رد مدير المخابرات ملفتا وجديدا ومرشدا. حيث قال، إن القيادات العسكرية لها أسلوب فى العرض لا تخرج عنه، أما أنت ولأنك لست عسكريا محترفا، فلك أسلوب فى الرؤية والتقييم مختلف. وأتوقع أن يطلب الرئيس سماع وجهة نظرك، وعليك ترتيب أفكارك. ثم عقب قائلا. إننى سأخبر الرئيس عبدالناصر أنك بصحبة الرفاعى أولا لأعرف هل يريدك مع قائد المجموعة أم لا وثانيا حتى لايفاجأ بوجودك.

وعندما خرجنا سألت إبراهيم، عما إذا كان يريدنى معه، فقال إنه يصر على ذلك، ولفت نظرى ترحيب عبد الناصر بإبراهيم الرفاعى ترحيبا يقترب من التدليل.. وبعد أن أنصت. سأل.. وانتهى اللقاء فأدينا التحية واتجهنا إلى باب الخروج إلا أنه طلب منى البقاء.

وبعد أن أصبحنا وحدنا سألنى عن تجربة القتال بالنسبة لى فأكدت له أنها أفضل ماقمت وأقوم به فى حياتى، وأن لهفتى على الاشتراك فى العمليات لا تعادلها لهفة بعدها استوضح بعض النقاط.

وفى المرة التالية طلب أن أحكى له حكاية المهمة بالكامل. فرويت له كل المعلومات والتفاصيل التى أعرفها. وفى النهاية تحفظت بقولى. ربما كانت هناك تفاصيل أو معلومات أخرى ولكن هذا هو كل مالدى.

ولم يختلف الموقف فيما تلا ذلك من لقاءات. كان يريد أن يسمع منى. وكنت أخبره بكل ما أعرفه، وبكل ماجرى خلال العملية. وفى إحدى العمليات كانت الأمواج فى خليج السويس ترتفع إلى ماهو أكثر من مترين وكانت الرياح عاتية خاصة خلال رحلة العودة بعد تنفيذ مهمة ناجحة بمنطقة الطور بسيناء الجنوبية. وأدت هذه الظروف المناخية إلى انقلاب

قارب من قوارب المجموعة. وأمر القائد بألا نترك فردا أو قطعة سـلاح فى الماء وبدأنا فى عملية إنقاذ للقارب والأفراد والمعدات والأسلحة فى ظل هذه الظروف المناخية الصعبة. وكنا جميعا فى سـباق مع الزمن. أى نريد أن تتم عمليات الإنقاذ وأن نتمكن من العودة قبل أن تبدأ رحلات الاستطلاع الجوى المعادية والتى تبدأ عادة بعد أول ضوء.

ونجحنا جميعا. وتمكنا من العودة مع ساعات الصباح الأولى.

واسـتمع عبدالناصر بإعجاب بقرار القائد، وبقدرة المجموعة على إنجاز عملية الإنقاذ بنجاح رغم كل الصعوبات.

ومنـذ البدايـة تحدثت مع إبراهيم الرفاعى موضحا أننى لا أسـتطيع أن أروى شـيئا عمـا يجرى خلال الوقت الـذى أمكثه مع الرئيس، لأن ذلك حقه وحده. وأكدت له أننى سأتعرض لأذى كبير إذا ما خاطرت بفقدان ثقة الرجل وتفهم القائد الموقف وقال إننى أيضا لا أحب أن تخذل ثقتى فيك. فكيف أرضى أن تخذل ثقة الرئيس فيك؟

وفى شتاء عام ١٩٦٩م ألقت سلطات الأمن القبض على مجموعة من العسكريين بتهمة الإعداد لانقلاب عسكرى وكان من بينهم رائد صاعقة من المجموعة ٣٩ قتال وبدأ الجميع فى مراجعة علاقاتهم بزميلهم المقبوض عليه والتحسب لعملية استدعائهم للتحقيق معهم.

وكانت هناك علاقات أسـرية واجتماعية تربط بين أفـراد المجموعة ولم تكن علاقات الزمالة والصداقة محصورة فى العلاقات فيما بينهم. بل هناك من توسع ومد النطاق ليشمل أسرته.

وكان الرائد حنفى مَن النوع الهادئ الدمث الخلق الذى لايثير أية مشـاكل مع زملائه أو رؤسائه.

وكان الاستغراب والدهشة هو رد الفعل المباشر للمعلومات التى تناثرت حول المجموعة الانقلابية والأوراق التى تم العثور عليها والصور والتسجيلات التليفونية.

ولم يكن هناك من صدق كل ماصدر عن المصادر الأمنية. وظل هناك أمل أن يكون هناك خطأ ما حول اشتراك الرائد حنفى فى هذه المحاولة.

ولاذ مـن لاذ بالصمت. وشـعر من لم يرتبطوا بعلاقة مع المتهـم بفرحة كتموها. فالمهم بالنسبة لهم إفلاتهم من عمليات التحقيق والمراقبة.

وكان البعض قد شعر بوجود متابعات أمنية، وبأن تليفوناتهم قد وضعت تحت الرقابة.

ومنهم من قال: ربما هى المتابعة الدورية بين الحين والحين. وقال آخرون بل هناك شىء ما.

وكانــت العيون تتابع المجموعة بدقة وتحــاول رصد أى خروج على المألوف ومثل هذا الإجــراء الوقائــى كان منطقيــا ومفهوما. ويتعامــل معه الجميع بفهــم، ولم يكن يثير أية حساســية. فالقضية هنا لاترتبط بالثقة أو بالولاء، ولكــن بالأمن وبالاحتمالات وبالمخاوف وقواعد عمل أجهزة الأمن.

وجاءت عملية إلقاء القبض على الرائد حنفى لتؤكد أن الإجراءات الوقائية كانت مفيدة.

أمــا أســبابها فترجع إلى أن هــذه المجموعة القتالية كانت تضــم العناصر الأكثر جرأة والأفضل تدريبا والأعلى كفاءة وكانت جسارة أفرادها وعلى رأسهم القائد مضرب المثل. كما كان فى مخازنها الكثير من الأســلحة والذخيرة طبعا فيما عدا الأســلحة الثقيلة كالمدفعية والمدرعات أى يتوفر لها الكثير من العناصر التى تشــجع على الإقدام على عمليات اغتيال أو محاولات انقلابية.

وبلغ من براعة أجهزة الأمن أنها تركته يشــارك فى عمليات المجموعة بشــكل طبيعى ليشــعر أنه بعيد عن الشــبهات وعندما توفرت لها الأدلة الكافية، اختاروا أن يلقوا القبض عليه بعد عودته من عملية بمنطقة جنوب سيناء.

وأثناء اللقاء بالرئيس عبدالناصر. عقب العملية التالية. أى بعد مرور عدة أسابيع. جرى الحديث عاديا حول العملية الأخيرة. وأثناء التحية قبل الانصراف ســألنى مباشرة عما إذا كان حنفى قد تحدث معى حول نواياه. فأجبته بســرعة: لو أنه فعل لأبلغت اللواء محمد صادق فورا فقال إنه يعرف أننى كنت سأفعل ذلك فعلا.

ومرة أخرى وبعد أن انتهى قائد المجموعة من عرض تقريره الشفهى على الرئيس وكان الوقت مبكرا طلب الرئيس منى البقاء وبعد أن خرج القائد ونائبه عاد الرئيس واستقر على مكتبــه وأنا مازلت واقفا فى انتظار أن يــأذن لى بالجلوس وبعد أن نظر فى بعض الأوراق. وأعطــى تعليمــات بتنفيذ ماهو مطلوب اتجه بنظره إلى وســألنى عن رؤيتى للملك فيصل، وفوجئت بالســؤال، وترددت لفترة حاولت فيها فهم السؤال، ولاحظ ترددى، بعدها قلت له: إنها كانت المرة الأولى التى أقابل فيها ملكا، وقد عاملنى برقة كصحفى، وعاتبنى بلا غضب لأننى رفضت الهدية التى قدمها لى وزير الإعلام، ولم يرفض الإجابة على أى سؤال.

وللافلات من حصار السؤال وأبعاده، انتقلت بالحديث إلى نقاط أخرى، وقصصت عليه

ثلاثـــة مواقف واجهتنى خلال زيارة الســعودية واخترت أن يكون الموقف الأول عن وجود تيارات سياســية يسارية بالمملكة. وحكيت له إننى بعد أن التقيت بالأمير عبدالله الفيصل والشــيخ كمال أدهم، وقلت لهما ما قلته دفاعا عن مصر ورئيســها، وما أبديته من حرص على تحمل نفقات إقامتى وفى فندق خمس نجوم. فوجئت وأنا أتجول بالسوق بشاب يدس ورقة فى جيبى ويختفى بسرعة. ومن هذه اللحظة بدأت أول احتكاك بمجموعة من الشباب الســعودى اليســارى التوجهات. وســرعان ماتم تنظيم لقاء بعد أن شعروا بالأمان تجاهى. وأننى لن أبيعهم للسلطات. وبعد أن أدركوا أننى أثق فيهم مثلما وثقوا هم فى.

ثم تسلمت منهم بعض المنشورات. وعلمت أن عددهم ليس كبيرا كما أن خبراتهم العملية محدودة، وكذلك قدرتهم على الحركة.. كان ذلك فى جدة.

وعلى الطائرة التى أقلتنى إلى العاصمة. جلس بجوارى أحدهم، وفى مكتب وزير الإعلام بالريــاض، قابلت واحدا منهم ومن خلال هذه اللقاءات أدركت أنهم مصرون على مواصلة العمــل وتحمــل تبعاته. وعرفت أن الســلطات قد اعتقلت عددا منهــم وأن المحكمة التى شــكلت لمحاكمتهم قضت ببراءتهم لعدم وجود أدلة تدينهــم. إلا أن الملك رفض التصديق على الحكم وأمر بتشكيل محكمة أخرى لمحاكمتهم.

وقلت للرئيس إننى لم أكن أتوقع إطلاقا وجود تيارات يسارية فى السعودية. وأن هذه القيادات رغم قلة الأعداد مصرة على الاستمرار فى العمل والنضال من أجل ماتؤمن به.

وانتقلت إلى الواقعة الثانية. ورويت أننى خلال إقامتى بالفندق بجدة كنت ألتقى بزائر إنجليزى كلما توجهت إلى الكافتيريا فى المساء. فتعارفنا وكنا نلتقى لتناول طعام العشاء ثم ننتقل إلى الكافتيريا لاحتساء القهوة والبيرة الخالية من الكحول ولم يخل حديثه من التعبير عن ســخطه للتقاليد والقواعد التى تمنع تناوله الكحول وكان يتساءل لماذا توجد زجاجات الكحول فى كثير من المنازل ولاتوجد فى الفنادق؟

وسألته: ولماذا لاتغادر إذا كان الأمر شاقا عليك؟ فقال إنه مضطر للبقاء لأنه المسئول عن تنفيذ عقد تســليم المقاتلات القاذفة من طراز لايتننج الإنجليزية الصنع إلى القوات الجوية الســعودية. واسترسل فى الحديث عن الصفقة وتفاصيلها ووجدتنى أستمع إلى أسرار بالغة الأهمية. ولم أتردد فى التوجه إلى الســفارة التى كانت موجودة فى جدة وقتذاك. والتقيت بالســفير يحيى عبدالقادر والمستشار ســعد مرتضى وأخبرتهما بما قاله الخبير الإنجليزى.

وكانت دهشتهما بالغة. فالسفارة كانت تسعى بكل السبل للحصول على هذه المعلومات وها هو الحظ يقودنى إليهم ورأيت عبدالناصر يسجل شيئا على الورق الذى أمامه.

ثــم قلت له إن الواقعة الأطرف كانت لقائى برجل من حضرموت حضر إلى الســعودية وبعد سنوات أصبح من بين الرجال الأكثر ثراء بالمملكة. وهو المالك الرئيسى للبنك الأهلى.

وقد روى لى ببســاطه ودون أى أحســاس بالحرج، إنه لايعرف القراءة أو الكتابة، وقد وظــف إنجليزيــا ليقوم بالتوقيع علــى الأوراق بالنيابة عنــه، وأن كل البنوك فى الداخل والخارج تتعامل مع هذا التوقيع باعتباره توقيعى أنا وبعد سنوات من العمل قررت أن أتعلم كيف أوقع باسمى على الوثائق والمستندات وبعد أن تعلمت أنهيت التعاقد مع هذا الموظف الإنجليــزى.. ويضحك كثيرا ومن قلبه، وهو يســألنى هل تصــدق أن كل البنوك الداخلية والخارجيــة بصفــة خاصة قد رفضت توقيعى وتصورت أن هناك من يحاول تقليد توقيعى. وتوالت الاتصالات للاستفســار والاســتيضاح، ولم أجد مناصا من إعادة الموظف الإنجليزى للتوقيع نيابة عنى وعادت الأمور لتسير فى مسارها الطبيعى.

وقلــت: كان يحكى أمــام الحاضرين، وأنا منهم وهو ســعيد، وضحك الرئيس كثيرا، وأبــدى دهشــته من أن الرجل بــكل هذا الثراء الذى يجعله فى المقدمــة ولا يعرف القراءة والكتابة.

كانت المرة الأولى. التى أحكى فيها شــيئا للرئيس لم يســأل عنه. فقد كنت دائما شديد الحرص على أن تكون إجابتى على قدر الســؤال. وبجمــل واضحة وقصيرة بقدر الإمكان. كنت أخشى الوقوع فى أى تجاوز أو أخطاء. ولكن السؤال عن الملك فيصل بعد هذا الوقت الطويل وحيرتى قادنى إلى الخروج على النص.

خــلال هــذه الفترة رأيــت الرئيس بالغ الحرص على اســتجلاء الصــورة والبحث عن الحقيقــة والنظــر فيما وراء التقارير المكتوبة والشــفهية وبما يعكس قدرا من الشــك فيها، أو فلنقل قدرا كبيرا، وبما يكشف عن ثقة محدودة أو مهتزة فى عدد كبير من المسئولين.

وبــدأت أطل لأول مرة على حالة مــن يقف وحيدا على القمة ومدى معاناته بالرغم من كل السلطة والسطوة والقوة والنفوذ.

ولا أشك أنه كان يثق ثقة كبيرة فى اللواء محمد صادق ويثق فيما يقوله أو يقترحه ولا

ينسى له أنه صاحب الاقتراح ببدء حرب لاستنزاف القوات الإسرائيلية فى سيناء.

وعندما تحفظ على الاقتراح موضحا أن مصر وافقت على قرار مجلس الأمن رقم «٢٤٢» الصادر فى نوفمبر ١٩٦٧م وعلى وقف إطلاق النار بكل مايترتب على ذلك من مسئوليات. قال صادق له: إن شـبه جزيرة سـيناء أرض محتلة وبالتالى فمن حق المواطنين بها مقاومة الاحتلال. ولايمثل ذلك أى خروج على قرار وقف إطلاق النار.

ومن جانب آخر أحاطه علما بأنه تم تشكيل منظمة سيناء العربية من أهالى سيناء للعمل ضد قوات الاحتلال وأن كل البيانات سوف تصدر عقب العمليات باسم هذه المنظمة. وهنا يمكـن للفدائيين مـن المقاتلين المصريين العمل بحرية تحت هذه المظلة وسـيجرى تلقينهم كيفية التصرف فى حالة الأسر.

كما أوضح صادق له أهمية تحطيم صورة القائد والضابط والجندى الإسـرائيلى «السوبر» قبل أن تسـتقر فى أذهان أفراد القوات المسـلحة كنتيجة للهزيمة فى معركة يونيو. وهذه الصورة لن تتحطم إلا بالعمل العسـكرى الفدائى الذى ينشب الأظافر فى الجسد العسكرى الإسرائيلى.. وفيما يتعلق بتلك النقطة قام بتذكيره بما فعله القائد الإنجليزى «مونتجومرى» الذى تولى قيادة الجيش الثامن الإنجليزى لمواجهة وصول «الفيلد مارشال» الألمانى «رومل» بقواته إلى منطقة العلمين غرب الإسكندرية بعد معارك سريعة وحاسمة ألحق فيها الهزيمة بالقوات الإنجليزية وباقى القوات المتحالفة فى شمال إفريقيا. فقد بدأ مهمته بتحطيم صورة «رومل» التى استقرت فى أذهان القوات الإنجليزية كقائد فذ لايهزم.

وبهذا المنطق فاز بموافقته على بدء حرب الاستنزاف. وبعد نجاح هذه الحرب والنتائج الإيجابيـة التـى حققتها تعاظمت ثقتـه فى مدير المخابرات الحربيـة. وتضاعف إعجابه بإبراهيم الرفاعى. وكان كل من صادق والرفاعى يدرك حقيقة مكانته عند الرئيس.

ومـن خلال التجارب وعمليات الاقتراب من عبدالناصـر، وتعدد اللقاءات، أخذ يقول للقريبين منه، لو أن هناك عشـرة عبده مباشر لشعرت بالأمان على مصر. قال ذلك لصادق والفريق أول فوزى وللأستاذ هيكل وغيرهم. وكان اللواء صادق هو أول من نقل هذا الرأى لى ومن بعده الأستاذ هيكل أما الفريق أول فوزى فلم يفتح هذا الموضوع معى قط.

وربمـا لاحظ وزير الحربية أننى أتجنب قدر الإمـكان الحوار معه، وظلت علاقتنا فى حدود ما يقتضيه عملى كمحرر عسكرى ومراسل حربى للأهرام.

ولم يحدث أبدا أننا تحدثنا عن موافقة الرئيس على طلب تطوعى بالمجموعة ٣٩ قتال وهو الطلب الذى رفض الموافقة عليه.

ولا أعلم كيف اســتقبل ما قاله عبدالناصر عنى ولكنى أعلم أن اللواء صادق كان الأكثر سعادة وشعورا بالرضا وكثيرا ما قال لى إننى لم أخذله وأننى أؤدى كمتطوع واجبى بصورة مرضيــة ولكن بعد أن ســألنى عبدالناصر عن الملك فيصل قــال لى ونحن فى الطائرة لزيارة قصيرة لليبيا إننى قد اجتزت امتحانا صعبا ولم يقل ما هو أكثر.

❑❑❑

الفصل الخامس

أنا .. ومظاهرات فبراير ١٩٦٨م وعبدالناصر

فى أول بروز جماهيرى، قال عبدالناصر الذى كان يشغل وقتذاك منصب وزير الداخلية وهو يوجه كلماته للرأى العام «لن أخادع. ولن أضلل. ولن أستجدى» وقد خضنا أى أنا والزملاء والأصدقاء بكلية الحقوق بجامعة الإسكندرية فى نقاش حول هذه الكلمات وتباينت الآراء إلا أن زميلنا النقراشى الجمل علق قائلا.. إن هذا الرجل كذاب. إنه مسيلمة المعاصر. وتصدينا له جميعا واتهمناه بالكثير من التهم، وانتظرنا أن يغير موقفه، إلا أنه أصر عليه.

ولم يكن له من تعليق على أى خطاب يلقيه بعد أن أبعد الجميع، واستقر على القمة، سوى مسيلمة يتحدث وظللنا على خلاف معه. ولم يحل موقفه وعناده دون استمرار صداقتنا كنا نرى الأخطاء ونعيش فى ظل ديكتاتورية عسكرية تعادى الحرية وتحرم المواطنين من حقوقهم، ولكن الآمال فى غد أفضل جعلتنا نقبل بالنظام ورئيسه.

وبلغ منا القبول إلى درجة الانتظام فى دورات منظمة الشباب وأنهينا منها دورتين، وإن عبرنا عن اختلافنا مع المشرفين والمسئولين بمعسكر حلوان التدريبى للمرحلة الثانية.

فقبل انتهاء هذه الدورة التدريبية كانت هناك محاضرة عن الاشتراكية قبل ظهر يوم جمعة واستمر المحاضر يتحدث طوال فترة قراءة القرآن. وبدأ خطيب الجمعة فى المسجد المجاور يخاطب المصلين من فوق المنبر، واقترب موعد إقامة الصلاة. فوقفت وقلت «الصلاة» ولم يستمع لى. فرفعت صوتى صارخا «الصلاة»، ولم يلتفت أحد لما أقول، واستمر المحاضر يلقى محاضرته، فخلعت السترة، ولوحت بها واقفا وناديت بأعلى صوتى «الصلاة، إنها صلاة الجمعة»، وأخيرا توقف المحاضر، وانصرفنا إلى الصلاة.

بعدها اجتمع المسئولون بالمنظمة. وقرروا فصلى من المنظمة.

ثم سافرت إلى ألمانيا للدراسة. ثم عدت فى منتصف يونيو ١٩٦٧م.

وكنت قد سافرت مقتنعا بنظام عبدالناصر، وعدت بعد أن أصيبت صورته بالشروخ وبعد أن تغير موقفنا على ضوء نكبة يونيو ١٩٦٧م.

وهذا الموقف لم يؤثر على رفضنا للاحتلال الإسرائيلى وللهزيمة التى اقتنعنا أنها هزيمة

للنظام السياسى لا مجرد هزيمة عسكرية. ولم يؤثر فى إصرارنا على المشاركة فى العمل بكل الصور الممكنة للتخلص من عار الهزيمة.

وكان ما كان. جمعنا تبرعات من ألمانيا من أجل مصر، وتطوعنا للمشاركة فى العمل الفدائى، واقتربنا من الرئيس جمال عبدالناصر ومن عالمه.

وفى فبراير ١٩٦٨م، وفى أعقاب النطق بالأحكام الهزيلة الصادرة بعقاب عدد من كبار القادة العسكريين باعتبارهم من المسئولين عن الهزيمة واندلاع ثورة الرأى العام زارنا صديق قيادى بمنظمة الشباب ليخبرنا أن المنظمة تعد لمظاهرة شبابية صباح الغد، إحداها ستنطلق من جامعة القاهرة فى محاولة لامتصاص غضب الناس.

مظاهرة فى شوارع القاهرة. وبعد سنوات ممتدة من القهر لم تتحرك فيها سوى مظاهرات عامى ١٩٥٣م و١٩٥٤م ثم مظاهرة جنازة الزعيم مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد ورئيس آخر حكومة وفدية والتى تحولت إلى حركة احتجاج بالغة القوة. وكان المدهش أن النظام هو الذى سيطلق هذه المظاهرة. ورأينا أنها فرصة لإبلاغ النظام رسالة قوية ليدرك حقيقة مشاعر الناس وغضبهم.

كان الوقت متأخرا عندما زارنا هذا الصديق، ولم يكن هناك بد من التحرك بسرعة إذا ما أردنا استثمار هذه المظاهرة لنعبر عن أفكارنا ومواقفنا. وقمنا ببعض الاتصالات والزيارات. وتمت مناقشة الموقف واحتمالاته. وفى النهاية استقر أمرنا كمجموعة من الأصدقاء على سرقة المظاهرة التى ستخرج من جامعة القاهرة بعد أن يشتد عودها، وتسيطر عقلية القطيع على المتظاهرين.

ومبكرا صباح يوم ٢٤ فبراير كنا هناك مع خطة بسيطة قابلة للتنفيذ. وانتظرنا. وخرجت المظاهرة والهتافات كلها حول الأحكام التى أصدرتها المحكمة عسكرية، واجتازت أول سور أمنى أمام الجامعة، وسارت فى طريقها إلى أن وصلت بداية كوبرى الجامعة وتمكنت من اجتياز السور الثانى الذى شكلته قوات الأمن المركزى. هنا بدأنا العمل. وقمت بقيادة المظاهرة وتغيير مسار الهتافات إلى هتافات سياسية، منها «يسقط حكم الفرد الظالم» «يسقط حكم المعتقلات» «عايزين حكومة حرة.. العيشة بقت مرة» «عاملين أسود علينا.. واليهود فى سينا» «لا صدقى ولا الغول. عبدالناصر هو المسئول».

صدقى هو الفريق الأول محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية. والغول هو اللواء محمد عوض الغول قائد الفرقة الرابعة المدرعة.

«عايزين صحافة حرة» «حرية.. حرية»

ولأن السور الأمنى عند جامع صلاح الدين بالمنيل كان أقوى من السورين السابقين فقد تركت قيادة المظاهرة للصديق إسماعيل النقيب؛ لكى أتولى قيادة المجموعة التى تتصدر المظاهرة، والاندفاع بها إلى قلب السور الأمنى لأعمل على اختراقه. وفعلا فتحت ثغرة اندفعت منها المظاهرة ونجحنا فى تجاوز هذه العقبة. وكان هناك سور آخر عند نافذة شيم الشافعى. هذا الشارع الضيق الذى يربط الكورنيش بشارع قصر العينى. وبدأ الصراخ.. حرية.. حرية.. حرية.. وبقوة الاندفاع والصراخ إلى حد التشنج والبكاء. شقت المظاهرة طريقها إلى شارع قصر العينى.

وانضم المئات من المواطنين إلى المتظاهرين. وتضاعف عدد المنضمين مع كل متر تقطعه المظاهرة.

وبدا واضحا أن القوات الموجودة ليس لديها أوامر بإطلاق النار على المتظاهرين، وربما لأنهم لم يتوقعوا للمظاهرة أن تصل إلى هذا المدى. لم تكن لديهم تعليمات واضحة بأسلوب التعامل. وربما كان ذلك من أهم الأسباب لاستمرار المظاهرة.

واجتزنا شارع قصر العينى، واكتسبت المظاهرة قوة هائلة. وتعالت أصوات النساء بالزغاريد. فى تلك اللحظات تداولنا وبسرعة قرار المضى بالمظاهرة حتى تصل إلى منزل الرئيس بمنشية البكرى.

وتركنا مسئولية الهتاف للطلبة وقيادات من منظمة الشباب، على أن نظل بجوارهم، ليستمر الهتاف على النحو الذى نريده. وتواصل المظاهرة طريقها حتى تصل إلى شارع رمسيس بعد أن أصبحت أكثر عددا من كل التوقعات. وشارك الواقفون على جانبى الطريق بالتصفيق والتحية، وتعالت أصوات النساء بالدعاء. التف الناس بصورة مدهشة حول المظاهرة والمتظاهرين، ولوح كثيرون بقبضاتهم وهم يرددون هتافات المظاهرة. وكنت أتساءل. ما كل هذا التأييد؟

إننا ونحن نخطط مساء أمس، لم نحلم أبدا بكل هذه المشاعر التى تفجرت وعبرت عن نفسها بكل هذا الوضوح والسفور والعلانية.

وبعد أن وصلت المظاهرة إلى مستشفى الهلال الأحمر واقتربت من باب الحديد، اختلف

أسـلوب تعامل الشـرطة بشـكل جذرى. وبدون تحذير بدأ إطلاق النيران، وسقط بجوارنا طالـب ممن كانوا يقودون الهتافات مصابا بعيار نارى فـى الكتف. فحملته أنا وإسماعيل النقيب إلى مستشفى الهلال الأحمر القريب، وأدخلناه من الباب المطل على شارع الجلاء. وسـألنا طبيب الاستقبال المناوب عما به. فأجبنا بأنه مصاب برصاصة فى الكتف مجهولة المصدر. لم نشأ أن نخبره بالحقيقة حتى لا يصاب بالفزع ويتعقد الموقف. وبالطبع لم يصدق ما أخبرناه به. فزئير المتظاهرين كان عاليا وصاخبا وكذلك صوت الصدام مع قوات الأمن. فطالبنا بإبراز بطاقاتنا الشـخصية لتسـجيل البيانات المطلوبة وأمرنا بضرورة التوقيع على البلاغ فى السـجلات. فأوضحت له بجلاء إننا لن نوقع على أى أوراق ولن نكشـف عن شـخصيتنا. وإذا أراد أن يعالج المصاب فليعالجه. وإذا لم يرد فسنحمله إلى الخارج ونضعه أمام باب المستشفى لينزف حتى الموت. وليتحمل ضميره وزر ذلك.

وبدا واضحا أنه أمام اختيار صعب. وفى النهاية قال اتركاه واخرجا، وشـكرا على أى حال.

وخرجنـا لنجد بقية الفريق فى انتظارنا لمعرفة مـاذا جرى. وقصصنا عليهم ما حدث. بعدها اقترح زميلنا الضبع المحامى الصعود إلى كافتيريا فندق رمسيس لنتناول القهوة ولنطل من هذا الارتفاع على الشوارع المطلة على ميدان باب الحديد لمشاهدة آثار ما جرى. وصعدنا ثلاثـة إلى الكافيتريا أنا وإسماعيل والضبع، وعـاد الآخرون إلى منازلهم. ومن هذا الارتفاع عرفنا لماذا لجأت الشـرطة إلى إطـلاق النيران على المتظاهرين، فقـد كانت هناك مظاهرة أخـرى خرجت من جامعة عين شمـس وكانت فى طريقها تقريبا إلى مبنى مجلس الأمة.. مجلس الشـعب الآن.. ولأنها قد وصلت أمام المستشـفى القبطى بشـارع رمسيس واقتربت جدا من اللقاء بالمظاهرة القادمة من جامعة القاهرة، ولم يكن ممكنا أو مقبولا من وجهة نظر الأمن السماح بالتقاء المظاهرتين للخطورة المتوقعة. لذا تقرر منع هذا الالتقاء بكل السبل.

وقتها أدرك الرئيس خطورة الوضع. وكان فى لحظة من اللحظات قد أمر بإعداد طائرة استعدادا للخروج من مصر. إلا إنه تراجع.

وبعد أن تسـلم الرسـالة. قرر الإقدام على مجموعة من التغييرات. ويوم ٣٠ مارس أعلن بيانه الشهير الذى وعد فيه بالحريات وبالاستجابة لمطالب الشباب.

انتهت المظاهرة وواصلت حياتى.

والتقيت بالرئيس. مثلما كان الوضع قبل المظاهرة. لا أنا اشــرت إلى ما قمت به ولا هو سألنى.

وبعــد عدة شــهور كنت بمكتب مديــر المخابرات الحربية وكانت الســاعة تقترب من الرابعة بعد الظهر. وعندما استأذنت فى الانصراف، طلب أن أنتظر ليصحبنى فى سيارته لأن هناك ما يريد الحديث عنه معى. وفى طريق العودة سألنى عما إذا كان عبدالناصر قد ســألنى أو تحدث معى عن اشــتراكى بالمظاهرة. فقلت له لا لم يحدث. فقال لقد توقعت ذلك، حتى لا يضع عليك ضغوطا من أى نوع قد تؤثر على أدائك خاصة القتالى.

وقال: المهم إنه على علم بكل ما فعلت، وقرر ألا يتخذ أى إجراء ضدك أو ضد من كانوا حولك ومعك، وقد تحدث معى بشــأنك وقال، إنه يرى أن وجودك كمقاتل خلف خطوط العدو أجدى من وجودك بالمعتقل، فمصر لن تســتفيد شــيئا من وضعك وراء الأسوار ولكنها ستستفيد من اشتراكك فى العمليات خلف خطوط العدو.

وقال إنه يفهم أسباب غضبك وغضب الجيل الذى تنتمى إليه. وغضب الأجيال الشابة. وأكد إنه على يقين أنك غضبت لحســابك وليس لحساب هذه القوة أو تلك. وإنك لا يمكن أن تقبل العمل لحساب أحد. وهذه نقطة إيجابية لصالحك. وقد قلت للرئيس إننى أضمن ذلك.

ولا شك أنه يقدر استقلاليتك وهو يقدرها حق قدرها.

وقــال اللواء صادق: لقد أردت أن تعلم موقــف الرئيس منك. وحتى لا يغيب عنك أنه يعلم. ولتعرف أنه لا يريد أن يتوقف نشــاطك كفدائى. فرد الفعل على هذا النشــاط على امتداد الجبهة إيجابى جدا.

ولم أنــس لــه قط ذلك. لقد تصــرف كرجل دولة وبقدر عال مــن الحكمة وضبط النفس وبإعلاء للمصلحة العامة للوطن.

لقــد كان من حقــه أن يغضب، وكان من الممكن أن يعصف بى. وهذا بالنســبة له أمر يســير. ولكنه كان يعلم أيضا أننى وغيرى كنا على اســتعداد لدفع الثمن وإلا ما قمنا بما قمنا به. لقد كنا نرى المصورين من حولنا. طبعا بعضهم من مصورى الصحف والتليفزيون. ولكن البعض الآخر كان من كل أجهزة الأمن. ولم نتردد فى قيادة المظاهرة أو فى الهتاف المعادى للنظام وسياساته.

ولقـد أدركـت أن لى رصيدا لدى الرئيس، بدأ بحوارى مـع الملك فيصل ثم زاد نتيجة التبرعات الألمانية وتضاعف من جراء نشـاطى الفدائى خلف خطوط العدو، ومعرفته بأننى أعفيت القوات المسلحة من كل مسئولية عنى إذا ما لحق بى أى سوء.

وكان الرجـل يقـول للجميـع إننى «بايع نفسـى» كما كان يخبرهم بأننـى رغم تعدد اللقاءات لم أطلب منه شيئا قط. كما لم يحاول أن يذكر أحدا بسوء.

وكان يسـتغرب الأمر؛ فكل من يلتقون به لا يذكرون أحدا بخير، ولا ينسـون أنفسهم ومصالحهم.

ومع حمدى المتواصل لله على كل شيء وشكرى الذى يلهج به لسانى بل وكيانى كله، كنت وأنا أسـتعيد شـريط الذكريات. أتبين أن الحياة لا تسير فى خط واحد أبدا. لابد أن يتغير المسـار انكسـارا وانتصارا. وأنه يجرى الانتقال من الفشل إلى النجاح ومن الصحة إلى المرض فى متوالية لا تعرف التوقف. أما الانحناءات والتراجعات والتعثر فى العقبات فأمر لابد منه. لا شيء ثابت أو مضمون أو دائم أو مستقر. فنسيج الحياة متعدد ومتباين الألوان.

وعندما أنظر للاقتراب من عالم عبدالناصر. كنت أرى الحسـد والغيظ فى عيون كثيرين وأرصد فى الوقت نفسه من يتمنى منه ولو نظرة. ولم يكن كل هؤلاء يعرفون أننى كنت أدعو الله فى كل مرة أن ينتهى اللقاء على خير. لذا كنت أراعى المسافة التى تفصل بيننا دائما. وأتعمد أن تظل فى المربع نفسه. وأن تكون كلماتى محدودة مراعيا وقت الرئيس وانغماسه فـى العمل وواعيا أن طول وقت اللقاء قد لا يكون إيجابيا وكنت طوال الوقت أعرف الفرق بين الوطن والرئيس. وهذا ما ساعدنى كثيرا خلال هذه التجربة الفريدة.

وكان الوطـن هو الدافع والمحفز لحملة جمع التبرعات فى ألمانيا، وللتطوع للاشـتراك فـى العمل الفدائى فى سـيناء، وللانخراط فى مظاهرات فبرايـر ١٩٦٨م. لقد قدر الرئيس عبدالناصر ذلك. ولكنى لم أفعل كل ذلك من أجله أو من أجل وجوده على قمة السلطة.

وكان الاشتراك فى المظاهرات هو التعبير الأبرز عن التفرقة بين الرئيس والوطن.

لقد اقتربت من عالم عبدالناصر بقدر ما سمح به هو ولأسباب تتعلق به وبرؤيته وتقديره للأمور. ولكن هذا الاقتراب لم يحل بينى وبين التظاهر من أجل الوطن.

ولم يكن ضميرى ليرضى أو يقبل أن أتقاعس عن التعبير عن رفض سياسات النظام الذى يقوده عبدالناصر ويصنع قراراته وكنت على بينة من خطورة الأمر. ولكن من قال إن القتال خلف خطوط العدو فى سيناء أقل خطورة؟

لقد اخترت أن أمشى على هذه الطرق بالرغم من كل المخاطر التى تحيط بها.

ومثـل هذه القضايا لم تكن أبدا موضوعا يطرح مع الرئيس، فقد كان له عالمه ووجهات نظـره. وكان يعرف مع مـن يتحدث ويناقش مثل هذه القضايا، وكنت أعلم أننى أنتمى لجيل مختلف أصغر سـنا، ولكن له أفكاره ووجهات نظره التى صاغها من مناخ مختلف عن المناخ الذى عاشت فيه أجيال سابقة.

وقد راعيت دائما هذه المسـافة التى تفصل بيننا والإطار الذى لا يجب أن أخرج عنه. ولم أخرج عنه سوى مرة واحدة عندما فاجأنى بالسؤال عن الملك فيصل ولم يكن أمامى من مخرج سوى الخروج عن هذا الإطار ولم أكن أعلم أننى سأضطر للخروج مرة ثانية.

حدث ذلك عندما أخبرنى أن أم كلثوم قالت: إننى صحفى «كويس» وشاطر وإن كنت قليـل الكلام. وتوقف عن مواصلة الكلام. وكان فى ذلك دعوة لى لكى أتحدث. فقلت إننى التقيـت بهـا لأول مرة وتعرفت إليها فى بيت مصطفى أمـين وبعد تكرار اللقاء فى البيت نفسـه، وجهت لى الدعوة لحضور حفل لها وأرسـلت لى تذكرتين وكانت لفتة طيبة منها بالرغم من أن الأمر ظل مقصورا على اللقاء فى المكان نفسـه. وإن كنت بين الحين والحين أنشر عنها خبرا.

ووجدته يسـألنى عن مصطفـى أمين. وكان فى ذلك الوقت مسـجونا بعد الحكم عليه فى قضية تجسـس لصالح أمريكا. فنظرت إليه وأنا تحت وطأة حالة من الدهشـة الشديدة والحـيرة والقلـق. ولم أجد مفرا من أن أسـأله أن يعطينى الأمان وأنا أضع ابتسـامة على وجهى. وضحك وهو يقول لهذه الدرجة قلت نعم. وأكثر.

قـال أعطيتك الأمـان. فقلت له. أولا هو مـن وقع على قرار تعييـنـى صحفيا بجريدة الأخبار. وهذا فضل كبير لن أنسـاه له. ثم لقد دعانى إلى حفلات العشـاء التى كان يقيمها بمنزله بشكل منتظم أسبوعيا. وقدمنى إلى نجوم الصحافة والفن والسياسة، وساعدنى ذلك كثيرا فى بداية حياتى، وشـكل نقلة نوعية فى علاقاتى بهؤلاء النجوم، وكان هو الأستاذ والمرشد طوال سنوات العمل الأولى.

وبسـرعة تحفظت قائلا إننى أحكى عنه وعن دوره فى حياتى وحياة جيلى كصحفى. وواصلت قائلا: ولأننى درسـت فى القانون أن الحكم هو عنوان الحقيقة؛ فإننى أعمل بما تعلمت.

كان يسمع باهتمام، ولاحظت أنه يريد أن يسمع ما هو أكثر، وبما أنه أعطانى الأمان، فقــد واصلــت قائلا إننى اعترف له بالفضل وبالأســتاذية فى الصحافــة، أما فى الميادين الأخرى، فذلك شــأنه واختياره، ويتولى المولى ســبحانه وتعالى حسابه على اختياراته، أما عن أخطائه على المســرح السياســى فإن الأمر دائما فى يد القضاء لمحاســبته عليها إذا ما كانت تستحق الحساب.

❑❑❑

الفصل السادس

عبد الناصر وأنا ..حديث عن الجاسوسية

فى نهاية يوم شتوى شديد البرودة فى نهاية يناير عام ١٩٧٠م. تلقيت اتصالا تليفونيا من الفريق محمد صادق الذى شغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى سبتمبر من عام ١٩٦٩م ليحل محل اللواء أحمد إسماعيل الذى عزله الرئيس عبدالناصر كنتيجة لعملية الزعفرانة الإسرائيلية على شاطئ خليج السويس الغربى. ليطلب منى الذهاب لمقابلة الرئيس عبدالناصر فى الثامنة من صباح الغد.. ولما سألته لماذا؟!.. قال: إن الرئيس طلب منه ذلك دون أن يخبره شيئا عن أسباب هذا اللقاء.

وقضيت وقتا أحاول فيه معرفة مايمكن أن يكون سببا لذلك، ولكننى لم أصل لشىء فلم تكن هناك أمامى أية أسباب، ولكن هناك بالضرورة أمرا هاما استدعى هذا اللقاء، وكانت النقطة التالية، ولماذا جاء الاتصال من محمد صادق وليس من المسئولين بمكتب الرئيس، وقدرت أن الرئيس اختار محمد صادق لبث الطمأنينة فى نفسى حتى لا أشعر بالقلق من مثل هذا الاستدعاء غير المتوقع.

ولم يكن القلق بعيدا عنى.. ولكننى كنت أقول لنفسى: بالقطع لم أقع فى أى أخطاء تغضب الرئيس. فيما عدا قيادة مظاهرات فبراير ١٩٦٨م، وقد مرت على خير. لأن الرئيس بعد أن علم تصرف كرجل دولة، كما أن الحساب على الأخطاء له وسائل وطرق أخرى.. وكنت قد بدأت أعرف أن الاقتراب من أهل الحكم فى مصر أمر صعب.. فالعيون ستبدأ فى المتابعة، وستخضع الاتصالات التليفونية للمراقبة، وسيجرى فرز كل من يلتقى بهم وفحص ملفاتهم. باختصار سيعيش مكشوفا دائما. ومثل هذه الحياة ستفرض عليه أنماطا من السلوك؛ هدفها ألا يثير الشكوك، وإذا ما فاز بقدر من الثقة، أو فلنقل إذا ما وقع تحت إدراك أنه موضع ثقة سواء أكانت هناك مساحة من الثقة به أم لا، فإنه سيتصرف بما يكفل له الحفاظ على هذا القدر من الثقة.

كنت قد بدأت أتعرف إلى هذه الحقائق بعدما اقتربت من المشير عبدالحكيم عامر،

وأولانى قدرا من الثقة، وفتح أمامى أبواب البوح لأطل على بعض معاناته، ولأعرف بعضا مــن آرائه فى الآخريــن.. لقد كانت نقطة البداية فى هذه الثقــة. عندما توجهت مع وفد صحفى وإعلامى من العاملين بقطاع الشــئون العسكرية لتغطية مناورة تجريها وحدات من القوات المسلحة فى سيناء فى بداية ستينيات القرن الماضى.

كنت مازلت فى أول الطريق، وأبذل ما أســتطيع من الجهد. وقدرت وأنا أرى الرئيس عبدالناصر والمشــير عامر يســيران فى المقدمة وخلفهما الجميع، أننــى لو اقتربت منهما، وســرت خلفهما، فربما أسمع خبرا، أو تعليقا مفيدا أســتخدمه فيما سوف أكتبه عن هذه المناورة. فأحدهما رئيس الجمهورية القائد الأعلى، والثانى هو المشير المسئول مسئولية كاملة عن القوات المســلحة والنائب الأول لرئيس الجمهورية. وبعد لحظات رأيت زميلا لهما من مجلس القيادة يأتى من الخلف بخطوات ســريعة محاولا اللحاق بهما ولاحظ ذلك المشير. فنظر إليه ســاخرا وباسما وســأله: «أنت عايز تعمل راسك براســنا يا ابن الجارية؟!!».. وشــاهدنى الرجــل وهو يقول ذلك ورأيت نظراته الغاضبة المتســائلة عمــا أتى بى إلى هذا المكان؟!.. وكيف تركونى أسير من خلفهما وبكل هذا القرب؟!.. ولكنه ومن قلب الغضب والتساؤلات. كان متأكدا أننى سمعت سؤاله!!

وبخطــوات متعثرة عــدت إلى الخلف للابتعاد عن نظره تماما وعاصفة من القلق تعصف بى، ومخاوف بلا حصر مما يمكن أن يلحق بى، تســيطر علىَّ، وعشرات التساؤلات تطل مــن رأســى، وتمتد أذرعها الأخطبوطيــة لتعتصرنى.. وكان مفجعا ومدهشــا أن أرى هذه القيادة اليوليوية تتراجع إلى الخلف بخطوات أسرع منى، لتتوارى بعيدا عن نظرات عامر وسخريته اللاذعة المرة.

لقد كان التساؤل عنصريا جارحا، وبه من التطاول والازدراء الكثير حتى ولو كان الأمر مزاحا!!

وأقول لنفسى: لو كان الأمر مزاحا ما تراجع الرجل بهذه الصورة..

لقد توقعت وأنا أسمع حديث المشير عامر، أن يطلق العضو اليوليوى النار عليه، أو أن يحاول قتله ولو بأظافره، أو أن يقول له «عيب» على الأقل أو أن ينســحب غاضبا ويعود إلى القاهرة فورا. ولكن أى من هذه الاختيارات لم يتحول إلى واقع وانســحب الرجل وظل على علاقته بالرئيس ونائبه الأول.

المهــم إننى عدت إلى القاهرة متســربلا بالمخاوف، وتوجهت فــورا إلى منزلى، وأمليت

التقريــر الصحفى الخاص بالمناورات لجريدة «الأخبــار» تليفونيا. وبدأت فى إعداد حقيبة انتظارا للزوار الذين سيصحبوننى إلى المعتقل تنفيذا لأوامر المشير عامر الغاضب من وجودى خلفه فى تلك اللحظة، لأسمع ما قاله.

وكلما سمعت وقع أقدام على الســلم أقول لنفســى: ها هم حضروا. وإذا ما طرق الباب أقول: حانت لحظة الذهاب وراء الشمس!!

ومر اليوم الأول والثانى، ومع اليوم الثالث بدأت أشــعر بالاطمئنان..وتراجعت مشــاعر الخوف بمرور الوقت. وحمدت الله أنها «مرت على خير». ولأنه لا يمكن أن «تسلم الجرة فى كل مرة» قررت ألا أقترب أبدا من أماكن وجود الرئيس أو المشير.

وبعد عدة شهور وصل وفد عسكرى عربى، وكان من الضرورى أن أتوجه إلى مقر القيادة العليــا لتغطيــة الزيارة والاجتماعات بين الجانبين. وعندمــا وصلت انتقلت من مكتب إلى مكتب حتى وصلت إلى مكتب شمس بدران مدير مكتب المشــير. وهناك جلست فى انتظار وصول الوفد العربى، ووصول المشير مع كثيرين من العسكريين والصحفيين.

وعندما حضر المشــير لمحنى جالســا، فنادانى وأدخلنى المكتب معه، وبدون مقدمات سألنى بعد أن دخلنا المكتب عما إذا كانت معى سيارة. فقلت: نعم.. فطلب منى أن أذهب فورا إلى مصطفى أمين. وأطلب منه «من بتاع إمبارح»!!

فســألته: هل تريد ســيادتك من مصطفى بك أن يرفت «بلية»؟!!.. وللتوضيح واصلت قائلا: أنا «بلية». وأخشــى أن يســألنى: ما هو «بتاع إمبــارح؟!»... فأعجز عن الإجابة. فقال: قُل له من الدواء الذى تناوله بالأمس.

وأصبحت الصورة أكثر وضوحا. وأسرعت بالتوجه إلى «الأخبار» والتقيت بمصطفى بك. الذى اســتغرق فى الضحك بعد أن سمع طلب المشــير، وطلب المشــير تليفونيا. وتواصلت الضحــكات. وانتهت المكالمة التليفونية. وســألنى مصطفى بك: ماذا فعلت لتوثيق علاقتك بالمشــير؟!.. فأجبت: لم أفعل أكثر مما يفعله أى زميل صحفى.. فابتسم وسلمنى ٣ علب من الدواء المطلوب. عدت بها للمشير.

وكانت نقطة البداية.

ومثل هذه الاختبارات الصعبة تفرض على الإنســان ســلوكا محــددا ومراعاة لما يقول. وأيضا لما لا يقول.

ولم تتوقف فى داخلى التساؤلات حول لقاء الغد مع الرئيس عبدالناصر واستعصى النوم علىَّ طويلا.

وقبل الموعد المحدد كنت هناك. واستقبلنى الرجل باسما ومرحبا.. وبعد أن جلست وتبادلنا جملا قصيرة عنى وعن عملى. قال لى: إن محمد «يقصد الأستاذ هيكل» قد أخبرنى. ولاحظ أننى لم أستنتج الموضوع الذى أخبره به الأستاذ هيكل فواصل قائلا: إنه أخبره عن اتصال المخابرات الأمريكية بى.. وأنه رأى أن يسمع منى كل ما يتعلق بهذا الاتصال وبدأت الأحداث تمر أمام عينى بسرعة عالية وكأنها شريط سينمائى، ولما كانت للقصة جذور تعود للخلف عدة سنوات أوضحت له إنها كانت حكاية طويلة ولا يمكن اختصارها فى الفصل الأخير، فطلب أن أحكى كل فصولها.

فقلت له: إن زميلا من زملاء الدراسة، انضم للعمل بوزارة الخارجية، وسافر للعمل فى ألبانيا.. ولأنه عاشق للنساء والمال.. فقد انغمس فى اللذة بقوة كما أصبح واحدا من الذين يعملون بالتهريب من وإلى دول أوربا الشرقية.. وتمكن من جمع ثروة صغيرة.

وعندما وصلت إلى ألمانيا الشرقية للدراسة، قمت بالاتصال بزملاء الدراسة الذين أوفدتهم الخارجية للعمل فى دول أوربا، خاصة الشرقية، وبالأصدقاء والزملاء الذين سافروا إلى أوربا للدراسة بعد الحصول على التوجيهية «شهادة إتمام الدراسة الثانوية» فى منتصف الخمسينيات «من القرن الماضى».

وقد طلب هذا الزميل الموجود فى «تيرانا» أن نجتمع فى «بودابست» عاصمة المجر للاحتفال بعيد الأضحى الذى حل فى نهاية شتاء عامى ١٩٦٦م. ..١٩٦٧م وتم الاتفاق على أن ألتقى به فى «بلجراد»، ويصحبنى بعد ذلك فى جولة بالسيارة لزيارة المجر والنمسا، ثم نعود للالتقاء مع باقى الزملاء والأصدقاء. وخلال هذه الجولة عشت صورا من صور التهريب، وعرفت بعضا من أسرارها.

وسألنى عبدالناصر عما إذا كنت قد كتبت عن هذه التجربة أو أخبرت بها أحدا؟!.. فنفيت هذا وذاك.. فسألنى: ولماذا لم تتحدث مع أحد؟!.. وقلت له: لم أفكر فى ذلك إطلاقا. فقد كنت بصحبة زميل. ولولا ثقته ما عشت هذه التجربة ولما عرفت شيئا عن عمليات التهريب التى يشارك فيها معظم العاملين بالسفارات فى دول أوربا الشرقية بما فى ذلك الاتحاد السوفييتى، كما كان هو الطريق لأعرف كثيرا من المشاركين فى ذلك سواء من المصريين أو النمساويين أو المجريين.

وواصلت قائلا: إن زميلا مصريا يعمل بالمجر قد دعانى للسهر فى ناد ليلى بالعاصمة المجرية. وفى نهاية السهرة دفع مبلغا كبيرا جدا يتجاوز بكثير المبلغ الذى يتقاضاه من الخارجية كمرتب شهرى، كما كان سخيا فى دفع البقشيش.. وأثناء دفع الحساب والبقشيش عرفت سبب الترحيب به وبنا عند وصولنا وتسابق الجميع على إرضائه.

المهم ظللنا جميعا على اتصال طوال فترة الدراسة..

وبعد عودتى لمصر فى يونيه ١٩٦٧م. علمت من بعض الأصدقاء أن زميلنا حسن الذى يعمل بتيرانا قد أصيب بمرض جنسى نتيجة إسرافه ومعاشرته لعدد من المحترفات ويواجه احتمال فقدان ذكورته.. وقد تنقل من مستشفى إلى مسشتفى بحثا عن العلاج.. وكان خوفه عاتيا من فقدان ذكورته.. وانتهى به الأمر فى مستشفى مشهور ببودابست.

وبدأ يشعر بتحسن، وقد أحسنت الممرضة المسئولة عنه التعامل معه.. وشيئا فشيئا ساعدته على النجاح فى معاشرتها. وعندما حاول مع أخرى واجه الفشل.. ووقف على مشارف الاكتئاب.. ونصحه الأصدقاء بالزواج من هذه الممرضة التى ساعدته على النجاح.. وقد كان.. وحتى لا يفقد عمله بالخارجية بسبب هذا الزواج، فقد أخفى الأمر عن المسئولين.. وواجه مشكلة كبيرة عندما انتهت فترة عمله فى ألبانيا، وتقررت عودته لمصر. فقد كانت الظروف لا تسمح له باصطحاب زوجة لا تعلم القاهرة عنها شيئا. كما أن الإفصاح عن هذا الزواج قد ينهى عمله بوزارة الخارجية.. وإن تصحيح الأمر يتطلب التقدم بطلب للزواج من أجنبية.. وقد يوافق المسئولون على الطلب.. وقد يرفضون.. وفى كل الأحوال لن يعود إلى مصر بدونها.. فهى العلاج.. وهى مصدر الذكورة والسعادة والثقة بالنفس.. باختصار كان يراها الحياة.. ولم يكن مطروحا أبدا أن يضحى بهذه الحياة.

وقرر الإقدام على محاولة تهريبها حتى وإن كانت لا تحمل وثائق سفر.. كما أن السلطات فى كل دول أوربا الشرقية كانت تمنع خروج المواطنين بصفة عامة إلا فى حالات استثنائية. أى أن خروجها من المجر لن يتم إلا بطريقة غير مشروعة!!.. وبعد أن شحن متعلقاته. توجه إلى السيارة مع عدد كبير من الحقائب إلى بودابست.. ومن هناك اصطحب زوجته فى رحلة هروب طويلة من المجر إلى يوغوسلافيا واليونان وتركيا وسوريا ولبنان..

وكانت الخطة بسيطة.. تختفى زوجته تحت الحقائب قبل اجتياز منطقة الحدود.. بعدها تجلس بجواره للاستمتاع بالرحلة والصحبة..

وبهـذه الطريقة تمكن مـن الوصول إلى بيروت.. ومن هناك بـدأ خطوته الأكثر خطورة وجسارة.. لقد كان على يقين أنه لن يتمكن من دخول مصر وهى بصحبته إلا إذا كان معها جواز سـفر صالح. وقد حاول شـراء مثل هذا الجواز.. وكان على استعداد لدفع الكثير من المال. ولكنه فشل.

وأخـيرا لجأ إلى الحـل الأخير الذى فكر فيه كثيرا.. وطرق باب السـفارة الأمريكية.. وأخيرا وبعد أن تأكدوا من جديته وإصراره سمحوا له بأن يقص عليهم الأسباب التى دفعته إلى هذه الخطوة؟!.. وانتهى الأمر بموافقته على العمل لحسابهم مقابل تزويده بجواز سفر لبنانى لزوجته!!

ووصل إلى القاهرة بعد انتهاء فترة تدريبه.. ولم يكد يسـتقر، حتى طلب منى مساعدته فـى لقاء مدير المخابرات العامة.. وقلت له: ليسـت لى علاقـة وثيقة به.. وطلبت منه أن يطرق بابهم مثلما طرق باب السفارة الأمريكية.. فقال: إن الأمر فى مصر مختلف.. وأفضل أن أبدأ وأنا فى حماية المدير حتى لا أتعرض لما يسوء إذا ما بدأت مع صغار الموظفين..

واقترحت عليه أن أخبر الأستاذ هيكل وأطلب منه النصيحة فاستحسن الفكرة.. ورويت للأستاذ هيكل القصة فقال سألتقى بالأستاذ حسن أولا وأسمع منه.. وفعلا تم اللقاء. بعدها اتصل الأسـتاذ هيكل بأمين هويدى.. وذهب حسـن للقاء مدير المخابـرات العامة.. وبدأ مشواره كجاسوس مزدوج.

وفى ليلة من ليالى شـهر ديسمبر ١٩٦٩م. كان على الذهاب إلى مكتب رئيس الأركان؛ فقد كتبت موضوعا صحفيا وأرسـلته للمجموعة ٢٦ التابعة للمخابرات الحربية.. وبعد أن قرأه المسـئولون بها وأرسـلوه لمدير المخابرات الحربية الذى رأى ضرورة عرضه على رئيس الأركان.

وكنـت قد قضيت اليوم ما بين إعداد هذا الموضوع ومتابعته، وكان المسـئولون بالأهرام يضغطون من أجل بذل مزيد من الجهود للحصول على الموافقة على نشره، ورأيت الاتصال بمكتب رئيس الأركان، فقالوا إنه مشغول جدا ولم يجد وقتا لقراءة هذا التقرير. فقررت أن أتوجه إلى هناك علنى أستطيع الخروج بنتيجة إيجابية.

فى تلك اللحظات حضر الأستاذ حسن لزيارتى فى الأهرام، كان يريد استشارتى حول جواز سفر زوجته التى اكتشف المسئولون بالسفارة اللبنانية وجود خطأ به، فأخبرته إننى

فــى الطريق إلى وزارة الحربية بمدينة نصر، فعرض أن يقوم بتوصيلى وشــرح الأمر والمأزق الــذى يواجهه ونحن فى طريقنا إلى هناك، ووافقت وظل يحكى إلى أن وصلت إلى مدخل الوزارة بشــارع الطــيران، كانت الليلة ممطرة وباردة، واســتخدم جنود الحراســة والأمن كشافات ضوئية لمعرفة من بالسيارة، وعندما تعرفوا على سمحوا لى بالدخول فورا.

وفوجىء حســن بهذا التصرف، وتساءل قائلا: تدخل وزارة الحربية هكذا، دون سؤال أو استفسار!!

واتجهــت إلى مكتب رئيــس الأركان وأنا أتبادل التحية مع جميــع من ألتقى بهم من قوات الأمن والحراسة.

وجلسنا لفترة فى المكتب إلى أن سمح وقت رئيس الأركان باستقبالى.. ومد يده بسرعة إلى التقرير وقرأه.. ثم وقع بالتصديق على النشر. ومن مكتبه اتصلت تليفونيا بالأهرام. وأبلغتهم بالموافقة وأننى فى الطريق إليهم.

وأعادنى حســن إلى الأهرام، فطلبت منه أن ينتظــر ليصحبنى إلى المنزل. ففعل.. وفى الطريق أخبرته أنه ســيذهب إلى بيروت وعليه أن يطلب من المســئول بالســفارة الأمريكية اســتبدال جواز الســفر بجواز آخر بلا أخطاء. وأن يحكى لهم أن السفارة اللبنانية بالقاهرة قد شكت فى أن الجواز الذى معه مزيف.. فقال: إن أحدا فى السفارة لم يقل إنه مزيف. فأخبرته أنهم أرسلوا صورة الجواز للسلطات اللبنانية فى بيروت ليعرفوا الحقيقة.. قبل أن يواجهوك بمثل هذا الاتهام وهم يعلمون وظيفتك وطبيعة مسئولياتك.

وســألنى عبدالناصر: ألم يتوصل هو إلى هذا الاســتنتاج؟ فقلت له: لا أســتطيع تأكيد ذلك.. ولكنه عندما قص علىَّ الأمر قلت له ما استخلصته مما رواه لى..

ثم ســألنى: هل كان يحيطك علما بما يقوم به؟!.. فقلت له، فى بداية الأمر أوضح لى أنه يعمل الآن كجاسوس مزدوج وأنه تلقى فى مصر تدريبا جيدا. فطلبت منه ألا يخبرنى بأى شىء وأن يتوقف أو يخفف من زياراته لى.

وواصلــت قائلا: وبعد مرور عدة أســابيع حضر إلى منزلى وســألنى: ألا تريد أن تلعب معى؟!.. فأجبته: لا أفهم.. فقال: العم سام يخطب ودك.. فقد حكيت لهم فى بيروت.. كيف دخلنا وزارة الحربية، وكيف شققت طريقك داخل الوزارة. ثم استقبال رئيس الأركان لك.. وقد أرسلوا معى شيكا على بياض لأسلمه لك فى حالة موافقتك على أن تلعب معنا.

كما أن معى لك بطاقات سفر مفتوحة إلى بيروت أو لأى بلد تشاء لكى تلتقى بهم. فرفضت الأمر فورا.. وأمرته بألا أراه منذ تلك اللحظة بأى صورة من الصور.

والتقيت بالأستاذ هيكل وأخبرته بما جرى. فشكرنى وقال إننى فعلت الصواب.

وبعد ذلك ذهب حسن للأستاذ هيكل وأخبره بالقصة وبالرفض. وقال له إنهم فى بيروت يتلهفون للاتصال به وبإقناعه بكل الوسائل بالموافقة على العمل معهم.. ويرون أن ذلك سيكون نجاحا كبيرا، فطلب منه الأستاذ هيكل الابتعاد عنى.

وقلت للرئيس قبل أن أتوقف عن الكلام: هذه هى القصة.. فتحدث عبدالناصر قائلا: لقد أبلغنى هيكل بالقصة، فرأيت أن أسمعها منك.. وفى الوقت نفسه طلبت تقريرا من أمين عن حسن.. ويبدو أنه يبلى معهم بلاءً حسنا.

وسألنى عن مرتبى فأخبرته.. فعلق قائلا: تتقاضى مثل هذا المرتب وترفض شيكا على بياض؟!!.. وواصل قائلا: كم صحفيا يمكنه أن يتصرف مثلك؟!!.. ولم أجب لأننى أعلم أنه يعلم حقائق كثيرة عما يجرى فى الوسط الصحفى. وأن الصحافة والصحفيين هى اهتمامه الثانى بعد القوات المسلحة.. وأيا كانت إجابتى فهى لن تضيف له شيئا.

ويقول الرئيس: إن أمين سألنى: ولماذا لا نقنع الأستاذ عبده بالعمل كجاسوس مزدوج؟!.. وقتها سنعمل على تدريبه جيدا.. وسيكون تحت عيوننا باستمرار.. وهو يرى أن ذلك سيكون مفيدا لمصر.

وكانت إجابتى: إن مثل هذه المهمة تتطلب ذكاء وسرعة بديهة وقدرة هائلة على الأداء وإخفاء المشاعر والسيطرة عليها ومكر ودهاء.. بالإضافة إلى سعة الحيلة. وإننى لا أتمتع بمثل هذه الصفات.

وابتسم عبدالناصر وهو يقول: لقد توقعت أن أسمع ذلك منك.. وتوقعت أن رفضك سيسبق تفكيرك.. وواصل قائلا: كما أن أمين يرى أن الأمريكيين سيحاولون الاتصال بك مرة أخرى.. واقترح وضعك تحت المراقبة حماية لك.. وقد أمرته بالابتعاد عنك تماما.

وفى نهاية اللقاء قال وهو يقف ليودعنى بحرارة ومودة: «إننى أشكرك على هذا الموقف وأقدر لك ما فعلت».



الفصل السابع

القذافى حاول خداع عبد الناصر!

قبل أن يصل معمر القذافى إلى القاهرة لأول مرة بعد نجاح الانقلاب العسكرى الذى قاده يوم أول سبتمبر عام ١٩٦٩م لاستكمال بناء الجسور مع جمال عبدالناصر، والتعرف إليه وجها لوجه، والحديث معه والإنصات إليه باعتباره الملهم والزعيم القومى الذى لا منازع له بالرغم من هزيمة يونيه ١٩٦٧م. لم يشأ عبدالناصر أن يلتقى به فور وصوله.. كان فى حاجة إلى المزيد من المعلومات عن هذا النقيب أو الملازم أول.. كان يريد أن يقرأ خريطة أفكاره وتطلعاته. وكانت خبرات عبدالناصر الانقلابية ماثلة دائما وحاضرة فى ذاكرته، فقد سبق أن سار على الدرب نفسه وخبره.. وتعرف على أسراره.. لذا كانت تساوره شكوك تقلقه.. ومخاوف من هذا الجار ومن أصحاب الفضل أو الأيادى البيضاء عليه.

والذى لا شك فيه أن القذافى كان يعتبر أن ما قام به فى ليبيا هو امتداد طبيعى ومنطقى لما جرى فى مصر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

ولم تكن القاهرة بعيدة عما كان يجرى فى ليبيا.. وقد وصلت مجموعة تقارير عن رحلة الملازم أول معمر القذافى إلى لندن قبل الانخراط بشكل جاد فى التحضير للانقلاب على النظام الملكى السنوسى.

وبعد نجاح الانقلاب، أوفد عبدالناصر الأستاذ محمد حسنين هيكل للقاء أصحاب السلطة الجدد فى ليبيا خاصة معمر القذافى. وهناك فى طرابلس، استقبلوا هيكل بحفاوة شديدة.

وعاد هيكل ليكتب لقراء الأهرام تقريرا متميزا وللرئيس عبدالناصر تقريرا مختلفا. حيث تضمن الأسرار التى لا يمكن نشرها وقراءته الشخصية للمجموعة الانقلابية الشابة.

وقد رافق هيكل فى رحلته السريعة إلى ليبيا أستاذ فن التصوير الصحفى الكبير محمد يوسف الذى التقط مئات الصور لمعمر القذافى ولباقى أعضاء المجلس الثورى، وكانت أول صور تنشر على الصفحة الأولى بجريدة الأهرام للقائد الليبى من تصوير محمد يوسف كما أنها كانت أول صورة تنشر له فى العالم، ولذلك قصة، فحتى لحظة وصول هيكل للعاصمة

الليبية، لم تنشـــر لمعمـــر ولا لأى من قادة الثورة صورة صحفيـــة أو تليفزيونية، وكان ذلك اختيارهم لقد أرادوا الابتعاد عن الأضواء ولكن هيكل تمكن من إقناعهم بأهمية نشر صورهم خاصة صورة القائد معمر حتى لايتمكن أحد من سرقة الثورة وقد اقتنعوا ووافقوا على النشر خاصة لصورة معمر.

وقـــرأ عبدالناصـــر التقرير.. واســـتمع إلى انطباعات هيكل وتقييمه لهـــم وللموقف. كما أمضى وقتا طويلا فى تأمل الصور.. حيث كان يفضل التعرف على الشـــخصيات السياسية والقيادية من صورها وكثيرا ما قال، إنه يمكنه التعرف إلى أبعاد الشخصية وقراءة أفكارهم من الصور، وكان هيكل يعرف ذلك وكثيرا مازوده بعشـــرات الملفات من صور الشـــخصيات العالميـــة والعربية لكى يمـــارس منهجه المفضل، ودائما ما كان يطلـــب ملفات صور الملوك والرؤساء والزعماء قبل أن يلتقى بهم، ليعرف من الصور ما يريد وليقرأ من خلالها مستقبل علاقاتهـــم به وبمصـــر... ولأنه رأى تأجيل اللقاء بالقذافى. فقـــد وقع اختياره على الفريق محمد صادق رئيس الأركان، ليكون الشـــخص الذى ســـيوفر له المعلومات التى يريدها عن القذافى.. فقد كان ملف الانقلاب أمامه.. وسبق أن تحدثا بشأنه.. عندما كان صادق يشغل منصب مدير المخابرات الحربية. وقدر رئيس الجمهورية أن خبرات الرجل كملحق حربى متألق فى ألمانيا ولنجاحاته البارزة وقتذاك وكمدير مخابرات كفء. تجعله أنسب من يتولى هذه المهمة.

وكان قـــد تم إبـــلاغ القذافى أن ارتباطـــات عبدالناصر تحول بينه وبين اســـتقباله فور وصولـــه، وأن الرئيس يقـــترح عليه أن يزور الجبهة؛ خاصة ومعارك الاســـتنزاف تتواصل بنجاح.. ليتعرف عن قرب على حقيقة الموقف العسكرى والضغوط التى يشكلها من خلال اللقاء المباشر مع القادة والضباط والجنود. وتم إبلاغه أن الفريق محمد صادق رئيس الأركان سيصحبه خلال هذه الزيارة وطلب عبدالناصر من صادق أن يحاول معرفة الكثير عنه وعن نواياه ومخططاته وأســـلوبه فى التفكير وتأثيره على المجموعة الثورية وموقفهم منه وأسرار الانقلاب والقوى التى يســـتند إليها داخليا وخارجيا وقوة التأثير القبلى، وماذا يتوقع من القاهرة، ويستقبل علاقات ليبيا بدول الجوار وباقى الدول العربية وبالدول الأوربية خاصة إيطاليا وبالقوتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى.

واتجـــه القذافى بصحبة الفريق صـــادق إلى قيادة الجيش الثانى الميدانى بالإسماعيلية..

واستقل أعضاء الوفد الليبى عددا من السيارات بصحبة مجموعة من القادة.. اختارها صادق بعناية؛ لتشاركه فى إنجاز المهمة كما أرادها عبدالناصر.

وبعد انتهاء اللقاء والاستماع لشرح اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى الميدانى كانت هناك دعوة لتناول الشاى.. وأثناء ذلك طاف الفريق مع معمر وبدأ فى تقديم القادة له.. وعندما وصل إلى المكان الذى أقف فيه مع عدد من مساعدى رئيس الأركان قال له: سأقدم لك الصحفى والمدنى الوحيد الذى يشارك فى عمليات الكوماندوز خلف خطوط العدو. وتساءل القذافى: كيف يشارك وهو مدنى؟!.. فقال له صادق: إنها حكاية طويلة يمكنك أن تسمعها منه. وقال القائد الليبى موجهًا حديثه إلى: سنلتقى بإذن الله فى المساء.

وبعد التأكد من إجراءات تأمين الوصول إلى المواقع الأمامية تمت الزيارة بعدد محدود حتى لا تتكرر مأساة الشهيد عبدالمنعم رياض. واستمع القذافى إلى قصة استشهاده، وعرف بشكل عملى صعوبة اقتحام القناة كمانع مائى محصن ومدافع عنه جيدا بخط دفاعى شديد التحصين..

وتطرق حديثه لاحتمالات الحرب.. فأكد له صادق أن مصر ستحارب لتحرير أرضها المحتلة.. ولكنها فى حاجة أولا لاستكمال احتياجاتها من الأسلحة والذخائر والمعدات والأجهزة. وسأل القذافى ببراءة عن العوائق التى تحول دون ذلك. وباختصار أوضح له رئيس الأركان أن مماطلة الاتحاد السوفييتى فى الوفاء بالتعاقدات وعدم القدرة على شراء السلاح من مصادر أخرى سواء لنقص التمويل أو لرفض بعض المصادر بيع السلاح لمصر.

وبغضب صاحبه انفعال. قال القذافى: ولماذا لا تدفع الدول العربية الغنية ثمن هذا السلاح؟!.. واستطرد قائلا: إن ليبيا ستقوم بدورها وستطالب باقى الدول العربية بتحمل التزاماتها.

وخلال الاجتماع العسكرى سأل واستفسر عن عمليات التخطيط والاستعداد للحرب.. فرد عليه القادة مؤكدين أن الحرب قادمة.. وأن معارك الاستنزاف مرحلة ضرورية فى اطار الاستعداد للحرب.. وبجدية كاملة اقترح القائد الليبى نقل ثلاث فرق من المدرعات والمشاة الميكانيكية إلى الجبهة السورية وبدء حرب التحرير من هناك. وقال: إذا كانت القناة كمانع مائى تحول بين مصر وبدء الحرب قبل الاستعداد لذلك، فإن الجبهة السورية لا يوجد بها لنفس المانع المائى. ويمكن للقوات الهجوم على إسرائيل من هناك وتحقيق

الانتصار وتحرير الأراضى المحتلة.. ووجد القذافى استحسانا وتشجيعا وتأييدا من باقى أعضاء الوفد الليبى.

وأمسك الفريق صادق بأول الخيط وتساءل: وكيف سيجرى نقل هذه القوات إلى سوريا؟!.. وهل سيتم ذلك بحرا أم جوا؟!.. ثم أجاب: إن مصر لا تملك الأسطول الجوى القادر على نقل هذه القوات جوا.. كما أنها لا تملك سفن نقل بحرية كافية لمثل هذه العملية.

وكان رئيس الأركان جادا وهو يشرح هذه العقبات للقذافى ولأعضاء الوفد المرافق له.. وفى الوقت نفسه كان واضحا وبسيطا.. وكان هدفه إقناع الجميع حتى لا يعودوا لطرح مثل هذه الاقتراحات.

نعم هم عسكريون وحكام، ولكنهم فى حاجة إلى وقت لدراسة الواقع بكل أبعاده.. وشعرت فى نهاية الاجتماع أن الوفد الليبى لم يصل إلى مرحلة الاقتناع. لقد سمعوا ولم يكن لديهم المعلومات أو الحقائق العسكرية التى يردون بها على ما سمعوه.. وبالنسبة لهم ظلوا على اقتناع بأن الاقتراح أو الخطة التى طرحها معمر خطة عبقرية. ورأوا فيها سبيلا عمليا لتحرير الأراضى العربية المحتلة وإلحاق الهزيمة بالقوات الإسرائيلية.

وفى المساء أرسل القذافى فى طلبى.. وباسما مندهشا سألنى عما إذا كنت أشارك حقا فى عمليات الكوماندوز خلف خطوط العدو؟!.. فأكدت له الأمر.

وطلب أن يسمع حكاية المدنى الفدائى.. فحكيتها له.. ثم سأل عن العمليات التى نقوم بها. فبدأت بالحديث عن إبراهيم الرفاعى قائد المجموعة، وأنه يعد القائد النموذج والقدوة لكل مقاتلى المجموعة من الضباط والصف والجنود.

واتصل تليفونيا بالفريق صادق وطلب لقاء إبراهيم الرفاعى الذى سمع عنه منى الآن.. فاستجاب الرجل وأخبره أنه سيكلف مدير مكتبه بالاتصال بالرفاعى ويطلب منه الحضور إلى الإسماعيلية.

والتفت القذافى يسألنى: متى أتوقع وصول قائد قوات الكوماندوز؟!.. فقلت: لن يستغرق الأمر ٩٠ دقيقة من لحظة العثور عليه تليفونيا. فقال: هل هناك فرصة أن نراه الليلة؟!.. فأجبته: لو أنك تحب السهر فسأترك له خبرا لكى يأتى إلى هنا فور وصوله.

وبدأ القذافى يسألنى عن القوات الموجودة بالجبهة؟!.. فقلت له كما رأيت.. بعض

مواقــع الجيــش الثانى.. هناك جيش ثالث فــى القطاع الجنوبى مــن الجبهة.. والقوات الموجــودة كافية جدا لخوض معركة دفاعيــة ناجحة ضد قوات العدو.. وأن هناك عمليات تدريب مســتمرة لرفع مســتوى الكفاءة القتالية.. وهناك فرق دفــاع جوى وقوات جوية.. يجرى دعمها باســتمرار ســواء بإنشــاء قواعد دفاع جوى جديدة وقواعد جوية إضافية فى العمــق. ولكــن العقبات كثيرة وفى مقدمتهــا تأخر وصول الأســلحة والمعدات من الاتحاد الســوفييتى، وعدم توفر التمويل الكافى الذى يســمح بشــراء أسلحة من خارج دول الكتلة الشرقية.

وســألنى مباشــرة عن الرئيس عبدالناصر؟!.. وعن آخر مرة رأيته فيها؟!.. فقلت له: إننــى أراه على فترات متباعدة.. والأمر يتوقف على وقته وإرادته. فســألنى عن صحته.. فقلــت إنــه بصحة جيــدة بالرغم مما يعانيه مــن متاعب صحية. فحــاول أن يعرف أكثر فأوضحت له أنه سيلتقى بالرئيس بعد ساعات وسيدرك بنفسه أنه فى حالة صحية جيدة. وأراد أن يعرف المزيد.. فانتحى بى فى صالون آخر.. واستفسر عما إذا كان الرئيس يرحب بالحديث حول كل القضايا؟!.. وقلت له: إن الرئيس اعتبر نجاح الثورة فى ليبيا نجاحا شــخصيا له. وقد ارتفعت معنوياته بشــكل ملحوظ بعدها.. وبعدها تســلم تقرير الأســتاذ هيــكل.. وبــدا فى الصور التى التقطت له أكثر شــبابا. وإننى أتوقع أن يصبح الرئيس فى حالة أفضل صحيا ومعنويا بمجرد أن يلتقى بكم ويســمع منكم. وثق أنه ســيرحب بطرح كل الموضوعــات التى تريد أن تطرحها. وســيكون واضحــا وصريحا جدا وهو يتحدث عن العلاقات بين بلدينا. وعن تصوراته المستقبلية لهذه العلاقات.

فقال معمر: إننا على استعداد للتضحية بأنفسنا من أجل مصر والقضايا العربية. وسيجد منا كل ما يسعده قولا وفعلا.

ودق جــرس التليفون. وقال من تلقى المكالمة إن مدير مكتب الفريق صادق يســأل: هل يحضر إبراهيم الرفاعى الآن.. أم ينتظر للغد؟!.. فقال القذافى: أخبره يا أخى أن يتفضل الآن.

والتقى القذافى وأعضاء الوفد بقائد الكوماندوز المصرى وســألوه كثيرا وسمعوا منه. وكان إعجابهم وتقديرهم له كبيرا. كما نجح الرفاعى فى ترك انطباع جيد لديهم جميعا. وخلال اللقاء عرضوا عليه تدريب مجموعة من الضباط الليبيين ســواء فى مصر أو فى ليبيا.. فقال إنه مستعد لذلك جدا. ويرحب به.. ولكن بعد عرض الأمر على القيادات المسئولة.

وانتهــت الزيارة التى أعتقد أنها كانت مفيدة جــدا للوفد الليبى. فقد وقفوا على الحد الأمامى للقوات غرب القناة، وشــاهدوا العلم الإســرائيلى مرفوعا على المواقع الإســرائيلية الحصينة شرق القناة.. ورصدوا بعضا من تحركات القوات الإسرائيلية شرقا. وبدأوا يتعرفون بشــكل مباشــر إلى معنى الاحتلال ومرارته فى حلوق المصريين الرابضين فى مواقعهم غرب القناة.

وعادوا إلى القاهرة وهم على اقتناع بأن زيارة الجبهة كانت الإنجاز المهم لهم قبل لقائهم بالرئيس عبدالناصر الذى اتخذوا منه ملهما ومرشدا وقدوة.

وقــدم الفريق صادق التقرير المطلــوب للرئيس عبدالناصر.. وحكــى له ما جرى خلال الزيارة بما فى ذلك الاقتراح الخاص بنقل ثلاث فرق مصرية مدرعة ومشــاة ميكانيكية إلى الجبهة السورية وبدء حرب التحرير من هناك.

بعدها التقى الرئيس عبدالناصر بالقذافى. وكان لقاءً رائعا رفع معنويات الرئيس المصرى؛ خاصة وهو يسمع أحاديث التقدير والإعجاب من كل أعضاء الوفد.

وطلــب الوفــد الليبى من مصر دعمه دعمــا كاملا بالخبرات الفنيــة والأمنية والإدارية والقانونية.. واستجابت مصر.

وانتهت الزيارة.. ولكن ظل الترقب قائما.. وبعد أسابيع كنت بمكتب الرئيس، فسألنى عن معمر، فأجبت قائلا، إنه شاب أخرق وخطير فتساءل، بتقول «أخرق وخطير؟» فقلت له، يافخامة الرئيس إن قائد الثورة الليبية ضابط برتبة نقيب أو ملازم أول، وقد طرح على العسكريين المصريين وعلى رأسهم رئيس الأركان المصرى اقتراحا بنقل ثلاث فرق مصرية إلى الجبهة الســورية وبدء حرب التحرير من هناك، وقد أوضح له الفريق محمد صادق حقائق الموقف العسكرى، ورد على هذا الاقتراح من وجهة النظر العسكرية، وأبرز حقيقة العقبات التى تحول دون وضعه موضع التنفيذ ولم يترك شــيئا يتعلق بهذه القضية إلا وتحدث عنه باســتفاضة، وكنت أتوقــع أن يقتنع معمر القذافى واللذين معــه بما طرحه رئيس الأركان المصرى، وهو بالنســبة لهم الأقدم رتبة والأكثر علما وخبرة ودراية، وإن يتخلوا عن الفكرة تمامــا، ولكننى فوجئت وأنا أجلس معهم بإصرارهم على الفكرة، ويرون أنها خطة عبقرية ســتؤدى إلى الإســراع بالمعركة دون انتظار للظروف والامكانات التى تسمح باقتحام القناة، وستقود إلى النصر وإلحاق الهزيمة بالقوات الإسرائيلية وتحرير الأراضى المحتلة، وتوقعت

المزيد من هذه الأفكار العبقرية، وسكت الرئيس ولم يرد، فاستأذنت فى الانصراف وأنا أشعر بالندم لأننى تسرعت بالإجابة، ووصفت القذافى بهذا الوصف، وللتخفيف من وطأة الإحساس بالندم، قلت لنفسى، لقد سألنى، فأجبته بصدق ووفقا لقراءتى لشخصيته ولمواقفه ولأفعاله وردود أفعاله من خلال الاقتراب منه والحوار معه.

بعدها استغل القذافى ثقة عبدالناصر فيه؛ خاصة بعد أن أعلن أنه يرى فيه شبابه. وطرح عليه فى زيارته التالية قضية جديدة بمنطق سهل وواضح وواقعى. حيث قال لعبدالناصر: إن الشواطئ الليبية على البحر المتوسط طويلة. وتمتد لأكثر من ألفى كيلو متر.. والإمكانيات الليبية الحالية لا يمكنها أن توفر الحماية لها. وفى ظل هذا الوضع فإن أمن ليبيا فى خطر، ويمكن للآخرين اختراق هذه الشواطئ والقيام بأى أعمال عدائية. وأشار إلى وجود قوى كثيرة معادية تنتشر أساطيلها فى البحر المتوسط. وأكد أن هذه القوات تملك قدرات هائلة وإن لم تخطط لعمليات عدائية، فإنها تستطيع أن تمارس الضغوط على ليبيا.

وقال: إنه حتى ولو سلح الشعب الليبى وطلب منه حراسة وحماية هذه الشواطئ، فإن النتيجة لن تكون مطمئنة.

وبعد هذه المقدمة وصل إلى الهدف الذى جاء من أجله، حيث قال: لقد جئت إليك لأستعين بك لحماية الثورة وليبيا وأهلها من غدر الغادرين.

فسأله عبدالناصر.. وكيف أفعل ذلك؟!

فأجابه: بالموافقة على إرسال قطع من الأسطول البحرى المصرى إلى المياه الإقليمية الليبية لكى تقوم بحماية الشواطئ الليبية.. وليبيا على استعداد لتحمل كافة الأعباء المالية..

ورد عليه عبدالناصر قائلا: إن القوات المسلحة المصرية ليست للإيجار.. كما أنها ليست جيشا من المرتزقة. ولكن وبما أن هذه المسئولية واجب قومى، فإن مصر ستتحمله عن طيب خاطر وبلا مقابل..وبعد هذه الموافقة التى أتت على هواه ومحققة لهدفه. قال: إننى أرجو أن تكون الغواصات من بين قطع هذه القوة..

فأكد له عبدالناصر إنه سيأمر قائد القوات البحرية بذلك، وسيطلب من وزير الحربية متابعة تنفيذ هذا الأمر بنفسه.

وهنا قال معمر: إذا ما وصلت هذه القوة البحرية إلى ليبيا.. فإننى أتطلع إلى أن يتلقى قائدها أوامره منى؛ حيث سيكون فى المياه الإقليمية الليبية.

.. وبالرغم من الدهشة والشك.. وافق عبدالناصر على أن تكون هذه القوة تحت قيادته.

وطار العقيد فرحا. ولم يعرف كيف يوجه الشــكر لمعبوده عبدالناصر على موقفه القومى العروبى.. واستجابته لمطلب توفير الحماية للشواطئ الليبية.

ومــا أن خــرج القذافى حتى أصــدر عبدالناصر أوامــره إلى وزير الحربيــة لتنفيذ هذه المطالب.. بعدها تحدث مباشــرة مع قائد القوات البحرية، وطلب منه أن تأتمر هذه القوة بأوامر القذافى ولكن بشــرط ألا تنفذ أى أمر يصدر لها إلا بعد إبلاغك شــخصيا بذلك. وإن كان بها ما يثير شكوكك أو شكوك قائدها فيجب أن يتم إبلاغى بذلك فورا.

وكانت شكوك عبدالناصر فى محلها. فبعد أسابيع تم إبلاغه بأن القذافى طلب من قائد القوة البحرية المصرية إرسال غواصة إلى منطقة قريبة من الشاطئ الإسرائيلى لإغراق باخرة أمريكية سياحية ضخمة أثناء توجهها إلى الموانئ الإسرائيلية.. وكانت الباخرة تحمل على ظهرها عددا كبيرا من اليهود والإسرائيليين بجانب مجموعة من اليهود الأمريكيين الأثرياء وأعضاء من الســلطتين التشــريعية والتنفيذية. فأصدر أوامره بعودة هذه القوة البحرية فورا بعد أن تبين أن الزعيم الليبى قد خدعه.



الباب الثانى

أنا.. والسادات

الفصل الأول

السادات ..ومانشيت «الأمم المتحدة تركع»

فى هذه الأيام الذهبية كان مصطفى أمين صاحب الدار يعقد اجتماعا أسبوعيا صباح كل يوم جمعة بقاعة الاجتماعات بالدور التاسـع حيث يوجد مكتبه ومكتب توأمه على أمين. وفى هذا الاجتماع الذى يستمر لأكثر من سبع أو ثمانى ساعات تجرى مناقشة كل القضايا المطروحة.. الكل يتحدث ويشارك فى المناقشات. ومصطفى أمين يقود الحوار ويشجع عليه ويمسك الخيط دائما ليحكى ويرشد ويعلم ويرعى ويصقل.

وخلال الاجتماع تتناثر الأسرار.

ولأنه صاحب «الأخبار» هو وتوأمه ؛ فإنه يسعى لزيادة التوزيع ولا تتحقق زيادة التوزيع إلا بتقديـم مادة صحفية تجذب القراء وتربطهم بالجريدة.. وهذه المادة لا يمكن أن يقدمها إلا صحفيون متميزون وكتاب لهم باع فى الكتابة ولهم من النجومية ما يؤهلهم لإقبال القراء على قراءتهم.

وقد عملت الأخبار كمدرسة لتفريخ الموهوبين وفتح الأبواب أمامهم.

وكانت سـبل صناعة النجوم كثيرة ومن بينها السفر إلى الخارج سواء للعمل أو للدراسة أو التدريب. ولقد أوفدت الأخبار الأستاذ محمد حسنين هيكل إلى اليابان وكوريا وفلسطين والولايات المتحدة حيث تابع معارك ١٩٤٨م فى فلسـطين واليابان بعد استسلامها وكوريا أثنـاء انفجار الموقف بـين الكوريتين. كما أتاحت لأنيس منصور السـفر حول العالم وجاء كتابـه حـول العالم فى ٢٠٠ يـوم، ليكون فى مقدمة الكتب الأكثر مبيعـا باللغة العربية. وبجانـب هيكل وأنيس هناك المئات من الزملاء ولكن قبـل الانطلاق هناك عمليات انتقاء للمواهـب وكان اجتماع الجمعة مجالا لاكتشـاف البعض.. كما كانت ولائم العشـاء التى يقيمها مصطفى أمين مساء أيام الأحد والأربعاء إذا ما كانت ظروفه تسمح بذلك ميدانا آخر وقد دأب على دعوة اثنين من الصحفيين الجدد كل مرة.

خـلال هـذه الدعوات يلتقى الزميـلان بنجوم المجتمع فى السياسـة والصحافة والفن

والأدب.. وتتقارب المســافات وفــى مثل هذا المناخ المتميز تجرى إزاحة الســتار عن كثير من الأســرار وكان المجال الثانى لمعرفة المزيد منها خلال سهرات كامل الشناوى سواء فى كافيتريا «نايت أند داى» بفندق سميراميس أو بكافيتريا «ابيس» بفندق هيلتون.

وكنت قد بدأت طريقى إلى هذه السهرات بصحبة صديق العمر إسماعيل النقيب.. ولأن هذه السهرات كانت تستمر حتى ساعات الصباح الأولى كان الوقت المتاح لى للنوم محدودا جدا. فقد كان مطلوبا أن أحضر اجتماع قســم الأخبار بجريدة الأخبار فى الســاعة التاسعة صباحا.

وبعــد مــا يقرب من عامين تركت هذه الحياة الليليــة الجميلة والمخملية وهذه الصحبة التى لا نظير لها فى ظُرفها وثقافتها وكرمها وإنســانيتها. كنت أعلم أننى سأخســر فرصة للاقتراب من الأسرار التى تدور فى الشارع الخلفى للحكم. ولكنى كنت فى شوق للعودة إلى مقعد الدراسة بحثا عن معارف جديدة أكثر عمقا وشمولا وتخصصا.

أما الميدان الثالث للمعلومات والأســرار وهو الأهم فــكان من خلال صداقاتى وعلاقاتى التى توطدت بعدد كبير من قادة القوات المسلحة بحكم مسئوليتى عن القطاع العسكرى.

وكان من بين المعلومات التى كشــفت عنها الأحــداث المرتبطة بليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م والتــى جــرى ترديدها وتقييم أبطالها أكثر من مرة ما فعله جمــال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وأنور السادات.

فقد ركب ناصر وعامر ســيارة ناصر الأوستن السوداء وهما يرتديان زيهما المدنى.. وظلا يجوبان الشوارع حتى بدأت القوات المشاركة فى الانقلاب تتحرك وتصل إلى مصر الجديدة.. وهناك ألقت قوات كتيبة المقدم يوسف صديق القبض عليهما.. وتوالت الأحداث.

أما أنور الســادات، فقد اصطحب زوجته الى ســينما صيفى بشــارع المنيل.. وبداخل السينما تشاجر مع أحد المتفرجين وتوجه معه إلى نقطة المنيل لتسجيل الواقعة فى محضر، وكان تقييم جميع من شاركوا فى الحديث حول هذه القضية فى كل دوائر المعلومات التى اقتربــت منهــا، أن هؤلاء الثلاثة هم الأكثر ذكاء، خاصة أنور الســادات؛ ففيما لو فشــل الانقلاب، فلديهم جميعا أعذار تثبت عدم انغماسهم فيه.

وكانت هناك معلومات يجرى تداولها همسا وكلها تدور حول أنور السادات وأسلوبه فى

التعامل مع الرئيس عبدالناصر فقد قرأ السادات شخصية الرجل.. وتأكد أنه يحب الانفراد بالأمر ولا يقبل شريكا تحت أى مسمى. فاختار الابتعاد والتظاهر بعدم الرغبة فى السلطة. ولاستكمال هذه الصورة كان يتردد دائما على النادى الأهلى ليلتقى بمجموعة من الأصدقاء فى مقدمتهم صديقه الدكتور رشاد رشدى.

وتعلم من رشاد رشدى وضع مناديل حريرية فى أكمام السترات التى يرتديها، وبما يوحى أنه غارق فى الحياة الناعمة.. فمثل هذه المعلومات والتى فتحت الباب لكى يستنتج البعض من الأصدقاء أن الرجل يعمل بكل همة ليظل بجوار عبدالناصر على القمة راضيا بالظل ومبتعدا عن بؤرة الضوء إلى أن تحين اللحظة التى يرث فيها موقعه. كما أنه عمل بلا كلل للوقيعة بين عبدالناصر ومعظم أعضاء المجموعة اليوليوية بما فيهم عبدالحكيم عامر. عملاً بالقاعدة التى تؤكد أن الثورات تأكل بنيها.

وقد نجح فى ذلك بامتياز.. وأضاف إلى ذلك كرم الضيافة.. وكثيرا ما كان يدعو الرئيس عبدالناصر لتناول الطعام فى بيته بحضور زوجته وابنه وبناته.. وبذل جهودا طيبة هو وزوجته من أجل أن يقضى الرئيس وقتا طيبا دائما.

ومثل هذه الأوقات وافقت هوى الضيف الكبير الذى وجد فى زوجة السادات الصحبة الجميلة. فهى حكاءة جيدة.. وتجيد الحديث دائما.. وتعرف كيف تختار الموضوعات وتنتقى الكلمات المناسبة والأهم تعرف كيف تتكلم أمام عبدالناصر وكيف تستحوذ على أذنه واهتمامه.

هذه السيدة البارعة الجميلة، تمكنت بحسن الضيافة والحديث أن تجعل من بيتها واحة بالنسبة لعبدالناصر المرهق بالعمل وبالمسئوليات وبالأزمات والصراعات التى لا تنتهى، فى بيتها كان ينسى كل ذلك ويسعد بقضاء وقت طيب ولأن بعض أعضاء المجموعة كانوا ضيوفا فى بعض الأحيان مع عبدالناصر فقد أتيحت لهم الفرصة ليدركوا مدى إحساس عبدالناصر بالراحة والاستمتاع بالوقت.. وبصورة أخرى كان يرتاح من القضايا السياسية وضغوط الصراعات والأزمات على شاطئها وعلى أمواج صوتها وأحاديثها وكان آخر من تحدثت معه حول هذا الأمر عبداللطيف بغدادى العضو البارز بالمجموعة اليوليوية أثناء وجوده بمستشفى بمدينة فيسبادن الألمانية فى منتصف تسعينيات القرن الماضى حينما كنت

أزوره. وفى مرات كثيرة كنت بصحبة العميد بحرى شـيرين حسن الملحق الحربى المصرى بألمانيا والدكتور أحمد السـجاعى أحد أشـهر جراحى التجميل فى العالم وعميد الجالية المصرية بألمانيا. كان الحوار يدور دائما حول ٢٣ يوليو ومصر.. وعندما يتطرق الحديث عن أنور السـادات وتردد جمال عبدالناصر على منزله.. كان يشـيد بالسيدة جيهان وقدراتها وبراعتهـا.. ويؤكـد أن عبدالناصـر كان يحب أن يقضى الكثير مـن الوقت هناك وقال إن عبدالناصر كان يصف الضيافة بقوله إنها تفعل كل شـىء بشـياكة ويردد دائما «إن قعدتها حلوة».

وقد أسـهمت بصورة فعالة فى إعادة السادات إلى موقعه كنائب لرئيس الجمهورية بعد أن أمره عبدالناصر أن يلزم منزله. وتبدأ القصة عندما نال قصر يطل على شـارع الهرم فى مواجهة البوابة الرئيسـية لأكاديمية الفنون إعجابه وكان اللواء المهندس الموجى قد اشتراه مـن ملاكـه وبدأ فى إعداده للانتقـال إليه.. ولأن عبد الناصر كان فى الاتحاد السـوفيتى للعلاج فى مصحة «تسـخا لطويو»، فقد اسـتغل السادات الظروف وأصدر قرارا للاستحواذ على القصر.

ولم يهدأ المالك.. واشـتكى لكل الأطراف حتى وصلت شـكواه إلى الرئيس فى الاتحاد السوفيتى. وتقررت عودة الرئيس وبعد أن هبط سلم الطائرة فى مطار القاهرة وجد السادات فى مقدمة المسـتقبلين باعتباره نائبا لرئيس الجمهورية فقال له بصوت مرتفع: «أنت باين عليـك عيان قوى. روح اسـتريح فى ميت أبوالكوم». وأمر بإعـادة القصر إلى صاحبه ونفذ السادات أمر الإبعاد فى صمت ودون مناقشة وكل ما قاله «حاضر يا فندم». وبعد فترة تلقى الرئيس اتصالا تليفونيا من بيت السادات لدعوته لتناول طعام الغداء أثناء توجهه بالسيارة إلى الإسـكندرية ولبى عبدالناصر الدعوة وقبل أن يغادر قال للسادات «تقدر ترجع مكتبك» وكان أول واجب رسمى له اسـتقبال «لى كوان يو» رئيس سـنغافورة وبهذا أكد للجميع أنه يمارس مسئولياته كنائب لرئيس الجمهورية.

وبعد أسابيع رحل عبدالناصر عن عالمنا.. ومن قلب الصراع على السلطة وقتذاك انتصر معسكر الشرعية؛ أى أن يحل النائب محل الرئيس وأصبح السادات رئيسا للجمهورية وفقا للقواعد التى نص عليها الدستور.

وأثناء تحمله لمسـئولياته كرئيس لمجلس الأمة تلقيت دعوة من الدكتور رشـاد رشـدى لتناول قدح من الشـاى معه بالنادى الأهلى. وأخبرنى أن السادات سيكون موجودا. وكان يسـيرا أن أستنتج أن السـادات هو صاحب الدعوة.. وبدأت أستعيد ما سمعته وعرفته عن الرجل وما يتمتع به من ذكاء ومكر بالإضافة إلى دوره فى الحركة الوطنية المصرية واشتراكه فـى عمليـة اغتيال أمين عثمان وزيـر المالية المصرى عقابا له علـى وصفه معاهدة ١٩٣٦م بأنهـا كالزواج الكاثوليكى بـين مصر وبريطانيا أى علاقة لاتعرف الانفصال وكان التصريح صدمـة للقوى الوطنية التى ترفض الاحتلال وتطالـب بالجلاء. وانخراط الرجل فى العمل السرى لسنوات طويلة بجانب نشاطه فى التعاون مع شبكة «ابلر» الألمانية المعروفة بقضية «العوامـة» يضاعف من حالة التحسـب فى التعامل معـه. وكان هناك موقفان أو واقعتان: فقد كنت موجودا خلف عبدالناصر والمشير عامر فى تلك المناورة التى تمت بمدينة العريش وعرف أننى سمعت ما قاله عامر. والثانية: عندما رآنى ضيفا على المشـير عامر باستراحة الهرم.. وعندما وصل السـادات واشـترك فى الحوار مع كل من عباس رضوان وصلاح نصر رأيت أن الوقت قد حان للمغادرة.

لقد طلب المشـير حضورى ليسـر إلى بخبر طلب أن أنشره دون أن أنسبه إليه ودون أن أخبر أحدا أنه مصدره. فوعدته. ونشـرت الخبر فعلا وسـألنى الدكتور رشـاد رشدى عن زياراتى لليمن وانطباعاتى.. فبدأت أحكى وأنا أضع فى اعتبارى أن السادات كان له دور رئيسى فى الأحداث.

وبعد فترة تدخل السادات لأول مرة فى الحديث مستغربا ما قلته من إننى شربت مع غيرى الماء بالدود بعيدا عن صنعاء العاصمة.. وأن البسكويت الذى يصرف للقوات مسكون بالسوس.

وطلب أن يسمع المزيد عن تجربتى وبصورة تبدو وكأنها فى سياق الحديث سألنى عما إذا كنت قد أخبرت عبدالحكيم عامر بما رأيت.. فأجبته بأنه لم يسألنى أبدا عن اليمن.. وبالتالى لم تكن هناك فرصة لكى أحكى له.. ثم إننى أعرف تماما أن أجـهزة جمع المعلومات تطلعه أولا بأول على حقائق الأوضاع هناك.

وبدا أن إجابتى لم تكن على هواه.. فانتقل بالحديث عن الصحافة.. فسـألته باعتباره مسـئولا كبيرا سـبق أن مارس المهنة وارتبط بعلاقات وثيقة بعدد كبير من كبار الصحفيين

والكتاب: كيف ينظر للقيادات التى تحملت المسئولية فى دور الصحف بعد التأميم؟

فسألنى من أقصد بالتحديد؟ فأجبته بأننى سأحكى واقعة واحدة عاصرتها مع جيلى وهو الجيل الأحدث بالصحافة من باقى الأجيال. وقلت له: بعد الانتهاء من كتابة المانشيت والعناوين الرئيسية كان على الأستاذ أحمد لطفى حسونة نائب رئيس التحرير المسئول أن يتوجه لمكتب كمال رفعت رئيس مجلس الإدارة.. وكالمعتاد لم يكن الرجل موجودا لأنه كان يتحمل مسئولية وزير العمل فى الوقت نفسه بجانب مسئولياته الأخرى ولم يكن مدير مكتبه الرائد على إسماعيل الإمبابى موجودا أيضا؛ لأنه حريص على أن يكون بصحبة الوزير.. وكان الموجود هو «الصول» أحمد زكى.

كانت كلمات المانشيت «الأمم المتحدة تركع» فقرأ الصول المانشيت وسأل الأستاذ حسونة: يعنى إيه تركع؟

ولم يفهم نائب رئيس التحرير السؤال وبالتالى لم يعرف ماذا يقول؟

وسأل نفسه: ألا يعرف الصول معنى كلمة تركع؟ أم أنه لا يعرف ما هى الأمم المتحدة؟ فأعاد الرجل الجالس على مقعد المسئولية الصول أحمد زكى السؤال. يعنى إيه تركع يا أستاذ أحمد؟

فقال له: أرجو من سيادتك الاتصال بكمال بك رفعت وإبلاغه بالمانشيت وسؤاله عما إذا كان سيوافق أم سيطلب اختيار مانشيت آخر؟.

فقال له الصول: يا أستاذ أحمد أنا الرجل المسئول هنا بمكتب رئيس مجلس الإدارة.. وأنا المفوض بالموافقة على كل ما ينشر بالجريدة.. ثم واصل قائلا «أنا عايز أفهم يعنى إيه تركع»؟

فلم يجد الأستاذ حسونة مفرا من أن يقوم بالركوع بلا صلاة وقال له. الركوع هكذا يا أحمد بك.

فضحك أحمد بك كثيرا ووصل إلى حد القهقهة.. وطلب منه أن يشاهد الركوع مرة أخرى وكرر الأستاذ حسونة الركوع فقال له الصول هايل «أنا دلوقتى فهمت».

فسأله الأستاذ حسونة من بين الدموع التى سالت من عينيه: يعنى سيادتك موافق على المانشيت؟ فقال له نعم. فطلب منه التوقيع بالموافقة فوقع وعاد الرجل إلينا فى صالة التحرير وكل مظاهر التعاسة بادية عليه. فسألناه. فحكى لنا ماجرى.

وأصيب الحاضرون بالوجوم.. ولم أستطع أن أمنع دموعى وفشلت فى السيطرة على الانفعال الذى اعترانى. وسألنى السادات بجدية هل هذه القصة حقيقية وليست فيها مبالغات؟ فأكدت له إنها حقيقية. وقلت سيادتك تستطيع أن تستوثق منها من مصادرك. فقال: سأطلع الرئيس عبدالناصر وأعتقد أنه لا يمكن أن يرضى أو يقبل بما تعرض له الأستاذ حسونة. ثم سألنى عما إذا كنت على استعداد لأن أحكيها مرة أخرى أمام سيادة الرئيس؟ فقلت بتلقائية إننى على استعداد لأن أحكيها أمام محكمة العدل الدولية لو طلب منى ذلك.



الفصل الثانى

السادات يجتاز جسرا من الانقلابات

انفجر الصراع على السلطة بصورة غير مسبوقة فى نفس يوم نجاح المجموعة اليوليوية فى الوثوب إلى قمة السلطة صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

وبدأت المرحلة الأولى. بالصراع بين أفراد المجموعة، وسقط الرئيس محمد نجيب أول رئيس جمهورية فى مصر خلال الجولات الأولى، وتم تحديد إقامته فى منطقة المرج بالقرب من القاهرة.. وتوالى سقوط أعضاء المجموعة واحدا وراء الآخر عبر سلسلة من المؤامرات وعمليات الغدر.. واختفت أسماء منها يوسف صديق وكمال الدين حسين وجمال سالم وصلاح سالم وعبداللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وخالد محيى الدين. وبعد السنوات التى تمكن فيها عبدالناصر من بناء شعبيته وزعامته لم يبق بجواره سوى عبدالحكيم عامر وأنور السادات وحسين الشافعى.

وهذه المجموعة المحدودة هى التى تمكنت من تجاوز الصراعات والمحاولات الانقلابية التى كانت تتم بمعدل انقلاب كل ستة أشهر فى المتوسط وضمت قائمة الانقلابيين أسماء كثيرة منها الدمنهورى ورشاد مهنا ومحسن عبدالخالق «انقلاب المدفعية» وخالد محيى الدين ومجموعة كبيرة من قادة وضباط المدرعات «محاولة انقلاب المدرعات». وفى اجتماع عبدالناصر معهم فى «الميس الأخضر» اضطر للمناورة بأن يعلن تخليه عن السلطة لمحمد نجيب وخالد محيى الدين. وبعد مغادرة الاجتماع بدأت عملية التراجع عن قرارات «الميس الأخضر».

ومن بين الانقلابات التى لم تضم أيا من أعضاء المجموعة اليوليوية محاولة عبدالقادر عيد ضابط الصاعقة الذى كان يعمل بمكتب عبدالحكيم عامر. وعرف عبدالناصر مرارة نجاح الانقلاب العسكرى بعدما نجح الانقلاب العسكرى السورى الذى قضى على الوحدة المصرية السورية فى سبتمبر ١٩٦١م وكنتيجة للانفصال أصيب عبد الناصر بمرض السكر البرونزى.

ولكن الشرخ الأكبر على طريق الصراع على السلطة. جاء بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م.

فعندما أقدم عبدالناصر على إبعاد المشــير عامر، بدأ التخطيط لانقلاب عســكرى، وتحرك عبدالناصر بسرعة وقضى على المحاولة قبل أن تتم وانتهى الأمر بنحر عبدالحكيم عامر.

وهكذا لم يبق بجوار عبدالناصر سوى حسين الشافعى وأنور السادات.

واســتعان الرئيس بمجموعة من القادة منهم على صبرى وشــعراوى جمعة وســعد زايد وسامى شرف ليحلوا محل من تم إبعادهم من مقاعد السلطة والنفوذ والأضواء.

هذه المجموعة ازدادت نفوذا وقوة وتعاظم تأثيرها بعد أن اســتأثرت بالمراكز الرئيســية سواء بجوار الرئيس أو داخل الاتحاد الاشتراكى أو بمجلس الأمة أو بالوزارة وأجهزة الأمن.

وبعــد تعرض عبدالناصر عقب نكبة ١٩٦٧م لذبحة صدرية قرر إســناد ســلطته للجنة ضمت على صبرى ومحمد فوزى وسامى شرف وشعراوى جمعة بالإضافة إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وقتذاك.

أما الحديث باســم مصر فى المحافل الدولية فيما يتعلق بأراضيها المحتلة فى ســيناء ومحــاولات التوصل لحل يعيد لمصر ســيادتها على أراضيها مقابــل تنازلات تضمن الأمن لإسرائيل فقد منحه للاتحاد السوفيتى عبر تفويض غير مسبوق فى التاريخ المصرى المعاصر.

وعقــب القضــاء على محاولة المشــير الانقلابية التــى كانت تخفى فــى طياتها ثلاثة انقلابــات، الأول بقيــادة المشــير للتخلص مــن عبدالناصر، والثانى بقيــادة شمس بدران للتخلص من المشير، والثالث بقيادة أحمد عبدالله ضابط الصاعقة للتخلص من شمس بدران وبهذا تنتقل الســلطة إلى أجيال شــابة طموحة وتختلف فى توجهاتها عن الجيل الحاكم الســابق. وهذا الجيل الانقلابى الأحدث سنًا كان على اقتناع بأن جيل ٢٣ يوليو ١٩٥٢م بمستوياته المختلفة يتحمل المسئولية كاملة عن كل الهزائم العسكرية التى لحقت بمصر فى عامى ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، بالإضافة إلى الهزيمة فى اليمن، كما يتحمل مســئوليات التخلف والانهيار الاقتصادى والجمود السياســى والشــروخ التى أصابت الجســد المصرى وأوهنته.

وكنــت قد بذلت جهدا فى متابعة التحقيقات التى أجرتها ســلطات التحقيق العســكرية والمحاكمــات التى تمت فى القضية التى تحمل رقم (١) لعام ١٩٦٧م والتى تفرعت منها القضيتان ٢، ٣ فى العام نفســه، وامتد الجهد لســؤال عدد من الأصدقاء الذين لهم علاقة بهــذه القضايا إلى أن تشــكلت لدى صورة تقريبية، اســتخدمتها كقاعدة على الاستفســار لاستكمال الصورة.

وقد اكتفى كثيرون بالانقلاب الرئيسى الذى خطط له المشير ورجاله، ولم تحاول جهات التحقيق التعمق فى القضية، وربما كانت لهم أسبابهم. كما أن المحكمة ركزت على المتهمين الرئيسيين وبذلت جهدا فى الاستعداد وقراءة الملفات جيدا لأنها كانت تعلم أن الرئيس عبدالناصر أمر المخابرات باستيراد أجهزة تصوير وإرسالها لدائرة مغلقة تليفزيونيا تسمح له وهو فى بيته بمتابعة المحاكمة، ولكى لا تفلت من أيديها القضية اكتفت بالقضية رقم «١» وركزت عليها، على أن تنظر فيما بعد فى باقى القضايا.

وظل عدد من يعرفون بالانقلاب الثلاثى محدودا، ولم أكن أعلم أنه سيكون موضوعا للمناقشة مع أنور السادات.

وفى خريف عام ١٩٦٧م قام السادات بزيارة اللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية فى مكتبه، ورآنى جالسا فى مكتب محمد قناوى مدير مكتب مدير المخابرات فى انتظار موعدى معه، فطلب منى انتظاره لأنه يريدنى، وبعد أن أنهى المهمة التى حضر من أجلها وخرج من مكتب المدير صحبنى إلى الصالون الملحق بمكتب المدير ولاحظ محمد قناوى حيرتى، فأخبرنى أنه سيخبر سيادة المدير بالأمر. وكانت المرة الأولى التى التقى به بعد عودتى من ألمانيا، فسألنى عن أحوالى وكيف كانت الدراسة بألمانيا، وقال لى أنه يتحدث الألمانية وإن كان قد نسى الكثير من المفردات، وأبلغنى أن الرئيس عبد الناصر حكى له وهو سعيد فى زمن تندر فيه السعادة عنى وعن تنظيمى لحملة تبرعات فى ألمانيا، تحولت إلى حمولة طائرة من الأدوات والمعدات الطبية، وسألنى عما إذا كنت قد تابعت المحاكمة، فأجبته بنعم، وعبرت له عن حزنى لأن حياة المشير قد انتهت بهذه الصورة، فقال إنه أيضا شعر بالحزن، وأن حكيم كان من أعز الأصدقاء لرجولته وطيبته وشهامته، واستطرد قائلا، ولكن كان من الخطأ أن يحاول الانقلاب على سيادة الرئيس، وأن يستمع لنصائح شمس (يقصد شمس بدران الذى كان يشغل منصب وزير الحربية أثناء فترة الهزيمة)

وظللت أتساءل، وهو يتحدث، متى سيتحدث عن الموضوع الذى استدعى أن ينتحى بى فى هذا الصالون من أجله؟

وقلت لنفسى: هل هناك قضية سيطلب منى أن اكتب عنها؟ وهنا قلت. لو كان ذلك هو السبب فما أيسر أن يطلب ذلك من صديقه موسى صبرى صاحب الباع الطويل فى الكتابة ورئيس تحرير الأخبار أو من جلال الحمامصى الذى عاد للكتابة خلال محنة يونيو.

وتذكرت آخر مرة رأيته فيها باستراحة المشير بالهرم قبل سفرى لألمانيا بعدة أيام حيث رأيت أنه من اللياقة أن أخبر المشير بسفرى وبسبب السفر وعلى مائدة العشاء التى ضمت المشير وزوجته برلنتى عبدالحميد وعباس رضوان وصلاح نصر وشمس بدران ومصطفى عامر والسادات وأنا قال مازحا: لقد قررت الهرب من الأولاد والمبيت هنا. فرحب المشير وقالت الفنانـــة برلنتى: ســأعطى تعليماتى بإعــداد حجرة النوم المعتــادة. فضحك. وقال: «إنتى عايزانى أنام على سرير زى ولاد الأصول. لا افرشى لى مرتبة على الأرض».

ومن بين الضحكات التى انفجرت من الجالســين حول المائدة علق المشــير قائلا «فعلا أنت عندك حق. ثم التفت لبرلنتى وقال: اسمعى كلام أنور».

واســتنتج الحاضرون أن السادات يريد أن ينفرد بالمشــير بعد انصراف الجميع للحوار حول قضية أو مشــكلة ما وبعد العشــاء دار الحديث حول اليمن واتفق الجميع أن الوضع بالغ السوء، وأن كل الأطراف تريد استمرار مصر فى هذا المستنقع.

واستأذنت فى الانصراف

تســاؤلات كثيرة كانت تتوالى والسادات يتحدث معى عن المحاولة الانقلابية للمشير، والنصائح المسمومة لكل من كانوا حوله ولم أجد بأسا فى أن أخبره بما أعلم عن الانقلابات الثلاثة وتوقعت أنه لا يعرف شيئا عنها.

فقلت للســادات: إنه كان يخطو على طريق نهايته فى كل الأحوال. وأدركت أننى لم أقل ما يشــير إلى المعنى المقصود فواصلت قائلا: إن الانقلاب أيا كانت النتائج ســواء نجح أو فشل كان سيقود المشير إلى نهايته.

وظهرت ملامح الاستغراب على وجه الرجل وسألنى كيف؟

فأجبته قائلا: إنه لم يكن انقلابا واحدا بل كان ثلاثة انقلابات؛ أولها ضد عبدالناصر والثانـــى للتخلص من المشــير والثالث لإزاحــة شمس بــدران. وكان الهدف الخلاص من الجميع وحكيت له ما عرفته.

وقال وهو يهم بالانصراف: لماذا لا تكتب عن انتهاء القيادة العســكرية من إنشــاء الخط الدفاعى الأول غرب القناة لكى تطمئن الرأى العام أن خطة إعادة بناء القوات المسلحة التى يشرف عليها ويتابعها الرئيس تمضى فى طريقها بثبات؟

ثم سألنى عما إذا كان يطلب من الفريق أول فوزى الاتصال بى؟ فوعدته بأننى سأكتب وشكرته على العرض. وخمنت أن هذه هى القضية التى يهتم بها.

وعندما عدت للقاء مدير المخابرات تساءل عن هذا الحب الساداتى. فقلت له إنه طلب منى أن أكتب عن الانتهاء من إنشاء الخط الدفاعى الأول. فسألنى هل عرفت لماذا؟ فقلت لــه: لا فقال: إن عبدالناصر لن يذهب إلى مجلس الأمة لافتتاح الدورة الجديدة التى يحل موعدها فى نوفمبر القادم إلا بعد استكمال بناء هذا الخط حتى يستطيع أن يخاطب الناس بالطريقة نفســها التى كان يتحدث بها من قبل. الرئيس لا يريد أن يوجه الخطاب ومصر غير مستعدة للدفاع عن الجبهة بالدرجة الأولى ولو تأخر افتتاح الدورة البرلمانية فربما يفكر فى حل المجلس.

ولأن اللقاء بالســادات كان مفاجئا بالنسبة لى، ولأنها المرة الأولى التى يطلب فيها منى الكتابة عن قضية يهتم بها، ولأن الحديث معه تطرق إلى المحاولة الانقلابية للمشير عامر، فقد بدأت الذاكرة فى استعادة الملامح الرئيسية لعلاقة عبدالناصر والمشير عامر التى انتهت بشــكل مأســاوى ولكن المهم أن الرئيس تمكن من التخلص مــن عبدالحكيم عامر. بعد أن فشــلت محاولات كثيرة من قبل آخرها ما قام به بعد الانفصال الســورى عام ١٩٦١م. فقد عمل الرئيس على اســتغلال هذا الظرف لإبعاده عن القمة وعن المشاركة فى السلطة خاصة وأنه قد عاد إلى مصر مهانا مكسورا من دمشق. فقد تعمد الانقلابيون وعلى رأسهم عبدالكريم النحلاوى مدير مكتبه إذلاله ومعاملته بصورة ســيئة تخلو مــن اللياقة فقد خلعوا علامات الرتبة من فوق كتفه. وامتدت المعاملة الســيئة لتشــمل معظم القادة العســكريين المصريين ونسبة كبيرة من المدنيين الموجودين بسوريا. وقرر إصدار قرار بتشكيل مجلس رئاسى يضم مجموعة من المدنيين والعســكريين من بينهــم عبدالحكيم عامر الذى رفض أن يكون مجرد عضو بالمجلس بعد أن كان النائب الأول لرئيس الجمهورية ونائب القائد الأعلى.

وغادر القاهرة إلى قريته «أسطال» بمحافظة المنيا ومن هناك توجه سرا إلى مرسى مطروح واكتشــف عبدالناصر اختفــاء عامر. وبعد أيام تبين أن المجموعة الرئيســية من كبار قادة القوات المسلحة وفى مقدمتهم قادة الأفرع الرئيسية البرية والجوية والبحرية غير موجودين بالقاهــرة ولا يعلم أين ذهبوا. فأدرك أنه فى مواجهة انقلاب ســلمى، وأن عامر قد انتصر فى هذه الجولة فقرر الاستســلام. وتمنى ألا يمضى حكيم إلى أبعد من ذلك ويقرر عزله أو

تحجيمه أو تركه على مقعد الرئيس «كخيال مآته» بعد أن أمسك فى يده كل خيوط القوة.

وطلب عبدالناصر من شمس بدران التدخل والتوسط لإعادة عبدالحكيم خاصة وأنه قرر الاستجابة لكل مطالبه والتراجع عن قرار تشكيل المجلس الرئاسى الذى أغضبه.

وعاد عامر منتصرا بصحبة عدد من القادة وصلاح نصر وشمس بدران. وعاتب عبدالناصر وسبه وهدده. وكان حادا وغاضبا وهو يقول له: لقد ساعدتك فى التخلص من الآخرين والآن تريد التخلص منى. إنك موجود على مقعدك هذا فى حمايتى، ولأننى أريدك أن تكون الرئيس. لا لأنك الرئيس والآن تعلم أننى أستطيع التخلص منك.

ويعتذر عبدالناصر بانكسار أمام الجميع ويتمادى عبدالحكيم فيسب عبدالناصر سبا موجعا. ولا ينطق الرئيس لأنه يدرك صعوبة الموقف حيث يقف وحده.

ويتقاسم عامر السلطة مع ناصر، له كل ما يتعلق بالداخل، ولعبد الناصر الشئون الخارجية، وله مخصصات مساوية لمخصصات عبدالناصر. ثم هدده بألا يتدخل أبدا فى شئون القوات المسلحة.

لقد اقتسما التركة. أو فلنقل إن عبدالحكيم قام بقسمة التركة وحدد نصيب كل منهما. هكذا كان الأمر وهكذا كانت الرؤية والتصرفات.

وضاعف الموقف من محنته. إلا أنه انتظر إلى أن حانت اللحظة عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧م المفجعة فاستغلها لإبعاد عامر.

وأمام شعوره بالمرارة أقدم على العمل من أجل الانقلاب على عبدالناصر والتخلص منه. ولكنه دفع حياته ثمنا.

وبدأت عملية إعادة بناء القوات المسلحة وانشغل الجميع بمحنة احتلال إسرائيل لسيناء وتهديدها الدائم لمدن القناة.. ويرحل عبدالناصر عن عالمنا يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وقبل أن تنتصف ليلة يوم الرحيل قرر الفريق أول محمد فوزى الإعداد لانقلاب عسكرى بالتعاون مع سامى شرف وباقى أفراد المجموعة التى كانت ترى أنها الأحق بوراثة سلطة عبدالناصر.

وتمكن الفريق محمد صادق رئيس الأركان من إحباط هذا الانقلاب فى مهده كان فوزى قد أعد عدة قرارات بنقل عدد من رجاله إلى المواقع القيادية التى تساعد على تنفيذ

الانقــلاب، وقرر فــوزى إلغاء هذه القرارات فى نفس ليلــة صدورها، وأوقف دوران عجلة الانقلاب، وفى النهاية انتصر منطق الشرعية.

وعــرف الســادات أن الصراع لمنعه من الصعود إلى مقعد الرئيــس قد بدأ مبكرا وأنه لن يتوقف إلى أن تحقق هذه المجموعة هدفها.

وكان عليه أن يتعامل مع الموقف بكل صعوباته. وانحنى أمام العاصفة كما انحنى أمام تمثــال عبدالناصر. وظل يطرح أهمية القيادة الجماعية ويتصرف باعتباره رئيســا ضعيفا لا حول له ولا قوة.

وفى أول وزارة أمر السادات بتشكيلها، أسند رئاستها إلى محمود فوزى. ولكن الرئيس الحقيقــى كان شــعراوى جمعة الذى رأس أكــبر عدد من الوزراء ضمهــم إلى لجنة وزارية برئاسته.

وقبــل محمود فوزى أن يكون رئيس وزراء شــرف. ولكن هذه المجموعة كانت تتعجل الإطاحة بالسادات.

وبجسارة محسوبة أقدم السادات على إلغاء الحراسة. وكان بهذه الخطوة يدين المرحلة السابقة التى فرضت الحراسة على شرائح من المواطنين، وفى الوقت نفسه يعلن للرأى العام أنه قادر على تصحيح الأخطاء.

وأكســبت هذه الخطوة الرئيس شــعبية وتأييدا لأنها عالجت خطأ ومنحت قبلة الحياة لكثير من المظلومين وفتحت الباب للآمال فى تصحيح أخطاء أخرى.

وقبــل وفاة الرئيس عبدالناصر أعلن قبوله لمبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكى وبناء على ذلك تم وقف إطلاق النار على امتداد الجبهة اعتبارا من يوم ٨ أغسطس عام ١٩٧٠م لمدة ثلاثة أشهر.

وعندما انتهت الأشــهر الثلاثة جمع السادات المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ١٩ أكتوبر وحصل على قرار بمد فترة وقف إطلاق النار ٩٠ يوما أخرى.

وبعد انتهاء هذه الفترة دعا الســادات اللجنة المركزية العليا للاتحاد الاشتراكى لمناقشة الموقــف ومحاولــة التوصل لقرار حول المبادرة وما إذا كانت مصر ســتقبل تمديد فترة وقف إطلاق النار مرة أخرى أم سنعود مجددا إلى حرب الاستنزاف.

المهم أن الســادات فى النهاية تمكن من مد فترة وقف إطلاق النار وتقدم بمبادرة للســلام هى الأولى من نوعها فى شهر فبراير ١٩٧١م.

هذه الخطوة أغضبت الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية وباقى مجموعة الورثة.

وفى أبريل من العام نفسه، توجه السادات إلى ليبيا ليلتقى مع كل من معمر القذافى حاكم ليبيا وحافظ الأسد حاكم سوريا وجعفر نميرى حاكم السودان، وينتهى اللقاء بتوقيع اتفاق وحدة ثلاثية تجمع مصر وليبيا وسوريا بعد أن اعتذر نميرى عن الانضمام لدولة الوحدة.

وعند هذه النقطة بدأ الصدام بين المعسكرين

وخسر السادات الجولة الأولى أثناء اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى (التنظيم الحزبى الوحيد الذى كان موجودا وقتذاك) فقرر نقل الصراع إلى اللجنة المركزية. طوال هذه الفترة كانت مجموعة الورثة التى وُصفت «بمراكز القوى» تواصل اجتماعاتها ومناقشاتها ووضع اللمسات النهائية لخططها الخاصة بالإطاحة بالرئيس السادات بحضور السفير السوفيتى بالقاهرة.

وفى الوقت نفسه. حرص الفريق أول فوزى على الاقتراب من الفريق محمد صادق رئيس أركان حرب القوات المسلحة والتودد إليه، وبدأ يدعوه لحضور اجتماعات المجموعة.

وعندما زاد معدل الاجتماعات استنتج الرجل أنهم اقتربوا من نقطة الصدام الحاسم.

وضاعف من ثقة الفريق أول فوزى وباقى أفراد المجموعة فى الفريق صادق، أن الرئيس لم يكن يتصل به تليفونيا كما أن رئيس الأركان لم يسع من جانبه لإقامة أية علاقة أو إجراء أى اتصال بالرئيس السادات.

وخلال هذه الاجتماعات كان الرئيس يتعرض لانتقادات قاسية هو وأسرته. ونالت الألسنة من وطنية الرجل ولون بشرة والدته.. وآثر صادق الصمت خلال هذه الاجتماعات وإن لم يتوقف عن التفكير فى أفضل الطرق لتجنيب مصر والقوات المسلحة هذا الصراع. وكانت عينه على إسرائيل ومخططاتها كما كان يتحسب لتأثير هذا الصراع على الأوضاع الداخلية.

وما أن انتصف شهر مايو ١٩٧١م حتى انفجر الصراع بين السادات وخصومه.



الفصل الثالث

مايو ١٩٧١م.. شهر الصراع على السلطة

(١)

قبلت مجموعة الورثة التى عرفت فيما بعد باسم مراكز القوى بمنطق الشرعية الدستورية وبالتالى أصبح أنور السادات نائب الرئيس رئيسا للجمهورية ورأى هذا الفريق أن السادات شخصية ضعيفة يسهل التهامها عندما يصبح الوقت ملائما وظلوا منذ لحظة انتخابه فى حالة ترقب. ولم يختلف الأمر بالنسبة للسادات فقد كان على بينة مما يُدبر له وحاول أن يبحث عن طريق واختار أن يتحرك على محورين، الأول: التظاهر بالضعف الذى يتفق وتصوراتهم وبالتصرف وفق ما يتوقعونه. والثانى: محاولة التخفيف من المظالم التى نالت من مجموعة كبيرة من المواطنين نتيجة فرض الحراسات والاستيلاء على الممتلكات، فأقدم بجسارة على إنهاء وتصفية الحراسات.

لقد خدعتهم مرحليا ادعاءات الضعف ولكن شكوكهم استيقظت على قرار إلغاء الحراسات خاصة وأن الأمر يتجاوز حدود القرار لأنه يعد خروجا على المنهج الناصرى بل يمكن اعتباره طعنة موجعة لهذا المنهج وإدانة له. وبهذا القرار أعطى السادات إشارة ايجابية للرأى العام وقال لهم بوضوح إنه مختلف عن عبدالناصر وإنه سيواصل تصحيح ما يحتاج إلى تصحيح وبدأ يكسب شعبية ويلقى قبولا.

وشهدت الفترة من أكتوبر ١٩٧٠م وحتى أبريل ١٩٧١م مناوشات كثيرة بين الطرفين. والطرفان هنا السادات فى جانب والأغلبية الهائلة فى جانب آخر: الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية وشعراوى جمعة وزير الداخلية والدكتور لبيب شقير رئيس مجلس الأمة أمين عام الاتحاد الاشتراكى ورئيس اللجنة التنفيذية العليا ورئيس اللجنة المركزية ورئيس اتحاد العمال ومدير المخابرات العامة ومحمد فايق وزير الإعلام. أى أن الأجهزة القابضة على السلطة كلها فيما عدا منصب رئيس الجمهورية فى جانب والرئيس فى جانب وبكل الحسابات لا يمكن للرئيس أن ينتصر فى معركة مع كل هؤلاء.

ومع ذلك لم يستسلم السادات وظل يناوش ويحاول أن يكسب أرضا. وكانت هذه المجموعة تعمل على تشديد الحصار من حول السادات وقد حاول وزير الحربية استدراج رئيس الجمهورية للتوقيع على قرار بتجديد معارك الاستنزاف فقدم له الوثيقة لتوقيعها وهو يهم بركوب سيارته بعد انتهاء أحد الاجتماعات العسكرية التى شهدها بمقر وزارة الحربية إلا أن الرجل تنبه ورفض التوقيع وحانت لحظة الحسم بعد توقيع اتفاقية الوحدة الثلاثية بين مصر وليبيا وسوريا فى نهاية اجتماعات القادة فى ليبيا يوم ١٧ أبريل ١٩٧١م بعد توقيع هذه الاتفاقية بدأت المجموعة تتحدث بشكل سافر عن مخططاتها للتخلص من رئيس الجمهورية.

وقام الفريق فوزى بزيارات متعددة للتشكيلات والوحدات العسكرية للتحريض ضد السادات وأجرى اتصالات بالقادة الذين يثق فيهم. وقد لفت الأنظار أثناء زيارته لوحدات الصاعقة بأنشاص أن طلب منهم أن يقسموا على الولاء للقائد العام أى له هو لا للقوات المسلحة ولا للوطن ولا للرئيس، ومثل هذا القسم لفت الانتباه إلى أن الرجل يخطط لانقلاب عسكرى وأنه يريدهم معه كقوة يعتمد عليها. وبما أن قادة وضباط من الصاعقة قد عاشوا تجارب انقلابية لم تنجح، لذا تضاعفت عندهم القدرة على شم الرائحة الانقلابية، وقد شموها أثناء زيارة الوزير لهم، وتناول الطعام معهم لكى يكون بينهم «عيش وملح» وتباسطه فى الحديث واستعداده لتلبية مطالبهم.

ولخطورة هذه الخطوة، أرسل الفريق صادق عددا من قادة وضباط الصاعقة من الذين خبر معدنهم، خاصة هؤلاء الذين ضمتهم المجموعة ٣٩ قتال والذين قاتلوا تحت قيادته طوال فترة معارك الاستنزاف، التى تحمل مسئولية إدارتها وقيادتها شخصيا، لمواجهة ماقام به فوزى وإحباط مخططاته لاستخدام الصاعقة فى صراعه مع السادات.

أما بالنسبة لباقى التشكيلات والوحدات فقد زارها بنفسه وحاور القادة حول الأزمة، وانتهوا إلى عدم تنفيذ أى أوامر يصدرها فوزى، وأنه من الضرورى الرجوع إليه شخصيا والتأكد أنه المتحدث، وكان الجميع عند مستوى المسئولية.

ومساء يوم ٢١ أبريل فوجىء الفريق محمد صادق باستدعاء من الفريق أول فوزى للقائه بمكتبه وما أن صافحه حتى بدأ يسب الرئيس سبا مقذعًا متهما إياه بكل التهم، وبدا واضحا أن الوزير القائد العام قد فقد أعصابه. بعدها سحب ورقة وكتب بخط يده أمرا

باتخاذ مجموعة من الإجراءات للسيطرة على القوات المسلحة وإعدادها للتخلص من رئيس الجمهورية.

ونــص الأمر على أن يبدأ رئيس الأركان مــن باكر أى يوم ٢٢ أبريل ١٩٧١م فى وضع خطة تعتمد على الفرقة السادســة المشــاة الميكانيكية واللواء ٢٥ المدرع مستقل بغرض تنفيذ أوامر محمد فوزى وباقى أعضاء الفريق لإحكام السيطرة على القاهرة كما تضمن الأمر إعداد المخابرات الحربية والشرطة العسكرية لتنفيذ أوامر الاعتقال المحتمل صدورها.

وأيضا نص على وضع نظام ســرى للاتصال والســيطرة وتحديد أماكن التجمع بالإضافة إلى التخطيط للاســتيلاء على الإذاعة والتليفزيون والسيطرة على مداخل القاهرة وقيام إدارة الحرب الإلكترونية بالتشــويش على أجهزة اللاســلكى بالســفارات لمنعها من نقل أخبار التحركات العسكرية إلى الخارج.

وما يثير الدهشة أن الفريق أول فوزى وزير الحربية القائد العام تجاهل كل ما هو موجود فى الكتب العســكرية وكتب بخط يده أن الأمر الذى ســلمه لرئيس الأركان صادر منه ومن شــعراوى جمعة وسامى شــرف. وبهذا الأمر وصل الصراع على السلطة إلى الذروة واستغرق الفريــق صــادق فى تفكير عميق طوال ليلة ٢٢/٢١ أبريل ١٩٧١م قبل أن يضع إطارا لخطة عمل تستهدف التالى:

– الحفاظ على سلامة القوات المسلحة أولا وأخيرا وألا تتعرض لما يشغلها عن الاستعداد للمعركة.

– أن تكون القوات المســلحة لمصر كلها أى ألا تنحاز أو تســتخدم لصالح معســكر دون الآخر.

– إن واجــب القوات المســلحة هــو تحرير الأرض المحتلة واســتعادتها مــن القوات الإســرائيلية ولن تتمكن من تحقيق هذا الواجب إلا إذا تفرغت لأداء هذا الدور وحمل هذه المســئولية وإن يتحقق ذلك دون تصفيات دموية لكى تبقى القوات المســلحة وحدة متكاملة تحت راية الوطن.

وأدرك الفريــق صــادق أن اللحظة قد حانت لطمأنة رئيس الجمهورية الذى كان يعيش ويعانى من حالة متقدمة من الفزع والخوف والهلع خشية ما يمكن أن يحدث له ولأسرته. لقــد كان يــرى الحلقة وهى تضيق من حوله يوما بعد يوم ولا يدرى ماذا يفعل. لم يكن

هناك من يمكن أن يخاطر ويقف بجواره إلا نفر من السياسـيين فى مقدمتهم عزيز صدقى وهيكل وموسى صبرى ولكن كل هؤلاء لا يملكون قوة يمكنها التصدى لانقلاب عسكرى.

وبمـا أن السـادات موضوع تحت المراقبة هو وهيكل فقد كانـت اتصالاتهم وتحركاتهم وأحاديثهم مرصودة مما أصابهم بالشلل. وأيضا لم يكن لدى الرئيس مصادر جيدة للمعلومات تضـىء لـه الموقف وتطلعه على ما يجرى وما يدبر لـه. ولأننى كنت قد تمكنت من توثيق علاقتـى بالفريق صادق عبر مشـوار طويـل وإن كان تطوعى للانضمام لقـوات الكوماندوز «المجموعة ٣٩ قتال» وإصرارى على التطوع وتوقيعى وثيقة تفيد أن القوات المسـلحة غير مسـئولة عنى فى حالة الاستشهاد والإصابة والفقد والأسر، واشتراكى فى العمليات خلف خطوط العدو بالرغم من أننى مدنى ولست عسكريا محترفا كان من أهم ركائز ثقة الرجل فى شـخصى؛ لذا كنت قريبا مما يجرى، ولكن هذا القرب كان عبئا حيث كان من الضرورى التزام الصمت تجاه ومع الجميع.

وعندما قرر محمد صادق طمأنة الرئيس السادات وإحاطته بما يجرى بحث، حوله ولم يجد من يسـند إليه هذه المهمة سـواى، والأمر ببساطة إننى كنت موضع ثقته والأهم إننى كنـت العنصر الوحيد الذى لم تفـرض عليه أى رقابة لا على تحركاتى ولا على تليفوناتى كمـا إننـى بحكم عملى كنت أتردد كثيرا على وزارة الحربية وألتقى برئيس الأركان وغيره من القادة وأيضا بحكم عملى فى الأهرام كنت ألتقى بالأستاذ هيكل رئيس التحرير.

وقد طلب منى الفريق صادق أن انقل رسـالة شـفهية للأستاذ هيكل لينقلها إلى الرئيس السادات لكى تنير له الطريق وتجعله على بينة. وبمجرد دخولى مكتب الأستاذ هيكل أدرك أن هناك شيئا، وأننى أتحرج من الحديث فى مكتبه، فصحبنى إلى خارج المكتب وأخذنا نسـير بالقرب من صالة التحريـر الموجودة بالدور الرابع بمبنـى الأهرام الجميل الحديث والعصرى وأنا أخبره بالرسالة، وقد طلب منى الرجل أن أعيدها على مسامعه مرة أخرى، بعدها علق قائلا باللغة الانجليزية «He Push it so RFr».

وبسـرعة تيقن مـن خطورة مايجرى ومن أهمية الرسـالة، فقرر التوجـه للقاء الرئيس السـادات فورا، وطلب منى عدم مغادرة الأهرام. كان إبلاغ السـادات بالرسالة له الأولوية فى هذه الساعات الحرجة التى سيتحدد فيها مصير نظام الحكم والرئيس شخصيا والأستاذ هيكل الذى كان موضع غضب هذه المجموعة خاصة على صبرى ومحمد فوزى وأذكر هذه

الواقعة الكاشـفة لكراهية محمد فوزى للأسـتاذ هيكل فقبل أيام من رسـالة طمأنة الرئيس كنت فى طريقى لوزارة الحربية وقبل أن أصل إلى المدخل المطل على شارع الخليفة المأمون شـاهدت سـيارة وزير الحربية تدخل إلى المبنى فطلبت من السائق التمهل حتى لا أدخل أثناء مراسـم اسـتقبال الوزير بعدها اجتزت البوابة الرئيسية وصعدت سلالم المدخل الذى يؤدى إلى ردهة شـبه مسـتديرة فشـاهدت الوزير وهو يقف بالدور الأول مطلا على المدخل والردهة فتيقنت أنه لمحنى أو لمح سـيارة الأهـرام التى تقلنى فقرر الانتظار وما أن رفعت رأسى لأنظر إليه حتى سمعته ينادينى قائلا: يا مباشر أبلغ هيكل أنه يتحمل مسئولية ما فعل ويفعل وأنه لن يفلت من هذه المسئولية.

رسالة تهديد واضحة وعلنية أمام كل من كانوا بصحبته أو فى انتظاره، كما كان هناك كثيرون خرجوا من مكاتبهم ليسمعوا ما يقوله الوزير فقلت له: يا سيادة الوزير إن الأستاذ هيكل رئيسـى ولا أسـتطيع أن انقل له مثل هذا الكلام وبما أنكما من الكبار وعلى اتصال فإننى أقترح أن تبلغه ذلك بنفسك.

فعقب قائلا: طيب يا مباشر. وغادر هيكل الأهرام وظللت أترقب عودته لأعلم منه كيف استقبل السادات الرسالة. وكان جوهر الرسالة أن القوات المسلحة الآن تحت سيطرة رئيس الأركان وأن الانقـلاب الذى خطـط له الفريق أول فوزى بالتعاون مع المجموعة والسـفير السوفيتى بالقاهرة لن يتحول إلى أمر واقع أبدا.

وكمـا هو متوقع فقـد تنفس الرئيس بعمـق لأول مرة منذ اندلاع الأزمـة وتصاعد حدة المواجهة وبدأ يعرف الاطمئنان بشـكل نسبى كما أدرك أن له اليد العليا الآن وأن خصومه لن يتمكنوا من النيل منه أو من أسرته وأنه آمن على مقعد الرئيس.

ولم يكتف السـادات بسـماع الرسالة من هيكل وطلب أن يسمعها منى أنا أيضا وبشكل مباشـر. وعندما عاد الأسـتاذ هيكل إلى الأهرام وأبلغنى برغبة السـادات استأذنته فى أن أعرض الأمر على الفريق صادق أولا وتوجهت إلى مبنى الوزارة وقصصت على رئيس الأركان كل ما جرى فبدت عليه الدهشة من طلب الرئيس السادات وتساءل بصوت عال ألم يدرك سـيادة الرئيس أنك تقوم بهذا الدور لأنك الشـخص الوحيد بيننا الذى لم تفرض عليه أية رقابة؟!

ثم تسـاءل أهى اللهفة أم الرغبة فى الاستيثاق؟ أم التطلع لزيادة جرعة الاطمئنان التى

أوقعته فى مثل هذا الخطأ؟! وكيف فاته أن الجماعة ستفرض عليك رقابة صارمة على مدار الساعة بمجرد علمهم باستقباله لك وبالتالى لن تتمكن من مواصلة أداء هذا الدور وسيفقد هو قناته الوحيدة المتاحة؟ وطلب منى أن أعود إلى الأهرام لكى أوضح الأمر للأستاذ هيكل لكى يعرضه هو بطريقته وأسلوبه على الرئيس السادات.

وواصلت تحمل هذه المسئولية طوال هذه الفترة الحرجة أو فلنقل البالغة الحرج والتى انتهت بانتصار السادات على خصومه فى معركة الصراع على السلطة وبهذا النصر تجمعت كل خيوط القوة فى يده.

وإذا كان عبدالناصر قد احتاج إلى أكثر من أربع سنوات لجمع عناصر القوة والسلطة فى يده أى من يوليو ١٩٥٢م إلى نهاية عام ١٩٥٦م وانسحاب قوات الغزو الفرنسية والانجليزية من بورسعيد فإن السادات لم يستغرق منه الأمر سوى فترة قصيرة جدا امتدت من سبتمبر ١٩٧٠م حتى مايو ١٩٧١م ويمكن القول أن مجموعة الورثة التى سعت بكل قوتها للوصول إلى قمة السلطة فى مصر قد صعدت سلم السلطة واقتربت من الرئيس عبدالناصر واكتسبت ثقته واستمدت منه نفوذها وأسباب وجودها نتيجة ثلاثة عوامل هى:

١- أسلوب الحكم: فالأسلوب الذى اتبعه الرئيس عبدالناصر كان يقوم على سيطرته الكاملة على السياسة والقرار ولهذا تخلص من قيادات ٢٣ يوليو واحدا وراء الآخر ومن كل الجماعات سياسية كانت أو نقابية أو غيرها لاقتناعه العميق وفهمه لقواعد الصراع فالبطولة والتمرد والعصيان تقوم به جماعات لا أفراد فليس هناك مجال لنجاح تمرد أو عصيان فردى، وعلى هذا الطريق قضى على الأحزاب والنقابات والاتحادات وعمل على التوسع فى إنشاء قوى أمنية جديدة ودعم ما هو قائم منها لبسط سيطرته كما لجأ إلى تشكيل تنظيم سرى داخل التنظيم السياسى الوحيد وعمل على دفع مجموعة من المساعدين الصغار إلى الأمام ليتصدروا العمل السياسى والتنفيذى نكاية فى رفاق ٢٣ يوليو أو ثمنا لما قدموه من خدمات أو فى إطار معادلة القوى بينه وبين عبدالحكيم عامر.

٢- هزيمة يونيو ١٩٦٧م: كان حجم الهزيمة فادحا وكان عبدالناصر وحده هو المسئول عنها إلا أنه استغلها للتخلص من عبدالحكيم عامر وأعوانه. وخلال هذه الفترة خلا المسرح تماما أمام هؤلاء الذين استعان بهم عبدالناصر ولأن الرئيس بدأ فى الإمساك بخيوط القوات المسلحة وأعطى لها جُل وقته فقد أعطى مزيدا من السلطات لهؤلاء المعاونين للإشراف

على شئون الدولة وإدارتها وتزامن ذلك مع زيادة وطأة المرض عليه وبالتالى عدم قدرته على الممارسة مثلما كان يفعل من قبل فتزايدت قوة قبضة هؤلاء المعاونين على الأمور وأسهم هذا الصعود المرموق إلى قمة السلطة فى تحولهم إلى فريق يرأسه على صبرى كما تعاظم طموحهم فى السيطرة والانفراد بالسلطة إذا ما أدى المرض إلى رحيل رأس السلطة.

٣- النفوذ السوفيتى: كان بداية هذا النفوذ توقيع صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥م وما نصت عليه من وجود خبراء ومستشارين وبدأ إرسال بعثات عسكرية للتحصيل العلمى والتدريب إلى الاتحاد السوفيتى واستدعى التحول إلى السلاح السوفيتى تغييرا فى العقيدة العسكرية بما يتلاءم مع نظام التسليح. فكل منظومة لها عقيدتها ومثل هذا العمل أدى إلى استضافة مستويات متعددة من المستشارين الكبار وإرسال قيادات سياسية وعسكرية على قمة المسئولية إلى موسكو، والسلاح فى حاجة إلى قطع غيار وذخيرة وعمليات صيانة وتدور عجلة الارتباط بالاتحاد السوفيتى بسرعة أعلى وكلما حصلت مصر على صفقة جديدة تبين أنها فى حاجة إلى صفقات أخرى فالصراع مع إسرائيل لا يهدأ وسعيها للتفوق على كل العرب لا يتوقف ولذا تحصل ترسانتها العسكرية على ما هو أفضل ويستمر السباق فى المنطقة.

وتعاظم النفوذ السوفيتى وبدأ الشيوعيون والماركسيون فى مصر فى الزحف نحو المناصب ومواقع النفوذ وارتمى فريق معاونى عبدالناصر فى أحضان السوفييت وأصبح سامى شرف جاسوسهم الكبير فى مصر وتحولت السفارة السوفيتية ومنزل السفير إلى ملتقى لهم يجمعهم هدف واحد هو سقوط مصر فى أيديهم.

كانت هذه هى الصورة يوم وفاة عبدالناصر وهو اليوم الذى انتظروه ليقطفوا الثمرة كاملة ولم يكن ممكنا أن يحدث ذلك عقب الوفاة مباشرة وكانت خطتهم بعد فشل انقلاب فوزى الأول ممارسة السلطة والحكم من خلال الرئيس السادات الذى تصوروه ضعيفا ولم يكن السادات ليقبل استمرار هذا الفريق والاستمرار فى أداء دور الضعيف فبدأ الصدام. كانت معهم كل السلطات واختاروا هم موعد المعركة مع الرئيس متوهمين أنهم الأعلون.

واجتمعوا وخططوا، وبارك السفير السوفيتى عملهم، ولم يكن هناك ما يتورعون عن الإقدام عليه لإحكام قبضتهم على مصر.

ونعود إلى الرئيس السادات: لنقول إنه قد امتلأ بالثقة بعد إن تسلم أول رسالة من الفريق صادق، وبدأ يخطط من جانبه للتخلص منهم.

ومن فوق المنصة أثناء الاحتفال بعيد العمال يوم الأول من مايو ١٩٧١م فى منطقة حلوان الصناعيــة، أعلــن تحديه لهم رغم أن الاحتفال كان مُعدًا لإحراجه والضغط عليه، ولم تدر مجموعة على صبرى ومحمد فوزى ســر هذا التحدى، أو كيف امتلك الســادات فجأة قلب الأســد ليلقى بالقفاز فى وجوههم، وقبل أن يفيقوا أعلن إقالة على صبرى من كل مناصبه يوم ٢ مايو ١٩٧١م.

واتخذ الصراع على الســلطة منذ تلك اللحظة مســارا مكشوفا وعلنيا، وسعى كل طرف ليفوز على الطرف الآخر، والفوز هنا يعنى الإقصاء لامجرد الانتصار فحسب.



(٢)

السادات يحسم الصراع

لم يكن السادات ليقبل أبدا أن يكون رئيسا من ورق، وأن تكون عناصر القوة فى يد على صبرى وباقى أفراد المجموعة. لقد صبر طويلا. وتحمل كثيرا انتظارا لهذا اليوم. وكانت لديه خطة عمل ومجموعة أهداف، فهل يتخلى عن أحلامه وطموحاته من أجل وطنه وأهله، لأن هناك من يريد أن يسرق منه حقه؟!

وكانت مجموعة على صبرى ترى أنها الأحق بوراثة عبد الناصر، فهم السدنة وأهل السلطة والقوة والسطوة. خلال هذه الفترة اختار الفريق صادق رئيس أركان حرب القوات المسلحة حماية الشرعية، وحماية مصر من مخاطر الانقلاب العسكرى وزعزعة الاستقرار، وكان يتحسب ويخشى من تأثير صراع السلطة على قدرة مصر على مواصلة الاستعداد للحرب واستعدادها لمواجهة أطماع إسرائيل.

واختار أن أكون رسوله الذى يحمل رسائله إلى السادات عن طريق الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير «الأهرام» وظلت هذه القناة تعمل، وكانت تحمل معها الآمال والبشرى والفرحة طوال هذه الأيام المشحونة.

وخلال الاحتفال بعيد العمال فى الأول من مايو ١٩٧١م أعلن الرئيس فى خطوة جسورة إقالة على صبرى من كل مناصبه.

ونزل الإعلان الصاعق على رءوس الورثة بصورة غير متوقعة لم يحسبوا لها حسابا أبدا.

ولكن ها هو السادات يفاجئ الجميع ويقبض على زمام المبادرة ويحاصرهم، ويطيح برجل الصدارة بينهم، ولم يكتف بذلك، بل هاجم بقوة وعنف بقوله فى الخطاب الذى ألقاه بالاحتفال: «ليس من حق فرد أو جماعة أن تزعم لنفسها قدرة منفصلة عن هذا الشعب أو تفرض عليه وصاية».

وببراعة انتقل للحديث عن إسرائيل لدغدغة مشاعر الجماهير. وتذكير الجميع أن مصر فى صراع مع عدو يحتل أرضها. وأن أحدا لا يمكنه أن يشعل صراعا داخليا من أجل أطماعه فى السلطة لأن ذلك يصب فى مصلحة هذا العدو.

وكان الاتهام مباشــرا وواضحا وشرســا.. وأكد السادات أن القوات المسلحة سوف تعبر القناة وأن المعركة على الأبواب.

وقال أيضا: «العين بالعين.. والسن بالسن.. والنابالم بالنابالم».

وأرضت هذه الجملة الحاضرين..

ولم ينــس أن يعلن أنه طلب من الســوفييت توقيع معاهــدة تعاون من أجل تغيير وجه الحياة فى مصر. وانتقل للحديث عن بناء دولة جديدة فى مصر.

وبهذا الإعلان وهذه الخطوة كان يقدم للســوفييت ما يجعلهم يقبلونه أو على الأقل لا يعترضون على التخلص من هذه المجموعة التى كانت تعد الركيزة السلطوية التى يستندون إليها والتى تصورا أنها ستقود مصر عن طريق الدوران فى الفلك السوفييتى.

كان يقول لهم: إنكم ستخسرون مجموعة من الأصدقاء، ولكن ستكسبون معاهدة تضمن وجودكم واستمرار نفوذكم وتأثيركم..

ولم يكن أمام السوفييت سوى القبول بالمعاهدة وتقبل الخسارة!!

وفى التاســع من مايو اســتقبل الســادات فى منزله بالجيزة الفريق أول فوزى، وطلب منه الاجتماع بقادة القوات المســلحة يومى ١١ و١٢ مايو. وبالرغم من أن فوزى قد فوجئ بطلــب الرئيس إلا أنه اســتجاب له.. وبدأ فى اتخاذ الإجــراءات وإصدار الأوامر الخاصة بهذه الاجتماعات.

كان السادات يتطلع للقاء القادة والضباط والحديث إليهم لحصار محمد فوزى، ولتوضيح الصورة لهم قبل أن يصل الصدام لذروته.

وصباح يوم ١١ مايو توجه محمد فوزى لمنزل السادات ليصحبه إلى مبنى القيادة العامة للقاء القادة والضباط.

وبعد انتهاء زيارته لمواقع القوات المســلحة فى كل من بلبيس وأنشــاص فى نهاية يوم حافل بالزيارات، توجه الفريق أول فوزى أمام الجميع لركوب سيارة الرئيس لكى يصحبه فى رحلة العودة كما هو متبع، إلا أن السادات رفض صحبته وعاد وحده إلى القاهرة.

وتسبب هذا الرفض فى إحراج محمد فوزى أمام جموع من القادة والضباط، وكشف لهم غضب السادات من الوزير وضراوة الخلاف والصراع الدائر بين الطرفين.

وصباح يوم ١٢ مايو اســتدعى السادات ممدوح ســالم محافظ الإسكندرية ليقسم اليمين كوزير للداخلية خلفا لشعراوى جمعة الذى قرر إقالته.

وقد حاول سامى شرف إقناع الرئيس بالعدول عن هذا القرار، إلا أنه لم يفلح بل وأصر السادات على إعلان الخبر تليفزيونيا.

وهذه الخطوة من الرئيس سـبقتها خطوات رئيسـية من جانب رئيس الأركان. فبعد أن تأكد من سـيطرته على القوات المسـلحة، وأن أى أمر يصدر من وزير الحربية القائد العام لأى قائد بدءا من قادة الأفرع الرئيسـية للقوات المسـلحة وصولا إلى قادة الفرق وغيرهم من القـادة لن ينفـذ.. وأن أى أمر من رئيس الأركان لن يجد طريقـه للتنفيذ إلا بعد الاتصال بالفريق صادق شخصيا للتأكد أنه هو الذى أصدر الأمر، قرر أن يؤمن الحرس الجمهورى، وهو القوة العسكرية الرئيسية والكبيرة التى تحمى رئيس الجمهورية بصفة رئيسية، وتحمى النظام فى مواجهة أى انقلاب عسـكرى، أو أى تحركات عسـكرية تستهدف أى مقر من مقارات الرئاسة.

وكان اللواء الليثى ناصف قائد الحرس الجمهورى يدين بالولاء لسـامى شرف، وبالتالى كان ضالعا مع مراكز القوى. ولتأمين الحرس الجمهورى، قرر محمد صادق إرسـال رسـالة إلى قائده اللواء الليثى ناصف.. ولكن كيف؟!

ووقع اختيار صادق على الفريق سعدالدين متولى.. كبير الياوران السابق.. ودفعة الرئيس السادات، فوجه له الدعوة لكى يتناول معه طعام الإفطار بمنزله، وفى الوقت نفسه اتصل بى لكى أشـاركهما هذا الإفطار.. وقال لى ممازحا: سـتكون أنت وسـعد أغلبية.. فكلاكما متزوج من ألمانية، وبالتالى فأنتما أقرب لبعضكما منى.

ولأنه كان يعلم أن تليفونه مراقب، فقد حرص على إضفاء الطابع الاجتماعى على هذه الدعوة.. وركز كثيرا فى الحديث عن الصداقة التى تجمعنى وسـعدالدين متولى.. وأن هذا الإفطار ليس أكثر منه مناسبة تجمع بين أصدقاء.

ودار الحديث بشكل ودى بيننا نحن الثلاثة، ولكن سعد كان يدرك أن فى الأمر شيئا. وأن وراء هذه الدعوة وفى مثل هذه الفترة سـببا.. ومع ذلك لم يسـأل أو يستفسـر.. وأيضا لم يتعجـل.. وفى أثناء تناول أقداح القهوة، غـير الفريق صادق مجرى الحديث.. وطلب من الفريق سـعدالدين متولى أن يلتقى بالليثى ناصف وينقل له رسـالة مؤداها: إنه إن لم يذهب إلى السـادات اليوم ويعلن له عن ولائه.. وبمعنى آخر أن ينتقل من المعسـكر الذى يقف فيه إلى المعسكر الآخر.. فإنه سيجد نفسه مضطراً إلى منع أى تحركات لقوات الحرس

الجمهـــورى خارج أماكنها الحالية. وبصورة أخرى: ســيمنع خروج أو دخول أى دبابات أو عربات مدرعة أو أى أسلحة أخرى.

ولكى يؤكد صادق أنه جاد جدا فى هذا الأمر، طلب من سعدالدين متولى أن يقول لليثى ناصــف إن هناك كمائن مضــادة للدبابات قد اتخذت مواقعها مــن حول مداخل ومخارج معسكرات الحرس الجمهورى.. وإذا أراد أن يتبين حقيقة الأمر فما عليه إلا أن يخرج من أبواب الحرس الجمهورى ويلقى نظرة على المنطقة المحيطة.

ولم يكن متولى ليقبل أن يتمكن فريق على صبرى ومحمد فوزى وسامى شرف من إزاحة السادات والوثوب إلى قمة السلطة فى مصر.

ومن منزل الفريق صادق توجه سعد إلى مكتب الليثى ناصف بمنشية البكرى ونقل إليه الرســالة.. ومن قلب الدهشــة والمفاجأة خرج الرجل إلى شــوارع المنطقة سيرا على الأقدام. وبخبرته تبين وهو يجيل النظر أن الرســالة حقيقية وأن الكمائن التى تحدث عنها صادق اتخــذت فعلا مواقعها. وأنها فعلا قادرة على منع خروج أى دبابة من أبواب معســكرات الحرس الجمهورى.

وعاد إلى مكتبه ليتصل تليفونيا بالرئيس السادات لكى يستأذن فى الحضور إليه.

وقبل أن يســتقبل الســادات هــذه المكالمة التليفونية، كانت رســالتى عــن لقاء صادق وسعدالدين متولى، وما أسفرت عنه قد وصلته.

وأمام الرئيس أعلن الليثى ناصف الولاء..

وبهذه الرسالة وهذه النتيجة تمكن صادق من تأمين الحرس الجمهورى.

وجاء يوم الخميس ١٣ مايو.. اليوم الحاســم فى الصراع على السلطة بين الطرفين. فى هذا اليوم كان مقررا أن يتوجه السادات إلى مديرية التحرير لحضور احتفال، إلا أنه اعتذر وبرزت على السطح وقتها شائعة عن وجود محاولة لاغتياله.

وصباح اليوم نفسه.. استدعى السادات ممدوح سالم محافظ الإسكندرية ليتسلم مسئولياته كوزيــر للداخلية خلفا لشــعراوى جمعة.. نجــم مجموعة الورثة. وأدركــت المجموعة أن الســادات قرر أن يحســم الأمر وأن يدفعهم دفعا للتحرك.. ولم يستطع أى منهم أن يخمن أو يحلل تحرك السادات بهذه القوة والثقة بالنفس.. فها هو بعد أن أقال على صبرى يقدم على التخلص من شعراوى جمعة.

وعندمـــا انتصف النهار اتصل الفريق أول فوزى بالفريق صادق.. وأخبره أن الســادات أقال شعراوى جمعة.. وأنهى المكالمة على وعد بإعادة الاتصال لإبلاغه بما يستجد.

وفى حوالى الساعة الثانية ظهرا. اتصل به مرة أخرى وطلب منه الصعود إلى مكتبه.

كان مكتــب رئيــس الأركان بالدور الأرضى.. أما مكتب الوزيــر ففى الدور الأول.. أى بالطابق العلوى لمبنى الوزارة بكوبرى القبة. وعندما دخل الفريق صادق مكتب الوزير وجد عنده شعراوى جمعة وعددا من أعضاء الجماعة.. ودار الحديث حول إقالة وزير الداخلية. فأوضح له أن السادات هو رئيس الدولة.. وسواء أكانوا هم الذين أتوا به أم لا، فهو الرئيس ومــن حقه أن يقيل من يشــاء من الوزراء، بل ويقيل الوزارة بأكملها وفقا لنص الدســتور. ثــم وجه الحديث لشــعراوى ليخفف عنــه؛ فاقترح عليه أن يطلب ممدوح ســالم لتهنئته بالمنصب. ولم يفته أن يقول لهم: إن ممدوح سالم عضو فى تنظيم سامى شرف وأحد أخلص رجاله وأوثقهم صلة به كما أنه ضابط شرطة ممتاز.. وفعلا أجرى شعراوى المكالمة.

وعندما لاحظ أن فوزى يحض الموجودين على التحرك من أجل العمل لإزاحة السادات الذى تنكر لهم وبدأ فى التخلص منهم واحدا إثر الآخر، وأن الجميع أبدوا استعدادا للقيام بعمل مشــترك. تدخل فى الحديث ليقنعهم بخطأ مثل هــذا التفكير خاصة وهم فى حالة انفعال. واقترح عليهم العودة لمنازلهم لكى يهدأوا وذلك بهدف إخراجهم من مبنى الوزارة.

وبقــى محمد فوزى بمكتبه.. وبعــد قليل بث التليفزيون بتعليمات من محمد فائق وزير الإعلام وقتذاك خبر تقديم أعضاء المجموعة استقالاتهم من مناصبهم الوزارية وغير الوزارية.

وبــدا واضحــا أنهم يعملون من أجل إحداث فراغ دســتورى، وفــى تصورهم أن فوزى ســينفذ انقلابا عســكريا لإزاحة الســادات الذى انكشــف واهتزت مكانته، وأن جماهير الاتحاد الاشتراكى ومنظمة الشباب والتنظيم الطليعى ستتظاهر تأييدا للانقلاب وفقا للخطط الموضوعة.

وكان الفريــق صــادق قد عاد إلى مكتبه بعد أن تأكد من مغادرة شــعراوى جمعة ورفاقه مبنى الوزارة لمواجهة أى احتمالات. خاصة أن فوزى الجريح على اســتعداد للإقدام على أى عمل للنيل من الرئيس الســادات، يدعمه فى ذلك ســامى شــرف وتنظيمه الذى يضم عددا لا بأس به من العســكريين بجانب أن لفوزى أنصارا بين القادة والضباط، خاصة من رجال المدفعية.

ومن المكتب أجرى مجموعة من الاتصالات بالأفرع الرئيسية للقوات المسلحة والمناطق العسكرية ومجموعة من القادة وكبار الضباط ليتأكد من أن خطة تأمين القوات المسلحة تنفذ دون عقبات.

وبعد قليل علم أن هناك عددا من كبار القادة قد وصلوا إلى مكتب وزير الحربية للاجتماع به. منهم محمد على فهمى وأحمد زكى عبدالحميد ومحرز عبدالرحمن. وأنه يناقش معهم مشروعه الانقلابى. فما كان منه إلا أن ترك سلاحه فى مكتبه، وصعد إلى مكتب الوزير.. وبعد أن حيا الجميع سأله: ألم تتقدم باستقالتك من منصبك؟!.. فقال فوزى: نعم... فرد عليه قائلا: إذن لا حق لك الآن للبقاء فى مكتبك، أو عقد أى اجتماعات عسكرية، وإننى أرجو أن تتوجه إلى منزلك، وأن يتوجه هؤلاء القادة إلى مكاتبهم.

وبسرعة غادر فوزى والقادة مبنى الوزارة. وما أن عاد إلى مكتبه حتى اتصل بإبراهيم الرفاعى قائد المجموعة ٣٩ قتال وأمره بالتحرك فورا إلى مبنى الوزارة لتأمينه.

وبعد تأكده من استقرار الأوضاع وجد أن من واجبه الاتصال برئيس الجمهورية لطمأنته وإحاطته علما بما جرى، وأن محاولات مجموعة على صبرى وفوزى للانقلاب عليه قد فشلت، وأن القوات المسلحة بذلك حريصة على أن تكون خارج هذا الصراع، وأن يظل ولاؤها للسلطة الشرعية. ومن قلب الفرحة بالفوز فى هذا الصراع، طلب من الفريق صادق أن يحضر فورا إلى منزله ليقسم اليمين كوزير للحربية، إلا أن صادق اعتذر لأنه لا يستطيع أن يغادر مكتبه الآن خشية من أى احتمالات، وأن الموقف لا يسمح له بأن يغيب أو يترك مكانه فى تلك اللحظات.

وبعد قليل تلقى صادق اتصالا تليفونيا من الرئيس السادات ليكرر طلب حضوره لحلف اليمين. ومن جديد يعتذر الرجل لأنه لا يستطيع مغادرة مكتبه بسبب الظروف التى تمر بها مصر.

ولا شك أن السادات كان يخشى بقوة أن يستغل صادق سيطرته على القوات المسلحة وانهيار السلطة عقب استقالة المجموعة وانعزال رئيس الجمهورية عن مجريات الأمور، لكى يستولى على مقاليد الأمور.

وكان صادق يدرك حقيقة شكوك السادات، وأنها هى التى تدفعه للإصرار على حضوره لحلف اليمين كوزير للحربية.. فالحضور وحده كاف لتبديد هذه الشكوك.

وفى اتصال تليفونى آخر طلب السادات من صادق الموافقة على تحريك عدد من دبابات الحرس الجمهورى إلى سراى القبة. فاعتذر له وأخبره أنه أمر قائد الحرس الجمهورى بعدم تحريك أى قوات أو أفراد، وأنه ليس على اســتعداد لتغيير خطط تأمين القوات المســلحة ومصر الآن.

ولكى يطمئنه.. ويخفف من حدة شــكوكه، أكد له أنه يضمن ســلامته وسلامة أسرته، وأنه لا حاجة لوجود أى جندى زائد على الحراسة التى وفرها له.

وبعد أن جاوزت الســاعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، توجه الفريق صادق إلى منزل الســادات بالجيزة لكــى يحلف اليمين.. فوجد هناك الدكتــور محمود فوزى وعزيز صدقى ومحمد حسنين هيكل.

وقد اســتقبله الســادات بكل الترحيب الممكن بعد أن هدأ نفسيا، وفوجئ الرئيس بأن الفريق صادق يعتذر عن قبول منصب وزير الحربية.. ويطلب البقاء فى مكانه كرئيس أركان حرب.. إلا أن الســادات رفض هذا الاعتذار. وفى النهاية أقسم صادق اليمين بعد أن وافق على تولى منصب وزير الحربية.

وتنطوى صفحة الصراع على الســلطة بين رئيــس الجمهورية ومجموعة الورثة دون أن تسيل الدماء.



الفصل الرابع

الاســتعمار السوفييـتى

فى أعقاب نجاح محمد صادق فى إدارة أزمة الصراع على الســلطة وتمكنه من الحفاظ على الشــرعية، أدرك السادات أن خيوط السلطة قد أصبحت فى قبضته.. وشعر بالارتياح النســبى بعد أن أصبح وحده صاحب القرار بعد أن تخلص من الضغوط التى كانت تمارس عليه طوال الفترة الماضية. وقرر تشــكيل محكمة خاصة برئاســة حافظ بدوى رئيس مجلس الشعب لمحاكمة مجموعة الورثة؛ وقد أراد من المحاكمة أن يطلع الرأى العام على جانب من الحقائق الخاصة بالتآمر عليه وعلى النظام وعلى الشــرعية.. كان يعلم أن الشعب يكره هذه المجموعة.. وســتؤدى المعلومات التى ستنشــر عن المحاكمــة إلى مضاعفة حجم هذه الكراهية.

ولم يكتف بشــكر صادق علنا فى المؤتمرات واللقاءات والاجتماعات المدنية والعسكرية، بل أضاف ممدوح سالم والليثى ناصف.. ونسب إلى الثلاثة الفضل فى حماية مصر وحمايته.

وكان من أهم ملامح هذه الفترة بدء التخطيط الجاد للمعركة من أجل تحرير مساحة من الأرض المحتلة فى سيناء.. وركزت القيادة العامة جهودها من أجل تحقيق هذا الهدف.

ولما كنت أتوقع لقاء قريبا مع الرئيس الســادات من أجل أن يشــكرنى على الدور الذى قمت به طوال الفترة الحرجة التى سبقت الحسم، فقد توجهت بسؤال للفريق صادق: ماذا أقول؟!

فقال الرجل: إن الســادات اليوم غير ســادات الأمس. بالأمس كان يبحث عمن يقف بجــواره.. والآن الكل يســعى لنيل رضــاه أو يطلب العفو بعد أن تربــع وحيدا على مقعد الرئيــس بلا منغصات أو ضغوط.. وواصل قائلا: باختصار.. يجب أن تراعى أنك تتحدث إلى رئيس الجمهورية.. وأن تدرك أنه إذا شكرك اليوم فليس معنى ذلك أنه سيحتفظ بهذا الشــكر طويلا. وبما أنك أديت دورا، وعرفت بما كان يدور فتحدث معه عن كل ما تعرفه من معلومات.

وخلال الأسبوع الثالث من شهر مايو ١٩٧١م تحدد لى موعد للقاء السادات باستراحة القناطر الخيرية.. وهناك وجدت إنسانا راضيا.. سعيدا.. بشوشا.. هادئا.. مستريحا.. وكأن دنياه قد خلت من المشاكل والصراعات. فسألنى عن أحوالى.. فحمدت الله. فقال: لقد أردت أن أشكرك للدور الذى قمت به. وطبعا أعرف أنه لولاك لقضيت وقتا طويلا غارقا فى الحيرة ولظل الموقف ضبابيا. ولا شك أن محمد صادق أجاد اختيار قناة الاتصال..

فأكدت له فرحتى بانتصاره، وبالاستقرار الذى ستنعم به مصر بعد الخلاص من هذه المجموعة المكروهة شعبيا ذات الارتباطات المشبوهة بالاتحاد السوفييتى.

وانتقل للحديث عن محمد صادق فقال: إنه «راجل ولا كل الرجالة».. وهذا هو صادق الذى عرفته منذ سنوات الدراسة بالكلية الحربية. ثم سألنى: هل تعلم أنها ليست المرة الأولى التى يمد لى يده؟!.. ثم أجاب قائلا، لقد سبق أن فعل ذلك فى قضية العوامة وسألنى، طبعا عارف القضية، فأجبته بالإيجاب، فعاد يمدح فى الفريق أول صادق ثم قال: إنه القائد الذى سيعد القوات المسلحة للحرب المقبلة. والتى أراها ضرورة لا غنى عنها.

وواصل قائلا: إن الاستعداد سيأخذ وقتا.. ولكننى لن أفعل مثلما فعل عبدالناصر.. ولن أقع فى الأخطاء التى وقع فيها.

فسألته: كيف؟!

فأجاب: لقد أعلن تأميم قناة السويس.. وهو قرار وطنى صحيح بنسبة ١٠٠٪.. ولكنه فعل ذلك دون أن تكون مصر مستعدة للحرب. لقد بدأنا نتسلم السلاح من روسيا بعد صفقة ١٩٥٥م. وفى يوليو ١٩٥٦م لم تكن مصر قد استوعبت هذا السلاح.. كما وقع فى خطأ سوء التقدير؛ لقد تصور أن فرنسا وانجلترا لن تحاربا بسبب التأميم.. وأنهما لن يتحالفا أبدا مع إسرائيل من أجل محاربة مصر.

وأكد أنه لن يقع فى مثل هذه الأخطاء – وهو يستعد للحرب – ولن يقع فى أخطاء مثل التى وقع فيها عبدالناصر قبل وأثناء معركة يونيه ١٩٦٧م فلقد اتجه نحو الحرب ومصر فى أسوأ أوضاعها العسكرية والاقتصادية بسبب حرب اليمن.

فقلت: إن مصر تتطلع ليوم الخلاص من الاحتلال الإسرائيلى.. فقال: ولن يطول انتظارها.

وبدا كأنه تذكر شيئا. فتوقف وسألنى: كيف تمكن محمد صادق من تغيير موقف الليثى ناصف؟!..

فقصصت عليه ما جرى خلال دعوة الإفطار التى جمعت بينى وبين الفريق سعدالدين متولى بمنزل رئيس الأركان والرسالة التى طلب منه أن يحملها لليثى ناصف.

وقلت له: إن محمد صادق كان على يقين أن الليثى سيغير المعسكر الذى يقف فيه بعد تسلمه هذه الرسالة.. وبعد أن يتأكد من أنه لن يستطيع تحريك أى قوات بسبب الكمائن التى انتشرت أمام مداخل ومخارج معسكرات الحرس الجمهورى.

وبعد انتهاء الإفطار ومغادرة الفريق سعد منزل صادق، طلب من رجاله متابعة تحركات الليثى ناصف. فعرف أنه خرج سيرا على الأقدام واستطلع المنطقة وتأكد من وجود الكمائن.. بعدها توجه لمقابلة سيادتك.. وكان المعنى أنه قرر الإعلان عن ولائه لسيادتك.

وسألنى عما جرى بالوزارة.. ويقصد وزارة الحربية.. وكيف صعد محمد صادق إلى مكتب فوزى بدون سلاح؟!

فحكيت له ما جرى. وأكدت له إن رئيس الأركان ترك سلاحه بمكتبه أمامنا جميعا وصعد وحده؛ ليطلب من فوزى ومن كل القادة الموجودين مغادرة الوزارة.. الأول إلى منزله بعد أن استقال.. ولم يعد من حقه البقاء بمكتبه.. والقادة إلى مكاتبهم.. وقد استجابوا دون نقاش أو إبداء أى اعتراض.

وكان صادق يعلم أن فى الأمر مخاطرة، محمد فوزى المحاصر والمأزوم.. والذى يعيش تحت وطأة ضغوط الموقف والصراع.. وتحت إحساسه بأن الخيوط بدأت تفلت من يديه لا يمكن استبعاد إقدامه على أى تصرف. ولكنه كان يرى أن تتم هذه المواجهة، والكل يعلم أنه لا يحمل معه سلاحه الشخصى، وأنه صعد إليهم وحده دون أن يصطحب أحدا معه.

فعلق قائلا: «طول عمره راجل».

وسألنى فجأة عما إذا كنت أقرأ كتبا سياسية؟!.. فأجبته بنعم.. ثم قلت: إننى حصلت على درجة الماجستير عن رسالة لى فى العلوم السياسية.. فقال: ولكن هذه الكتب ليست هى السياسة.. إن السياسة بمعنى فن الحكم وممارسة السلطة أمر مختلف.. وهذا ما أود أن أعلمه لك. فقلت له: كم أتمنى ذلك.. واستأذنت بعد أن وصل عثمان أحمد عثمان. وكنت أعلم أن هذا وقت ممارسته لرياضة المشى.

كان اللقاء طيبا. وعلى امتداد طريق العودة استعدت ما دار من حوار.. وحمدت الله أن كل شىء مضى بصورة طيبة.

ومــن منزلى اتصلت بالفريق أول صادق.. وأنبأته بأن اللقاء كان عظيما.. وأن الرئيس لم يتوقف عن مدحه ووصفه بأنه «راجل ولا كل الرجال».

وكان منطقيا فى ظل دوران عجلة الاستعداد للحرب أن يحرص رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة على زيارة الجبهة والالتقاء بالقادة والضباط والجنود.. بالإضافة إلى قيادات الأفرع الرئيســية للقوات المسلحة.. والذين صحبوا السادات خلال زياراته للجبهة وللمواقع العسكرية بصحبة محمد فوزى قبل وخلال أزمة الصراع على السلطة، ثم صحبوه بعد أن حسم الصراع لصالحه، لاحظوا فرقا جوهريا فى سلوك الرجل وتصرفاته.. وأقواله.

وفى كل الأحوال كان يخاطب القوات المسلحة مؤكدا أن المعركة قادمة.. واثقا من دعم الشعب واستعداده للتضحية.. مؤمنا بالقدرة على تحقيق النصر.. وبالغد.. ومطالبا الجميع بالعمل من أجل هذا اليوم.

ولأن السادات كان يرتجل كلماته دائما، وبما أننى كنت الصحفى الوحيد الذى يشهد كل هذه اللقاءات، فقد كان الفريق أول صادق يطلب منى كتابة الكلمة التى ألقاها الرئيس. بعدها يتصل بالرئيس تليفونيا، ويقرأها له قبل أن تأخذ طريقها للنشر.

ومرة بعد مرة.. أصبح الأمر روتينيا.. ولم أكن أنتظر طلبا.. وفجأة أخبرنى وزير الحربية أن السادات طلب منه أن يكلفنى بكتابة الكلمة التى سيلقيها فى لقاءاته المقبلة.

وفى كل مرة كنت أسلم الكلمة إلى مكتب الوزير فيقرأها ويعدل فيها.. ثم يأمر بإرسالها لمكتــب رئيــس الجمهورية مكتوبة إما بخط اليد على يــد خطاط محترف، أو مكتوبة على الآلة الكاتبة إذا ما كان الوقت لا يسمح باللجوء للخطاط.

وكثيرا ما كان السادات يخرج على النص.. ويرتجل إذا ما كانت هناك قضية أو موقف يريد التركيز عليه أو رسالة يريد إبلاغها لهذا الطرف أو ذاك.

ولقد كنت أتابع خطاب الرئيس أثناء هذه اللقاءات لتسجيل ما يرتجله لكى أستخدمه وأنا أعد الخطاب للنشر.. وكنت أكتب النص الصالح للنشر، وكلمة الرئيس، ويتولى مكتب الوزير توزيعه على الصحف ووكالة أنباء الشرق الأوسط.

وأمام مماطلة الســوفييت فى الوفاء بالتزاماتهم العســكرية وضغوطهم التى لا تتوقف من

أجل الحصول على المزيد من القواعد العسكرية فى مصر والفوز بامتيازات جديدة فى كل مجال من مجالات الحياة فى مصر وتوتر العلاقات بين الخبراء والمستشارين السوفييت وأعداد كبيرة من القادة والضباط والجنود، كان على رئيس الجمهورية ووزير الحربية بصفة خاصة اتخاذ خطوات مناسبة تتفق والموقف السوفييتى.

ورأى رئيس الجمهورية أن توقيع معاهدة صداقة وتعاون مع السوفييت تضمن لهم النفوذ والاستقرار.. وبالتالى تحفزهم على الانتظام فى تنفيذ صفقات الأسلحة التى سبق توقيعها.. وتلبية احتياجات القوات المسلحة من الأسلحة والمعدات والذخائر وقطع الغيار. إلا أن السوفييت واصلوا أسلوبهم المفضل فى المماطلة.. هذا النهج السوفييتى أثر على الترسانة العسكرية المصرية.. وكان تأثيره أكثر وضوحا على واضعى خطط العمليات للمعركة المقبلة.

ولم تكن القيادة الجديدة لتوافق على خطط عسكرية لا تستند على إمكانيات موجودة.. أى أن الخطط يجب أن توضع بشكل يتفق وما هو موجود فعلا من أسلحة ومعدات وذخائر.

وكان الخبراء والمستشارون السوفييت يشاركون فى وضع الخطط وبرامج التدريب. فكل قائد ابتداء من الوزير حتى قائد الكتيبة كان بجواره مستشار سوفيتى وكانت احتياجات الخطة توضع فى قائمة احتياجات يحملها معه المفاوض المصرى ابتداء من رئيس الجمهورية إلى رؤساء الوفود المتخصصة وهم يتفاوضون مع الجانب السوفييتى.

كان هناك قصور فى عمليات التسليح، واختار وزير الحربية الفريق أول محمد صادق أن يصارح به القوات المسلحة وفى كلماته التى كان يلقيها خلال زياراته، كان يحيط القوات المسلحة علما بحقيقة الموقف، كما كان ينتقد سياسة السوفيت ويعلن رفضه لهذا المنهج.

هذا التصدع فى العلاقات المصرية ــ السوفيتية كان من الفقرات الرئيسية فى الكلمات التى أكتبها لرئيس الجمهورية. وبما أننى كنت أشارك فى كتابة خطب الوزير.. فقد كانت موجودة دائما.. ومدعومة بالمعلومات التى يطلب الوزير الكشف عنها.

وبعد عدة أشهر – أى فى بداية عام ١٩٧٢م – تلقى السادات تقريرا إيجابيا عن تأثير الخطب التى ألقاها خلال لقاءاته بالقادة والضباط والجنود من سيد مرعى رئيس مجلس الشعب عقب زيارته للجبهة.. فشعر بالرضا.. وطلب من الوزير توجيه الشكر لى.

وابتداء من عام ١٩٧٢م كانت حملة الفريق أول صادق المعادية للوجود السوفييتى تنتقل من نجاح إلى نجاح.. ومع كل خطوة كان غضب القوات المسلحة يتضاعف. وفى الوقت

نفسه لم تكن القيادة السوفيتية قادرة على تغيير سياساتها. كان الجمود هو العامل الأقوى داخل «الكرملين».

والأسوأ أن مطالباتهم وإلحاحهم لتحويل مرسى مطروح إلى قاعدة جوية وبرية وبحرية تتردد على ألسنة جميع كبار القادة فى موسكو والوزراء وكبار المسئولين الذين يزورون القاهرة.. والخبراء والمستشارون الموجودون بمصر والسفير السوفييتى.

وبالرغم من زيارات رئيس الجمهورية المتعددة والوفود العسكرية والمدنية الزائرة لموسكو. والوفود السوفيتية القادمة للقاهرة، وساعات التفاوض الطويلة، لم يتغير النهج السوفييتى.

وجاء الإعلان الصادر عقب لقاء كل من الرئيس الأمريكى نيكسون والزعيم السوفييتى بريجنيف فى موسكو. بداية صيف عام ١٩٧٢م وتحديدا فى ٢٠ مايو ١٩٧٢م والذى نص على فرض الاسترخاء العسكرى على الشرق الأوسط والصراع العربى الإسرائيلى، ليشكل صدمة لصانع القرار المصرى.. فقد كان البيان يعنى استمرار حالة اللاحرب واللاسلم.

كانت القاهرة تمضى على طريق الاستعداد للمعركة بكل جدية.. وكان القائد الأعلى قد أقر التخطيط لمعركة هجومية لاقتحام القناة وتدمير خط بارليف الحصين وإنشاء رءوس كبارى شرق القناة بعمق يتراوح بين ٨ إلى ١٢ كيلو مترا.. وصد الهجمات الإسرائيلية المضادة.. وتكبيد العدو خسائر مادية وبشرية مؤثرة اعتمادا على الإمكانيات المتاحة، وتطوير الخطة مع أى زيادة فى هذه الإمكانيات.

وأدى غضب السادات، من مماطلة السوفييت، ومن البيان الصادر عقب قمة نيكسون – بريجنيف الخاص بالاسترخاء العسكرى، وأمام حالة الغضب العسكرى المصرى من مواقف السوفييت، وسلوك الخبراء والمستشارين بكل ما يتصف به من صلف واستعلاء وغطرسة، وزيادة القوات السوفيتية الموجودة فى قواعد برية وبحرية وجوية إلى ما هو أكثر من ٢٤ ألف فرد، وبما شكل قوة احتلال، والأهم كان غضب الشارع المصرى الذى عبر عن نفسه بقوة.. قرر السادات إنهاء مهمة الخبراء والمستشارين وطرد القوات السوفيتية من مصر.. وتم إبلاغ السفير السوفييتى بالقرار يوم ٨ يوليو ١٩٧٢م على أن يجرى التنفيذ خلال أسبوع.

وفعلا تحررت مصر من الاحتلال السوفييتى يوم ١٦ يوليو ١٩٧٢م.

وفى اليوم التالى لقرار إنهاء مهمة الخبراء والمستشارين السوفييت، التقى الفريق أول صادق بالأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وكان من أهم ما قاله: «إننى

سـأدفع ثمن هذا اليوم» فرد عليه الأسـتاذ هيكل قائلا: إن ما تقوله غير معقول.. أفى هذا اليـوم الذى يعد انتصارا مصريـا – كنت من أبرز أصحاب الفضل فيه – تتحدث عن دفع الثمن؟!

إن السـادات يقدر وبلا شك دورك وهدفك الذى شكل دعما لسياسته تجاه السوفييت. وهذا التقدير سينعكس على مواقفه منك.. وعاد صادق ليقول لهيكل: إنك تعرف السادات منـذ عام ١٩٥٢م أما نحن «أى صادق وزملاء الدراسـة بالكلية الحربيـة» فنعرفه منذ كنا معا بالكلية.. سـنوات طويلة عشناها معا.. منذ بواكير الشباب وحتى الآن.. وتجارب بلا حصر.. فرشت طريقنا إلى الحاضر.. وكل منا يعرف جيدا كيف يفكر الآخر. وطبقا لما أعرفه عن السادات سأدفع الثمن ولن يتأخر ذلك عن نهاية هذا العام.

ورد الأستاذ هيكل: «أنا لا أوافقك الرأى»..

وواصلت أجهزة القيادة العامة الاسـتعداد والتخطيط للحرب.. وانطلق السـادات على هذا الطريق بعد أن تخلص من مراكز القوى التى كانت تتجه إلى مجرد معارك اسـتنزاف محدودة. وكان طرد السـوفييت من أهم المؤشـرات إلى عدم قدرة مصر على إشـعال حرب بالمنطقة؛ انطلاقا من الاقتناع بأن السوفييت هم القوة العالمية القادرة على دعم أى استعداد عسكرى مصرى من أجل الحرب ومساندة هذا الاستعداد سياسيا.

كانت إسرائيل والولايات المتحدة ومعظم الدول الأوربية على اقتناع بأن مصر لن تتوجه للحرب وحدها أبدا.



الفصل الخامس

من أخطاء وخطايا القذافى

جــاء اللقاء المصرى الليبى هذه المرة عاصفا منذ اللحظة التى التقى فيها الوفدان، الأول برئاسة الفريق أول محمد صادق نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية والإنتاج الحربى القائد العام للقوات المسلحة، والثانى برئاسة العقيد معمر القذافى.

كانت المباحثات قد بدأت بقاعة اجتماعات بمطار بنغازى عقب وصول الطائرة الخاصة الليبيــة التــى أقلت الوفد المصــرى من القاهرة.. وقبل الحديث عمــا جرى، يجدر بنا أن نتحدث ولو قليلا عن المعلومات المرتبطة به وقادت إليه..

كانــت مصر تســتعد لمعركة هجوميــة لتحرير أرضها المحتلة فى ســيناء فى ظل تفوق إســرائيلى عســكرى كمى وكيفى، ومماطلة ســوفيتية تســتهدف الضغط على صانع القرار للحصــول علــى المزيد من القواعد العســكرية البرية والبحرية والجويــة.. ومن الامتيازات والتنازلات التى تنال من سيادة مصر.

وفى خريف عام ١٩٧١م بدأت القيادة المصرية تتطلع للحصول على بعض احتياجاتها العســكرية من خارج المعســكر الشــيوعى. وكان هناك مــن هو على اســتعداد لتوفير هذه الاحتياجات إذا ما توفر التمويل.

وبعد مباحثات سرية، تمكنت القيادة المصرية من عقد صفقة صغيرة نسبيا، ولكنها تلبى احتياجا مهما للقوات المسلحة.

وبدأ الرئيس أنور السادات مساعيه لتوفير التمويل المطلوب من خلال الاتصال بعدد من الحكام العرب.. وقد اتفق خلال هذه المســاعى مع العقيد القذافى على المساهمة بمبلغ ٢٠ مليون جنيه استرلينى.

وأمام ضغوط الاقتراب من شهر رمضان، والحاجة لتوفير سلع ومواد تموينية تسد نقصا فى الســوق، أرسل الســادات الدكتور عزيز صدقى رئيس مجلس الوزراء إلى ليبيا للحصول على مساهمة مالية تكفى لتوفير هذه الاحتياجات التموينية. وفعلا سافر عزيز صدقى وعاد بعد أن أنجز مهمته بنجاح.

وبما أن للفريق أول صادق علاقات طيبة بالقيادة الليبية، فقد تصور السادات أن إرساله إلى ليبيا قد يساعد مصر فى الحصول على المبلغ المتفق عليه من أجل صفقة السلاح، بالرغم من أن ليبيا قد زودت عزيز صدقى بمبلغ مساو للمبلغ المطلوب للسلاح.

أى أن السادات تصور أن فى إمكانه الحصول على تمويل لصفقة السلاح بعد أن حصل فعلا على تمويل يكفى لشراء احتياجات مصر التموينية.

وسافر الفريق أول صادق على رأس وفد محدود العدد إلى ليبيا دون أن يعلم شيئا عن مهمة عزيز صدقى فى ليبيا والتى بدأت وانتهت قبل سفره بأيام.

وبعد مراسم الاستقبال وترحيب العقيد وعدد من القادة الليبيين بالفريق صادق، بدأت المباحثات بأن أوضح رئيس الوفد المصرى الهدف من الزيارة. وبعد أن استمع القذافى لما قاله صادق، قال بانفعال واضح: «إنى لا أستطيع أن أطعم مصر وأشترى لها السلاح فى نفس الوقت. لقد جاء عزيز صدقى منذ أيام وأخذ ٢٠ مليون جنيه استرلينى كنت قد اتفقت مع السادات على دفعها من أجل صفقة سلاح. ولكن رئيس الوزراء أخبرنى أن مصر فى حاجة إلى هذا المبلغ لتوفير احتياجات رمضان.. والآن تطالبنى مصر بدفع المبلغ مرة أخرى لشراء سلاح.. هذا غير معقول».

وقبل أن يستكمل القذافى حديثه، وقف الفريق أول صادق وطلب من مدير مكتبه العقيد جمال حسن إعداد الطائرة للعودة إلى القاهرة.

وقبل أن يهم بالانصراف خاطب القذافى قائلا: «لاحظ يا معمر أنك تتحدث عن مصر والشعب المصرى.. وأنك تخاطب رئيس وفد مصرى.. وكل ما قلته لا يمكن قبوله بأى صورة من الصور.. ثم كيف تتصور أن ٢٠ مليون جنيه استرلينى تعطيك الحق لكى تقول ما قلت؟!.. ما قلته يا معمر مرفوض جملة وتفصيلا».

وعندما حاول القذافى الاعتذار هو وكل أعضاء الوفد، قال صادق إنه يرفض الاعتذار. وخرج من القاعة باتجاه الطائرة، وحاول الوفد الليبى منعه من مواصلة السير، ونجحوا فى ذلك بعد أن تحلقوا من حوله.. ولم يتوقفوا عن إبداء الأسف وعبَّروا جميعا عن مشاعرهم الأخوية بل والأبوية له.. فهم يرونه قدوة عظيمة لهم.. وأستاذا ومعلما يستشيرونه.. أما تقديرهم الكبير لمصر فهم يؤكدونه ويكررونه فهى وطنهم ومظلتهم التى يحتمون بها.

.. وأمام طوفان المشاعر والاستغراق فى الاعتذار، عاد الفريق أول صادق إلى قاعة

الاجتماعات وطلب من الجميع عدم الحديث فى المهمة التى جاء من أجلها.

ورأى أبوبكر يونس وزير الدفاع والخويلدى الحميدى الموافقة على الاقتراح.. ثم توجهوا بالرجاء لرئيس الوفد المصرى لقبول دعوتهم لتناول طعام الغذاء معهم.. ووافق الرجل.

وأثناء تناول الطعام طلبوا منه أن يحدثهم عن الموقف الحالى لخطوات الاستعداد للحرب.. واقترحوا عليه أن يقضى الليلة فى ليبيا كما كان مخططا ليتمكنوا من استشارته فى بعض القضايا. وانتقلوا للإشادة بكفاءته فى إدارة أزمة الانقلاب الشيوعى فى السودان.. ولم يبد اعتراضا عندما فتح العقيد القذافى فمه لأول مرة بعد الأزمة التى أثارها؛ ليكرر اعتذاره ويشكر صادق على موافقته على البقاء للتشاور معهم.

وتوجه الجميع إلى الفندق.. وصعد الفريق أول صادق إلى غرفته على أن يعود للقائهم بعد ساعة. وعندما هممت بالصعود إلى غرفتى أمسك القذافى بذراعى وسألنى وهو يبتسم: إلى أين؟!.. وأجاب أبوبكر يونس بالنيابة عنى قائلا: «إنه يريد أن يبعث بخبر الاجتماع وما جرى فيه لـ «الأهرام».. ورأيت أن عدم التعليق على ما قال هو الأمر الأنسب.. وأمام صمتى قال القذافى: إننا سننتظر هنا إلى أن يحل موعد نزول الفريق صادق. ثم سألنى: هل تبقى معنا؟!.. وعلى الفور قلت: إنه شرف لى أن تدعونى للبقاء معكم.

وانتقلنا جميعا إلى كافيتريا بالدور العلوى بالفندق بعد إخلائها من الموجودين وتأمينها.. ومباشرة سألنى عما إذا كنت مقتنعا أن الرئيس السادات يستعد فعلا للحرب.. أم أن الأمر مجرد مناورة لاستهلاك الوقت؟!.. فأجبته قائلا: إن أحدا فى مصر لا يملك الإجابة عن هذا السؤال إلا الرئيس السادات.. وواصلت قائلا: لقد طلب الرئيس فى أول اجتماع له بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة من القادة المجتمعين. تحرير ولو عدة سنتيمترات شرق القناة، وكان ذلك فى أكتوبر ١٩٧٠م ولكن إعداد الخطط لم يبدأ بشكل جدى إلا بعد أحداث مايو ١٩٧١م وهناك على اتساع رقعة مصر تجرى عمليات تدريب جادة ومكثفة لكل المستويات من كبار القادة حتى الجنود.. فقال: إننى أتابع ذلك، ولكننى لا أعرف مدى جدية السادات. وربما لو كان عبدالناصر موجودا لاقتنعت بجديته، وأعتقد أنه كان يستعد للحرب، وأن الخطط كان الفريق أول محمد فوزى قد انتهى من وضعها، وصدق عليها الرئيس.

وانتظرت أن يواصل الحديث، ولكنه أراد أن يسمع تعليقا أو تعقيبا. فقلت له: إننى سمعت الكلام نفسه من الفريق أول فوزى.

وأمسـك بطرف خيط آخر.. وقال: كان فوزى مقتنعـا أن عبدالناصر زعيم وقامة كبيرة وكثيرا ما قال: إن الميثاق وكتاب فلسـفة الثورة نظرية كاملة.. وإن خطبه مدرسة سياسية. فقلت له: حسـناً يا سـيادة العقيد.. طالما أن الميثاق وكتاب فلسفة الثورة نظرية سياسية، فهل يمكن مقارنة ذلك بنظرية ماركس مثلا؟!.. فقال: لو طال العمر بالرجل لتحول الميثاق إلى نظرية تنهل من منهل الاشتراكية العلمية.

ثم انتقل للحديث عن أسطورة العنف التى أحاطت بالفريق فوزى، وقال إنه سمع كثيرا أن الرجل كان عنيفا وقاسيا فى عقوباته. فأوضحت له أننى مقتنع أن فوزى كان هو القائد الذى لملم القوات المصرية المسـلحة التى عادت مبعثرة من سـيناء عقب الهزيمة فى يونيه ١٩٦٧م وبدون الشدة التى تميز بها وذاكرته القوية التى ساعدته على تذكر أسماء الأغلبية العظمى للضباط الذين تخرجوا من الكلية الحربية طوال سـنوات عمله الطويلة مديرا لها، وقدرتـه الهائلة علـى المتابعة، ما كان يمكن النجاح فى هذه الخطوة الضرورية لإعادة بناء القوات المسلحة.

فقال القذافى: إن الخطأ لا يقوم إلا بالعنف.. وهذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم الناس الصواب!!

وواصـل الحديـث وكأنه أراد أن يوضح أفكاره بصورة أفضل حول هذه النقطة فقال: لو لم يسلك عبدالناصر هذا الطريق، لما استطاع أن يحكم مصر. وكان حكيما عندما قرر إعدام كل من خميس والبقرى فى بداية الثورة. وكان أكثر حكمة عندما ضرب الإخوان المسلمين.

وسألته: هل تأكدت سيادتك أن العنف كان هو طريق عبدالناصر؟!.. وأدرك الرجل أن الإجابة محاطـة بالمحاذير، فلو أجاب بالإيجاب، فقد تحمل الإجابة إدانة لمعبوده، ولو قـال بعكـس ذلك، فكأنه ينكر كل ما قاله عن العلاقة بين العنف وتصويب أخطاء الناس. فانتقل ليسأل عن الوحدة العربية، ولكنه لم ينتظر الإجابة. وبدأ هو فى الإجابة عن سؤاله فقـال: إن الوحـدة هى الحلم العربى.. وإن طريق الوحـدة الوحيد يبدأ بالوحدة بين مصر وليبيا.. وإن الخطوة الأساسـية كما يراها هى إعداد الشـعب عسـكريا لكى يبدأ الزحف لإزاحة الحكام، وإقامة الوحدة بين الشعوب العربية. وقال: إنه سيلجأ لهذا الطريق إذا لم تتحقق الوحدة مع مصر عن طريق الاتفاق بين البلدين!!

ملحوظة:

لقـد حاول القذافى تنفيذ هذه الخطة.. واقتحمت قوافل من السـيارات الليبية الحدود المصرية.. وتمكنت السلطات من وقف تقدمها بالقرب من مرسى مطروح.

وانطلق معمر فى الحديث.. وهدد الحكام العرب.. واتهمهم إما بالتخاذل أو بالانهزامية. أو بالخيانة ولم يستثن أحدا.

وبعد أن انتهى من سـب الحكام، انتقل ليسـب الصحفيين فقال إنهم أدوات الرجعية العربيـة، واتهم عددا كبـيرا منهم بتقاضى أموال من الحكام العـرب، وأنهم فى ليبيا قد أعلنوا أسماء الذين كانوا يتقاضون أموالا من نظام السنوسى.

ولم أتركه ليواصل هجومه الظالم لعدد كبير من الصحفيين. وأكدت له أنه يصب غضبه علـى مَـن لا يعرفهم، ولو اقترب مـن الصحفيين لتبين أن الأغلبية تعـرف معنى احترام الكلمة والقلم، الذى أقسم به المولى فى كتابه الكريم. وتحولت للهجوم وقلت له: إن نظامه فتح خزائن ليبيا من جديد أمام هؤلاء الذين تعاونوا مع نظام الملك السنوسـى بعد فترة من التعالى على هذا النهج.. وبصراحة يحسـد عليها قـال معترفا: نعم بدأنا ندفع لعدد كبير من جديد.. ليس فى مصر فقط، بل وفى دول عربية كثيرة، وذلك بعد أن اكتشفنا أننا فى حاجة لأقلامهم وصحفهم، للدعاية لأفكارنا وثورتنا.. وتوقف ليقول: سأفشـى لك سـرا: سنشـترى صحفا وسننشئ قنوات تليفزيونية وإذاعات ودورا للنشر، تصدر صحفا ومجلات فى أى مكان نستطيع أن نصل إليه للدعاية لما نؤمن به!!.. وسألته: وأين موقع مصر من هذا التوجه؟!.. فقال ستكون هى الهدف الرئيسى.. فمن يكسب الرأى العام المصرى يقطع أكثر من نصف الطريق نحو أهدافه!!

وأقول له: لقد سبق أن تحاورنا، أبوبكر يونس وأنا حول هذه القضية منذ عدة شهور فى أعقاب انتهاء المناورة الكبرى أثناء عشاء بفندق البحر المتوسط بطرابلس فى سبتمبر ١٩٧١م فسأله: ولماذا لم تخبرنى يا بكر بهذا الحوار؟!.. فرد أبوبكر قائلا: لقد عرضت عليه قائمة بأسماء الصحفيين المصريين والعرب الذين تقاضوا أموالا من نظام الملك السنوسـى، فتركها على المائدة دون أن يتصفحها.. مما أصابنى بدهشـة شـديدة.. فكيف لا يدفعه الفضول إلى معرفـة هـذه الأسماء؟! وأذكر أنه قال: إن ثورة يوليو ١٩٥٢م نشـرت قائمة مماثلة خلال

الأشهر الأولى لها للذين تقاضوا أموالا من القصر الملكى ووزارة الداخلية. وحكى عن الأسماء التى أزاح عنها صلاح نصر مدير المخابرات العامة فى مصر أثناء محاكمته عام ١٩٦٧م والتى تضمنت العشرات من الصحفيين اللبنانيين والعرب وعددا من الصحف والمجلات العربية. ثم قال إن النظام الذى سبق أن فضح الصحفيين الذين كانوا يتقاضون أموالا هو النظام نفسه الذى قدم أموالا للآخرين. كما ذكر أن الأموال التى دفعها نظام عبدالناصر كانت أكثر بكثير مما دفعه النظام الملكى.

وفى النهاية قال: إنكم تكررون ما فعلته مصر من قبل.. تفضحون الصحفيين الآن، ثم تلجأون لنفس الأساليب فيما بعد؛ عندما تتبينون حاجتكم لمن يدافع عنكم وينشر مبادئكم.

فعقب القذافى قائلا: لقد صدقت توقعاته. أليس كذلك يا بكر؟!

ويتوقف الحوار مع وصول الفريق أول صادق بعد أن قضى ساعة فى غرفته.. وعرفت فيما بعد أنه اتصل بالسادات، وأحاطه علما بما قاله معمر بعد أن عاتبه على عدم إبلاغه بزيارة عزيز صدقى لليبيا التى كانت سببا فى تلك الأزمة.

واستقبله الوفد الليبى بفرحة حقيقية.. وأخبروه أنهم لم يغادروا الفندق.. وجلسوا فى انتظاره.. وتوجه بالحديث إلى معمر: هل أجريت مع عبده حديثا للنشر؟!.. فأجاب: سأجلس معه لنتحدث قبل نهاية هذه الزيارة.

وأثناء استعدادهم للتوجه إلى خيمة القذافى خارج بنغازى، استأذنت فى عدم الانضمام لهم، إلا أن الوفد الليبى أصر على أن أرافقهم.

وهناك فى الخيمة طرح العقيد قضيته التى فاجأت الوفد المصرى – وإن لم تفاجئ صادق – لأنه سبق أن عاصر القذافى وهو يطرحها على الرئيس جمال عبدالناصر من قبل. وها هو يعود لطرحها من جديد على أمل الفوز بموافقة كل من وزير الحربية ورئيس الجمهورية. لقد طلب قوة بحرية لحماية الشواطئ الليبية، وأن تكون تحت إمرته. وحاول إقناع الفريق صادق بالأمر بحجة أن هذه القوة ضرورية لتدريب القوات البحرية الليبية الوليدة التى يجرى بناؤها بالتعاون مع السوفييت.. وأوضح له وزير الحربية أن القوات البحرية المصرية كلها تجرى تدريباتها الآن استعدادا لمعركة مقبلة، ولا يمكن للقيادة أن تفكر فى الاستغناء عن أى قطعة منها. فقال معمر: إذن سأتحدث أنا فى الأمر مع الرئيس السادات؛ لأن حاجة ليبيا شديدة لمثل هذا التعاون، ويمكن للقيادة المصرية استدعاء هذه القطع قبيل بدء الحرب.

ويعـــود الوفــد المصرى إلى القاهرة صباح اليــوم التالى. وكانت مفاجــأة أن أتلقى مكالمة تليفونيـــة عقب وصولى من مكتب الرئيس الســادات، ليخبرنى أن الرئيس يطلب حضورى إليه، وأن ســيارة فى الطريق إلى منزلى الآن. فقلت لمن يحدثنى: ســأكون مســتعدا خلال دقائق.

وفى البداية ســألنى عما إذا كنت قد اســتمتعت بالزيارة؟ فأجبته بالإيجاب. فاستفسر عما جرى.. فأخبرته بما سمعته وشاهدته.. فقال: إن معمر قد تجاوز.. وموقف صادق هو الموقف الذى يجب أن يقفه أى مصرى.

وتوقعــت أنــه يريد أن يعرف النتيجة التى انتهت إليهــا الزيارة حتى ولو كان صادق قــد أبلغه بكل التفاصيل.. فقلت له: لقد اختار ســيادة الوزير أن يغلق ملف تمويل صفقة الســلاح، وألا يواصل مناقشــة الأمر بعد أن قال معمر ما قال، وقد طلب منهم ذلك صراحة بعد أن أقنعوه بالبقاء معهم، وقد استجابوا لطلبه.

وحكيت له، كيف حاولوا التعبير عن أسفهم لما جرى، وأنهم ظلوا فى الفندق فى انتظار عودة الوزير الذى صعد إلى غرفته للاستراحة لمدة ساعة.

وقصصــت عليه قصة الحوار معهم حول الصحافة والصحفيين طوال فترة الانتظار، وأن معمر قال: إنهم يدفعون للصحفيين من مصر ومن مختلف دول العالم العربى لنشر مبادئهم، فطلــب مزيدا من التفاصيل، وســألنى عما إذا كان القذافى قــد عرض على العمل فى هذه المشاريع، فقلت له: لم يقدم لى عرضا، لأنه سبق أن عرض على بإلحاح أن أعمل مستشارا له خلال المناورة الكبيرة التى قامت بها القوات المســلحة الليبية، فاعتذرت، فتحدث مع الفريــق أول صادق لإقناعى بقبول العمل معه، فقــال له، دعك منه، فهو لن يقبل بالعمل خارج مصر.

وبدأ الرئيس الســادات يتحدث عن الفريق أول صادق وعن وطنيته وصلابته فى الحق. ورجولته.. وبدأ يعدد مزايا الرجل وسجاياه.

فقلت لنفسى هذه رسالة طمأنة لصادق؛ تأتى فى وقت شعر فيه بالخشية من أن يكون قد أغضبه وتســبب فى هذا الموقف المحرج الذى تعرض له على يدى القذافى خلال هذه الزيارة. وكان الســادات خاصة بعد أحداث مايو ١٩٧١م وموقف صادق الحاسم ومساندته له فى صراعه الحاســم مع مراكز القوى التى أدت إلى حماية الشــرعية وحالت دون نجاح

الآخرين فى عزله، لا يشعر بالراحة، ويخشى أن يستثمر صادق سيطرته الواضحة على القوات المسلحة لحسابه، أو على الأقل لممارسة الضغط عليه.

إذن هو القلق والانزعاج من غضب وزير الحربية الذى استدعى هذا اللقاء، وبالتالى فإن رسالة الطمأنة هى الهدف.

ولم أجد بأسا فى أن أروى للرئيس محاولة القذافى إقناع صادق بضرورة إرسال عدد من القطع البحرية المصرية لحراسة الشواطئ الليبية، والاشتراك فى تدريب القوات البحرية الليبية التى يجرى إنشاؤها بالتعاون مع السوفييت. كما طلب منه محاولة إقناع سيادتك بالأمر. وواصلت قائلا: إنها المحاولة الثانية. فقال: إنى أعرف ألاعيب معمر جيدا!!!

❑❑❑

الفصل السادس

وسام..ورتبة فخرية من السادات

يمكن القول إن حرب الاستنزاف بدأت قبل أن تتوقف نيران معركة يونيه ١٩٦٧م عندما طلب اللواء صادق مدير المخابرات الحربية من المقدم إبراهيم الرفاعى عبور القناة مع مجموعة من رجاله لإعداد كمين بالقرب من رمانة على الطريق الساحلى لعرقلة تقدم القوات الإسرائيلية التى تتحرك بسرعة من العريش فى اتجاه مضايق سيناء لإغلاق مخارجها من ناحية الغرب، ومنع القوات المصرية المنسحبة من مواصلة انسحابها حتى يتم حصارها داخل المضايق بالطوابير المدرعة الإسرائيلية التى تطاردها من ناحية الشرق.

هذه الخطة التى أطلق الإسرائيليون عليها «المطرقة والسندان»، وكانت القوات المتقدمة من اتجاه الشرق هى المطرقة، فى حين شكلت القوات المتقدمة على الطريق الساحلى السندان، كان الهدف منها تدمير القوات المصرية المنسحبة فيما بين المطرقة والسندان.

وكان هدف اللواء صادق مدير المخابرات الحربية هو تأخير وصول القوات الإسرائيلية لفترة تسمح بعبور نسبة كبيرة من القوات المنسحبة.

وتمكن الرفاعى مع مجموعة محدودة من قوات الصاعقة من عبور القناة، وتحرك بسرعة على الطريق الساحلى من القنطرة شرق إلى منطقة رمانة. وهناك أعد عدة كمائن اعتمد فيها على بث ألغام على جانبى الطريق فى عدة مناطق، ونشر قواته فى مواقع حاكمة ومسيطرة للاشتباك مع القوات الإسرائيلية بعد انفجار الألغام.

ولم تكن القوات الإسرائيلية فى تقدمها تتوقع أى مقاومة بعد أن انهارت القيادة والقوات من جراء أمر الانسحاب الذى صدر شفاهة من القيادة السياسية للقوات الموجودة فى سيناء فى بداية المعركة.

وتابع الإسرائيليون الفوضى التى سادت كل سيناء من جراء عشوائية القرار الذى تجاهل كل ما نصت عليه العلوم العسكرية ومبادئ وقواعد الحرب والأساليب والخطط التى يجب أن تُتبع وتُراعى عند إصدار مثل هذا الأمر.

وكانـــت صدمة قائد القوات الإســـرائيلية المتقدمة كبيرة عندمـــا اصطدم بالكمين.. وأمام انفجـــار الألغام والنيران الكثيفة التى تعرضت لها قواته أمر بوقف التقدم والانتشـــار.. فقد اســـتنتج وجود قوة مصرية كبـــيرة لم ترصدها عمليات الاســـتطلاع.. وطلب تدخل القوات الجوية لإسكات النيران، والقضاء على هذه القوة قبل أن يواصل التقدم.

وبسرعة انسحبت قوات الكمين إلى موقع آخر.

ومر وقت طويل قبل أن تعاود القوات الإسرائيلية التقدم لتصطدم بالكمين التالى، وتعود وتتوقف، وتطلب المساعدة من القوات الجوية.

وهنا يقرر الرفاعى الانسحاب والعودة إلى غرب القناة بعد أن حقق الهدف من مهمته.

وكانت تلك العملية هى بداية العمل ضد القوات الإسرائيلية فى سيناء، ونقطة الانطلاق على طريق رفض الهزيمة، وضرورة الاستعداد للمعركة المقبلة.

ولأن إبراهيم الرفاعى اجتهد فى تنفيذ المهمة، وعمل من أجل تحقيق الهدف المطلوب بصورة تتجاوز ما طُلب منه، فقد كان المطلوب إعداد كمين لعرقلة تقدم القوات الإسرائيلية؛ حتى تتاح الفرصة أمام نســـبة من القوات المنســـحبة للوصول إلى غـــرب القناة. ولكنه أعد كمينين.. ودافع عن الأول بالنيران.. أى اشـــتبك مع القـــوة المتقدمة بالرغم من أنها طابور مـــدرع. وأن الحجـــم لا يقارن بقوة مجموعتـــه المقاتلة محدودة العـــدد، لكى يجبرها على التوقف. ثم أعد الكمين الثانى على مسافة من الكمين الأول.

وأدى الكمينان دورهما فى عرقلة تقدم القوات الإســـرائيلية لفترة أطول مما توقع اللواء محمد صادق. فقد اســـتحق أن يكون المرشـــح الوحيد لقيادة القوة الفدائية التى ســـتتحمل مسئولية تنفيذ عمليات خلف خطوط العدو.

وقـــاد إبراهيم الرفاعى مجموعة من الكوماندوز التى حملت اســـم المجموعة ٣٩ قتال.. ونفذ مئات العمليات طوال سنوات حرب الاستنزاف.

وبهـــذه العمليات تمكن من تحطيم أســـطورة القائد والمقاتل الإســـرائيلى الســـوبر الذى لا يقهـــر، وعمل على تشـــجيع القـــوات الموجودة بالجبهة على تنفيـــذ عمليات ضد قوات الاحتلال.. وهكذا تم التوسع فى عمليات الاشتباك مع العدو.. وأدرك الجميع أن الانتصار ممكن.. بل وضرورى.

وتتوقف معارك الاستنزاف اعتبارا من أغسطس ١٩٧٠م تنفيذا لمبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكى التى قبلتها كل من مصر وإسرائيل.

ويرحل عبدالناصر عن عالمنا، ويتحمل السادات المسئولية بعده، وتشهد مصر صراعا على السلطة بينه وبين مجموعة الورثة ينتهى بانتصار السادات.

ويقرر السادات تكريم المجموعة ٣٩ قتال؛ تقديرا لدورها الكبير وإنجازاتها التاريخية، ويحمل التكريم رسالة إيجابية للفريق أول صادق وزير الحربية الذى شمل هذه المجموعة بالرعاية والإشراف الكامل منذ ما قبل ميلادها وحتى لحظة إقالته فى أكتوبر ١٩٧٢م.

أى أن التكريم للمجموعة من وجهة نظر السادات عملية إرضاء للرجل الذى حافظ على الشرعية، أى حافظ على بقاء السادات مستقرا ومتربعا على مقعد رئيس الجمهورية.

وكان السادات يعلم أيضا أن هذه المجموعة انحازت للفريق صادق ولم تنحز لمحمد فوزى وزير الحربية خلال صراع السلطة، وكان لرجالها دور فى إفساد قسم قادة الصاعقة على الولاء للقائد العام محمد فوزى، وبالتالى حالوا دون انحيازها لمحمد فوزى خلال هذه الأيام الحاسمة، كما أنها القوة التى تحملت مسئولية حراسة وتأمين مبنى وزارة الحربية والقيادة العامة للقوات المسلحة خلال احتدام الأزمة.

وتحدد يوم ١٢ أغسطس ١٩٧١م للتكريم. وخلال مراحل الاستعداد لهذا الاحتفال، رفضت الوقوف فى طابور العرض بالزى العسكرى، وصممت على ارتداء الزى المدنى.. وأشرح للجميع أسبابى ومنطقى.. لقد تطوعت بالصفة المدنية وقبل جمال عبدالناصر تطوعى، وقاتلت مع المجموعة كمتطوع مدنى وبالتالى لا أجد مبررا أو سببا يحول بينى وبين الاشتراك فى الطابور بالصفة نفسها التى تطوعت بها.

ويرفض كل من اللواء عزالدين مختار، نائب مدير المخابرات، واللواء محرز عبدالرحمن مدير المخابرات الحربية الموافقة على طلبى. ويحاول كل منهما إقناعى بارتداء الزى العسكرى، ويؤكدان أنهما لن يسمحا بوقوف مدنى فى طابور عسكرى.. وأعلن لهما أننى لن أشارك إلا بالصفة نفسها التى تطوعت وقاتلت بها.. وحاول كثيرون إثنائى عن موقفى دون جدوى.

ولأن ما أطالب به بالرغم من وجاهته، ووضوح المنطق الذى يستند إليه، مخالف

للمألوف وما جرى عليه العمل، فقد تقرر رفع الأمر إلى المستويات القيادية الأعلى؛ خاصة أن قيادة المجموعة ٣٩ قتال كانت تتبنى وجهة نظرى. وترى أن من حقى أن أشترك فى الطابور بصفتى المدنية.

ويصــل الأمر مــرة أخرى إلى رئيس الجمهورية القائد الأعلى وهو الســادات.. وبعد أن يســتمع إلى وجهتى النظر. يحســم الأمر ويقول للقادة العسكريين: إذا كنتم قد قبلتم طلبه للتطوع بالصفة المدنية، فلماذا تنكرون عليه حقه الآن فى الاشتراك فى طابور التكريم بهذه الصفة؟!

.. وفى أول.. وربما آخر استثناء من نوعه فى تاريخ القوات المسلحة.. أشترك فى طابور العرض يوم تكريم المجموعة ٣٩ قتال بالزى المدنى، وأقف مع الرجال الذين قاتلت معهم وشاركتهم حياتهم بقدر ما سمحت به الظروف.. مرتديا البدلة المدنية.. وأحمل على كتفى جهاز تســجيل. ويأتى دورى لأصافح الرئيس.. وأقدم له نفســى وصفتى. فيتوقف مشجعا وشــاكرا مــا قمت به. ويطلب من الفريق أول صادق وزيــر الحربية تكريمى.. ومنحى رتبة عســكرية فخرية. ووســاما عسكريا. وقال كلاما طيبا كثيرا فى حقى على مرأى ومسمع من الجميع.

وينفذ الوزير طلب الرئيس، ويتم منحى نوط الشــجاعة من الطبقة الأولى، ويصدر قرارا بتكليفــى برتبــة الرائد لأواصل حمل مســئولياتى بالمجموعة ٣٩ قتــال بجانب عملى فى جريدة «الأهرام».

ومثلما كان الاســتثناء الأول من الرئيس جمال عبدالناصر بقبول تطوعى بالمجموعة ٣٩ قتال ملفتا للنظر ومؤثرا بعمق فى حياتى ومســيرتى الصحفية، فإن الاستثناء الثانى بقبول وجودى فى طابور عســكرى بالزى المدنى فى مناسبة تكريم المجموعة ٣٩ قتال. كان ملفتا للنظر بشكل أوضح لعلنية المناسبة التى تمت تغطيتها إعلاميا. إلا أنه لم يؤثر بالعمق نفسه على حياتى أو على عملى.

والذى لا شــك فيه أن الاســتثناءين حفرا بعمق.. وتركا تأثيرا قويا وجميلا وفعالا على حياتى.

ولم أكن أعرف وأنا فى طابور التكريم.. أن الرجل الذى أشاد بى وبدورى وأمر بمنحى رتبة عسكرية فخرية ووساما عسكريا.. سيقرر بعد ١٥ شهرا فصلى من عملى!!

هذه الفترة شــهدت أحداثا كثيرة فرضتها الظروف.. ومنها دورى فى مظاهرات يونيه ١٩٧٢م.

وكان طلبــة الجامعات قد بدأوا الاحتشــاد والتظاهر للمطالبــة بالحرب.. وواكب ذلك انضمام نخبة من الكُتَّاب والمفكرين والمثقفين والصحفيين للجموع المطالبة بالحرب.. ووقعوا بذلك وثيقة أرسلوها للرئيس السادات.

وفوجــئ الموجــودون داخل مبنى «الأهرام» الجديد بشــارع الجلاء بجمــوع المتظاهرين تحتشد أمام المبنى.. وتهتف هتافات معادية.. منها: «هيكل.. هيكل.. يا خدام.. يا مزيف الأحلام».. بجانب الهتاف بســقوط الرئيس السادات.. وطالب المتظاهرون بالحرب لتحرير الأرض المحتلة ونصرة الثورة الفلسطينية ومواجهة المخططات الأمريكية والإسرائيلية.

كان الحشــد يمتد من أول شــارع الصحافة وحتى نهاية مبنى مجمع المحاكم المجاور للأهرام بشارع الجلاء وفقا لتقدير البعض.. كان هناك ما يقرب من ١٠ آلاف متظاهر على رأسهم الطلبة.. ولكن كان هناك مواطنون وعدد لا بأس به من «فئران الشوارع».

كان الصخب عاليا أمام المبنى الحديث بواجهاته الزجاجية الأنيقة.. ومن نوافذ المبنى المطلــة على شــارع الجلاء اتجه كثير مــن الموجودين داخل المبنــى بأبصارهم إلى الخارج لاستكشاف الأمر ومعرفة ماذا يجرى.. فتبينوا وجود هذه الحشود الغاضبة المزمجرة.

وتوقفــت عجلــة العمل علــى الأقل بالأدوار المخصصــة للتحرير.. وأبطــأت فى باقى الإدارات. واتجهــت أعداد كبيرة من الكُتَّاب والصحفيين والمديرين والمســئولين والإداريين والعمال إلى الدور الأرضى.. وتجمعت فى بهو المدخل الرئيسى.. ومن خلف زجاج الواجهة وقفوا ينظرون إلى جموع المتظاهرين وهم يزأرون فى سخط.

ومع استمرار المتظاهرين فى ترديد هتافاتهم التى تصك الأسماع، وتزايد أعداد اللافتات المرفوعة والتى تحمل شــعاراتهم ومطالبهم، بدأ القلق ينتاب أبناء أسرة «الأهرام» وتحسبوا من احتمالات تطور الموقف تطورا غير محسوب.

وعندمــا تلفتوا حولهم بحثا عن مخرج، تبينوا أنه لا مخرج من هذا الموقف العصيب.. وكان المســئولون بالأهرام يعلمون أن الأســتاذ هيكل ليس موجودا بالأهرام ليتولى التصرف ومواجهة هذه المشــاكل بمــا هو معروف عنه مــن حنكة وخبرة وحكمــة.. وبالتالى فإنهم مطالبون بحمل المسئولية.. ولكن كيف؟!.. ولم يكن هناك من يملك الإجابة.

وتعلق الجميع بالأمل فى أن تنفرج الأمور بشــكل تلقائى، أو أن تتحرك المظاهرة بعيدا بعــد أن حققــت هدفها. ولكن هذا الأمل بدأ يتســرب من بين أيدى الجميع مع اســتمرار المتظاهرين فى أماكنهم، ومواصلتهم ترديد نفس الهتافات.

وهذه المظاهرة لم تكن ســوى امتداد واســتمرار لموجات التظاهر التى عادت مجددا إلى شــوارع القاهرة وباقى محافظــات مصر بعد أن ضعفت قبضة الســلطة نتيجة لنكبة يونيه ١٩٦٧م. وقبل ذلك كانت المظاهرات قد اختفت تماما فيما عدا تلك التى تتحرك بتعليمات من أهل الحكم بعد أن اســتتب الأمر للرئيس عبدالناصر.. وكانت جملة السياســات تضع أمــن وحماية النظام فى المقــام الأول. وكانت بداية انطلاق موجــات المظاهرات من جديد فــى فبراير ١٩٦٨م. وقد خرجت المظاهرة الأولى بتخطيط وموافقة النظام؛ بهدف امتصاص غضب المواطنين من نتائج محاكمة قادة الهزيمة، ولكنها ســرعان ما تحولت إلى مظاهرات معادية للنظام وسياساته، وتجددت المظاهرات فى نوفمبر ١٩٦٨م.

ولجــأ النظام إلى أســاليب القمع لوقف هذه الموجة.. ولم ينس أهل القمة والســلطة أن رئيس الجمهورية كان قد أمر بإعداد طائرة للتوجه فى رحلة إلى خارج مصر أثناء مظاهرات فبراير ١٩٦٨م وذلك قبل أن تتمكن السلطة من تفريقها.

وعندما تولى السادات السلطة بعد وفاة عبدالناصر. ونجح فى إزاحة مجموعة الورثة خلال عاصفة مايو ١٩٧١م، اشــتعلت نيران الكراهية فى معســكر القوى اليســارية.. ولم يغفــر قادة هذه القوى للســادات اجتراءه على الاصطدام بفريق عبدالناصر وســدنة نظامه، والزج بعدد منهم فى الســجون، بالإضافة إلى عدد من قيادات اليســار بالرغم من أنه اســتعان بعدد من الشــيوعيين للعمل كوزراء فى الحكومات التى تشــكلت طوال ســنوات حكمه الأولى.

وبجانب هذا كانت قوى اليســار ترى فيما أقدم عليه الســادات حرمانا لها من إمكانية الســيطرة على الأوضاع فى مصر ولم يكن بينهم «أى بين» اليســاريين وتحقيق حلمهم فى اعتلاء قمة السلطة سوى خطوة أو بضع خطوات.

وفى بداية عام ١٩٧٢م رأت قيادات قوى اليسار أن الظروف قد أصبحت مواتية للضغط على السادات، وزعزعة الاستقرار فى محاولة لتغيير خططه أو عرقلتها على الأقل.. والأهم لتشكيك المواطنين وقوى أخرى بالخارج فى قدرته على قيادة مصر.

وهــذه الظــروف المواتية كما تصوروها. برزت بعد انتهاء عــام ١٩٧١م الذى أطلق عليه الســادات عام الحســم دون حســم. وكان الحســم يعنى إطلاق الحرب من عقالها لتحرير الأراضى المحتلة.

ويــوم ١٣ يناير ١٩٧٢م ألقى الســادات خطابا أعلن فيــه أن الضباب حال بينه وبين تنفيذ وعده بالحسم، ثم أوضح أن اندلاع الحرب بين الهند وباكستان فى ديسمبر ١٩٧١م ورفض الســوفييت فتح جبهة ثانية فى الوقت نفسه لانشغالهم بمساندة الهند فى معركتها كان وراء تأجيل الحسم.

ووجــد قادة اليســار فى طلبة الجامعــات بغيتهم من أجل فتح جبهــة معادية للنظام الســاداتى. وفعلا بدأت المجموعات اليســارية داخل الجامعة فى العمل.. وتشكلت لجنة وطنية للطلبة بعيدا عن اتحادات الطلبة لقيادة الحركة الطلابية.

وفى خطوة تالية نظم الطلبة أســبوعا للثورة الفلســطينية فى بداية عام ١٩٧٢م لإثارة مشــاعر الطلبة وتأجيج حماسهم، والدعوة للمعركة، ومساندة الثورة الفلسطينية، ثم بدأت عمليات الاعتصام داخل الجامعات خاصة جامعة القاهرة.

وبعد أن أخلت قوات الأمن جامعة القاهرة من المعتصمين، اتجه الطلبة لاحتلال ميدان التحرير لتوســيع نطاق المواجهة مع النظام وإثارة حماس الشــارع المصرى، وكسب تعاطفه ومحاولة جرجرته للاشتراك فى الصدام ضد النظام.

وقضــى الطلبة والطالبات الذين تجمعوا فى ميدان التحرير ليلة ٢٤ و٢٥ يناير ١٩٧٢م بالميدان، واســتغلوا الوقت فى توزيع المنشــورات والمطبوعات والرسوم الكاريكاتورية على المواطنين من المارة وركاب الســيارات والأتوبيســات. وفى النهاية أنهت قوات الأمن هذا الاحتلال الطلابى للميدان، وعادت المظاهرات على شــكل مجموعات صغيرة ومتفرقة، وما أن يتم فض مظاهرة حتى تبدأ أخرى؛ وبما يشــير إلى وجود مركز عمليات وقيادة متطورة. ولا شــك أن هناك خبرات كانت تعمل فى هذا المركز لتقديم الاستشارة والنصح لمن يقودون حركة الطلبة.

وركزت هذه المظاهرات على مهاجمة الرئيس الســادات والســخرية منه ومن أســرته.. وطالبت بالحرب وبفتح معســكرات التدريب أمام الطلبة وتوفير الســلاح لهم، وفتح الباب أمام المتطوعين.. كما هاجمت الحكومة باعتبارها حكومة هارفارد؛ لأنها كانت تضم ثلاثة

وزراء مــن خريجــى جامعة هارفــارد الأمريكية وهم: عزيز صدقى، ومحمد زكى هاشــم، ومحمد عبدالله مرزبان.

وتضمنت الهتافات الهجوم على عزيز صدقى، وســيد مرعى، وهيكل وموســى صبرى. وهذه المجموعة هى التى ساندت السادات بقوة خلال عاصفة مايو ١٩٧١م.



الفصل السابع

لقاء بين السادات وكمال حسن على

أمـام أحـداث يونيـه ١٩٦٧م قررت قطع الدراسـة والعودة من برلـين إلى القاهرة فى منتصف شهر يونيه لتحمل مسئولياتى كصحفى وكمواطن فى هذه المرحلة التى تعانى فيها مصر من هزيمة عسكرية مروعة.

وكنت أشـعر ببعض الرضا لأننى قمت ببعض واجبى تجاه بلدى. حيث نظمت حملة تبرعات بالاشـتراك مع عدد من الزملاء الدارسـين بألمانيا الشرقية وصلت حصيلتها إلى ٢ مليون مارك ألمانى غربى، تحولت إلى حمولة طائرة من المعدات والأجهزة الطبية.

وبعد العودة وجدت نفسى أمام مجموعة من المهام فى مقدمتها مواساة أسر الشهداء من الأقـارب والأصدقاء والمعارف وزيارة الجرحى الذين تربطنى بهم علاقات صداقة أو عمل، ثم محاولة طرق أبواب المعلومات لمعرفة ما يمكن من حقائق ما جرى.

وزرت عددا كبيرا من أسـر الشـهداء وجاء الدور لزيارة المستشفيات والالتقاء بالجرحى والمصابـين.. ولأن علاقتى كانت وثيقة باللواء كمال حسـن على قائـد اللواء الثانى المدرع خـلال المعركة منذ التقيت به أثناء تحمله لمسـئولية رئيس عمليات القوات المصرية باليمن طـوال الفترة من ١٩٦٣م وحتى عام ١٩٦٥م وتواصلت بعـد أن انتقل للعمل كمدير لمكتب الفريـق عبدالمحسـن كامـل مرتجى قائد القـوات البرية، فقد قررت أن أبـدأ زيارته فى مستشفى المعادى للقوات المسلحة.

ولقيـادة القـوات البرية حكاية تتطلب التوقف أمامهـا.. فبعد أن أصدر الرئيس جمال عبدالناصر قرارا بتعيين الفريق أول محمد فوزى مدير الكلية الحربية لسنوات طويلة. رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة بدأ العمل للالتفاف من حول القرار وإفراغه من مضمونه.

ومن بين مسـئوليات هذا المنصب قيادة القوات البرية.. ومثل هذه المسـئوليات فى ظل الشـكوك والعلاقات المتوترة بين كل من الرئيس ناصر والمشـير عامر، تثير مخاوف المشير ومعسكره لأنها ستؤدى إلى الإخلال بالتوازن الهش بين الرجلين.

وكان الحل الذى توصل إليه المشير ورجاله هو حرمان محمد فوزى من السيطرة على القوات البرية بكل تشكيلاتها بإنشاء قيادة للقوات البرية مماثلة لكل من قيادة القوات الجوية والبحرية.. واختار المشير الفريق عبدالمحسن كامل مرتجى قائدا لهذه القوات.

هكذا كانت تصدر القرارات..

وللقضية خلفيات أخرى.. فالفريق فوزى قريب لسامى شرف مدير مكتب الرئيس والرجل القوى بالرئاسة.. أى أنه سيكون القائد العسكرى الموالى تماما للرئيس ولن يكون أبدا من رجال المشير عامر. ومثل هذه القرابة وهذا الاختيار كانا من أهم أسباب المخاوف التى اعترت المشير ودفعته للتحرك لإحباط المخطط وحرمان عبدالناصر من أى قوة أو قيادة عسكرية يمكنه الاعتماد عليها.

وخلال الأسبوع الثالث من يونيه قمت بزيارة كمال حسن على.. كان الرجل قد أجريت لـه جراحتان ناجحتان وفقا لتوصيف الدكتور عبدالحميد مرتجى مدير المستشفى الذى التقيت به أولا.. كما أخبرنى الرجل أن حالته الصحية جيدة ومطمئنة جدا، وسرعان ما سيعود لمباشرة عمله. ولم ينس أن يقول لى إنه القائد الأعلى رتبة بين الجرحى والمصابين الموجودين بالمستشفى.

وعندما دخلت حجرته، فوجئ بحضورى.. ولم يكن يعلم أننى سافرت إلى ألمانيا للدراسة. وسأل مستفسرا: أين كنت مختفيا؟!.. فقلت لنبدأ بالاطمئنان عليك أولا وعلى حالتك الصحية. فقال: لقد نجوت من موت محقق سواء أثناء المعركة أو بعد الإصابة أو أثناء الانتقال إلى مستشفى الهلال بالسويس.. كانت رحلة عذاب وآلام لا تحتمل.

وقصصت على الرجل قصة سفرى إلى ألمانيا للدراسة.. وأننى قطعت البعثة الدراسية وعدت منذ أيام. ورويت له كيف كنا نتابع الأنباء من خلال الصحف والإذاعات وقنوات التليفزيون الألمانية.

وطلبت أن أسمع قصة إصابته، فأخذ يحكى منذ لحظة التحرك بقواته إلى قلب سيناء حتى لحظة إصابته فى بطنه يوم ٨ يونيه.. وقال: كان الأمر مأساة تقترب من حدود الملهاة؛ فقد بلغ عدد المهام التى كلفت بها ما يقرب من ١٥ مهمة.. وظللت أتحرك بقوات اللواء على الجنازير لأيام متواصلة دون أى راحة أو استقرار لأكثر من ساعات وأحيانا لدقائق.. كل شئ يمضى بشكل عشوائى.. لا خطط عمليات واضحة.. ولا يوجد هدف محدد دفاعى أو هجومى لدى القيادة تجرى التحركات فى إطاره.

كنت أتسلم المهمة وأتحرك بالقوات. وما أن أصل حتى أتسلم مهمة أخرى.. فأواصل التحرك حتى نصل إلى المنطقة المطلوبة.. وتبدأ القوات فى الانتشار واتخاذ مواقعها.. ثم نفاجأ بمهمة جديدة.. وهكذا.

جبنا سيناء شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وقد قطعت وحدات اللواء أكثر من خمسمائة كيلو متر خلال عدة أيام.

ثم يقول: لقد بدأت قوات العدو البرية المدرعة فى الظهور خلال اليوم الثالث للحرب بعد أن تمكنت قواته الجوية من إخراج القوات الجوية المصرية من المعركة صباح يوم ٥ يونيه، ومن إسكات وتدمير وسائل الدفاع الجوى.. وبعد أن تأكدت القيادة الإسرائيلية من انتشار الفوضى بعد صدور أمر الانسحاب وضرورة تنفيذه خلال ٢٤ ساعة.

ويعلق كمال حسن على: إن الأمر يعد تجسيدا نموذجيا لتخبط القيادة.. أما تنفيذه فهو المستحيل. وكانت النتيجة أن القوات تركت أسلحتها وبدأت تتجه غربا على الأقدام لعدم وجود طرق تكفى تحركات عودة هذه القوات التى استغرق حشدها ما يقرب من ثلاثة أسابيع.

وفى ظل هذه البعثرة الهائلة للقوات، أخذت القوات البرية الإسرائيلية تتقدم باتجاه القناة.

ويوم ٨ يونيه كان اللواء يتخذ مواقعه بممر الجدى حين لاحت بوادر معركة مع القوات المدرعة الإسلائيلية.. وفعلا بدأ الصدام فى ظل ظروف غير مواتية إطلاقا لقوات اللواء الثانى المحروم من المظلة الجوية والموجود فى العراء فى الصحراء. وبالرغم من الإنهاك وهذه الظروف، تمكنت قوات اللواء من تدمير ٦ دبابات وعربة مدرعة خلال لحظات المعركة الأولى.. فى حين لم تخسر سوى دبابتين.

بعدها قررت القيادة الإسرائيلية الخروج من هذه المعركة لإفساح المجال للقوات الجوية لكى تقوم بدورها فى الهجوم على دبابات اللواء وعرباته المدرعة.

ويصف القائد المعركة بالنقطة المضيئة فى تاريخ سلاح المدرعات المصرى بصفة خاصة والقوات المسلحة بصفة عامة.

وعن إصابته قال: كنت أتحرك بالسيارة عندما تعرضت لقصف جوى.. وأدى سقوط صاروخ جو أرض وانفجاره بالقرب من السيارة إلى انقلابها وإصابتى بجرح فى البطن..

شعرت به فى الحال، وقد ظللت راقدا على الأرض لما يقرب من ٢٠ دقيقة إلى حين وصول قائد إحدى الكتائب بسيارته. وقبل نقلى للعلاج حاول فك الحزام، إلا أننى رفضت ذلك لأننى سبق أن قرأت فى أحد الكتب أنه يجب الاحتفاظ بالحزام مربوطا فى حالة الإصابة حتى لا يزداد النزيف الداخلى، وكان هذا الرفض سببا فى بقائى على قيد الحياة.

أما الرحلة إلى السويس فقد كانت محنة وعذابا وألما؛ فكل صعود أو هبوط للسيارة يضاعف من حجم الألم. ولم يكن الطريق ممهدا. ولا آمنا؛ فقد كنا نتحرك تحت سماء سيطرت عليها القوات الجوية المعادية. وانتهت الرحلة بالسويس بعدها تم نقلى إلى هنا.

وأخذ يسأل عن ألمانيا وعن أسلوب معالجة الإعلام هناك للمعركة. وراعيت الاختصار بقدر الإمكان وأنا أقص عليه قصة حملة التبرعات التى بدأت بعد أن قرأت إعلانا على مدخل أكبر المراكز التجارية ببرلين يدعو الألمان للتبرع بمارك لقتل عربى: «ادفع ماركا.. تقتل عربيا».. توقفت أمام قصة المنشور البعثى.. وقلت له: إن مجموعة من الدارسين كانت تضم شخصيات رئيسية من حزب البعث السورى. ومن خلال الاحتكاك المباشر توثقت العلاقة بينى وبين بعضهم. وأمام الثقة التى ربطت بيننا قدم لى أحدهم منشورا صدر فى سوريا فى نهاية صيف عام ١٩٦٦م كان المنشور يقول بوضوح إن عبدالناصر قد انتفخ وتضخم كالبالون، وأنه قد آن الأوان لإفراغ هذا البالون من الهواء لكشف حقيقته للرأى العام فى العالم العربى.

وكان منطقيا أن أصاب بالفزع والصدمة، وأن أستنتج أن المنشور يكشف أن حزب البعث السورى قد انتهى من حبك مؤامرة تستهدف إما القضاء على عبدالناصر، أو تحجيمه أو تشويه صورته جذريا بطريقة تنزع عنه هيبته وحالة الزعامة التى تحكم قراراته وتصرفاته.

وكان لابد من إرسال المنشور للرئيس عبدالناصر؛ على أمل أن يعالج الأمر بما يؤدى إلى إحباط هذا المخطط أو هذه المؤامرة.

وقد أرسلته فعلا خلال شهر مارس ١٩٦٧م.

وبعد تصاعد الحديث عن حشود إسرائيلية عسكرية مدرعة على الحدود السورية. وزيادة حدة التوتر فى المنطقة، تضاعفت خشيتى من أن تكون المؤامرة البعثية قد وجدت حلفاء.. وأن ما يجرى هو المقدمات.

وبعد اندلاع الحرب، ظهرت الصورة واضحة إلى حد كبير.

وقال الرجل: يبدو أنك كنت من أوائل من دقوا أجراس الإنذار، وربما لا تعلم أن هناك جهات كثيرة وشخصيات مهمة متعددة قد دقت أجراس الإنذار طوال الفترة التى سبقت اندلاع الحرب، ولكن القيادة بدا وكأنها لا تريد أن تسمع.

وتوقف كمال حسن على ليخبرنى أن السيدة جيهان السادات قد زارته.. وقضت وقتا طويلا معه. وقال إنه تحدث معها بصراحة ووضوح وكشف لها كثيرا من الحقائق التى عرفها أو عاشها.. وقص عليها تجربته طوال أيام الحرب.

وهنا دخل الطبيب الجراح الحجرة ومن ورائه عدد من مساعديه لتغيير الضمادات.. فغادرت الغرفة للانتظار فى الصالون الملحق بها فى انتظار انتهاء الطبيب من مهمته.

وما هى إلا لحظات ورأيت أنور السادات رئيس مجلس الأمة فى ذلك الوقت يدخل الغرفة.. وقلت له وهو يصافحنى: إن الطبيب يقوم بتغيير الضمادات.. ولم يمنعه ذلك من مواصلة طريقه.. وبعد ترحيب القائد بالسادات، توجه بالرجاء للطبيب بالعودة فيما بعد لمواصلة مهمته.

وطالت مدة الزيارة إلى أكثر من ثلاثة أرباع الساعة.. بعدها طلب السادات أن أنضم لهما.

وسألنى السادات عن حكاية المنشور البعثى الذى أخبره كمال عنه، فحكيت له الحكاية بكل تفاصيلها. فقال: إن جمال حدثه عن منشور بعثى يهاجمه، أرسله له صحفى مصرى يدرس فى ألمانيا. ولم يخبرنى أنك من أرسلت إليه هذا المنشور.. ولا أدرى لماذا؟!.. فقد سبق أن حكى لى عن قصة لقائك بالملك فيصل، ووصف مواجهتك للشيخ كمال أدهم مدير المخابرات السعودية وشقيق زوجة الملك وللأمير عبدالله الفيصل أكبر أبناء الملك بالشجاعة الأدبية. وعبر عن رضائه عن أسلوب إدارتك للحوار الصحفى مع الملك فيصل. وقال: إنك صحفى فاهم شغله.

ثم عقب قائلا: إنه بالقطع لديه أسبابه.

فتساءل كمال حسن على قائلا: وهل توقعت سيادتك أن يتحدث سيادة الرئيس عن منشور وصفه بأنه كالبالون؟!

ولم يكن ممكنا الاستمرار فى الحديث عن المنشور البعثى. والرئيس عبدالناصر أكثر من ذلك.. فاتجهت بالحديث إلى ناحية أخرى.. وعدت إلى ما أخبرنى به القائد عن المعركة

التــى خاضها ضد القوات المدرعة الإســرائيلية فى ظروف غــير مواتية، ومع ذلك أرغمته على الخروج من المعركة. فقال السادات: إنها معركة مشرفة.. وعندما سمعت عنها رأيت أن أسمع تفاصيلها من قائد المعركة شــخصيا. ثم توقف وقال مخاطبا كمال حســن على: يا كمال.. إن هذه المعركة هى عنوان للثقة بالنفس وبالقوات المســلحة.. لقد تم اســتدراج مصر إلى مجزرة عســكرية، ولكن هذه المعركة وما يماثلها من مبادرات شجاعة على امتداد الجبهة أنقذت شــرف مصر والعسكرية المصرية، كما أنها ومضات الأمل التى انبعثت فى ليلة حالكة الظلام؛ لتنير لنا الطريق إلى الغد.

وكان بذلــك كأنــه يفكر بصوت عال.. ولكن هذه الإشــارات المبكــرة كان من الصعب قراءتها وكانت مفهومة فى ضمير المتحدث. وتعمل على تشــكيل وصياغة تفكيره. وعندما هم الســادات بالانصراف، اســتوقفه كمال حسن على وطلب منه أن يخطط للمعركة المقبلة أهل الخبرة من العسكريين المحترفين المتعلمين.. لا أهل الثقة أنصاف الجاهلين المتعالين.

كانت كلمات شجاعة.. استمع إليها السادات بكل كيانه وإن لم يعقب أو يرد.. ومضى فى طريقه.



الفصل الثامن

لقاء مع السادات فى موسكو(١)

اتصل بى كل من لطفى الخولى ومحمد سيد أحمد الزميلين بـ«الأهرام» لدعوتى على قدح من الشاى بفندق سميراميس، وتحدد الموعد على ضوء ارتباطاتى وظروف عملى، والتقينا، ووجدت بصحبتهما الصحفية الفرنسية «جوزيت آليا»، التى كانت تعمل وقتذاك بجريدة «نوفيل أوبزر فاتور».. ودار الحديث حول قضايا برزت على الساحة بعد نجاح السادات فى إقصاء مجموعة الورثة. كنا فى بداية خريف ١٩٧١م، وكان السادات قد بدأ بفرض أسلوبه، وكانت الجبهة الممتدة على امتداد شاطئ القناة ملتهبة.. وتطرقنا جميعا فى أحاديثنا عن احتمالات المستقبل وشكل المعركة المقبلة، واعتبر لطفى الخولى هذه القضية مدخلا ليسألنى تقديم خدمة للصحفية الفرنسية التى وصفها بأنها نصير قوى للقضية الفلسطينية بالحصول لها على تصريح من المخابرات الحربية لزيارة الجبهة والالتقاء بعدد من القادة والضباط والجنود، فوعدته بالمحاولة.. وفى اليوم التالى، أخبرته أنها يمكنها لقاء عدد من القادة والضباط والجنود الذين يخدمون بالجبهة خلال ساعات، أما زيارة الجبهة فتتطلب عدة أيام لاستخراج التصريح المطلوب، وتحديد الأماكن والمناطق التى يمكن زيارتها، فقال إنه سيتصل بها ليعرف منها الإجابة، وبعدها سيتصل بى تليفونيا، ولم يستغرق الأمر منه وقتا طويلا، فقد تلقيت منه مكالمة أخبرنى خلالها أنها ترحب بلقاء هذه المجموعة من رجال الجبهة. ورتبت لها الأمر، ورافقتها خلال هذه اللقاءات. كانت سيدة فى الثلاثينيات من عمرها، أنيقة، جميلة، مثقفة، بارعة فى عملها، وطوال حوارها، كانت تبحث عن أبعاد الصورة، وطبيعة الموقف على الجبهة، وقدرة الرجال على تحمل ضغوط المعارك، والعبء البدنى والنفسى لمثل هذه المواجهة المستمرة. وقد وفرت لها المخابرات الحربية مترجما من اللغة العربية إلى الفرنسية، ليسهل عليها إجراء الحوار. وقد لفت نظرها أن أحد من رجال الأمن الحربى لم يحضر هذه اللقاءات، وكان الموجودان هما أنا والمترجم فقط.. وعادت بعد أداء هذا العمل وهى سعيدة وراضية. وبعد عدة أيام، جاء لطفى الخولى للقائى بمكتبى،

ليسألنى ونحن نحتسى القهوة عما إذا كنت على استعداد لقبول دعوة لزيارة الاتحاد السوفييتى؟!.. فأجبته بالإيجاب.. فسألنى: مَن أريد أن أرى.. والأماكن التى أرغب فى زيارتها؟!.. فقلت له: إننى سألتقى فى موسكو بالصديق عبدالملك خليل مراسل «الأهرام» هناك، وصاحب العلاقات القوية بالمسئولين السوفييت، أما الأماكن التى أتمنى زيارتها فى مقدمتها لينينجراد، وجمهوريات إسلامية.. وإذا أمكن منطقة الحدود الصينية – الروسية.. فقال: ستزور هذه المناطق قريبا.. وفعلا سافرت خلال أكتوبر ١٩٧١م، ووفرت السلطات الروسية كل ما يجعل الزيارة مثمرة ومريحة.. ولم أكن أعلم أو أتوقع أن ألتقى بالرئيس السادات هناك.. فقد دعانى السفير يحيى عبدالقادر لحضور عشاء فى منزله سيحضره الرئيس السادات والوفد المرافق وعدد محدود من المسئولين السوفييت، وسألته: هل يعلم الرئيس بهذه الدعوة؟!.. فقال إنه أرسل له الأسماء، ولم يتلق منه اعتراضا على اسم منها. وحضر الرئيس فى موعده تماما، وصافح الحاضرين، وعندما صافحنى سألنى عما إذا كنت ألتقى بـ عبدالملك خليل؟!.. فأجبته بنعم.. فطلب أن يراه ويرانى فى الاستراحة التى يقيم بها، فسألته عن أنسب الأوقات، وتم تحديد الموعد. وعندما أبلغت عبدالملك بطلب الرئيس، بدا وكأنه كان يتوقع مثل هذا الطلب، فسألته: فقال: إنه يريد أن يسمع منى تقديرى للموقف وبعض ما يجرى فى المطبخ السوفييتى، بعد أن قرأ واستمع إلى تقارير كثيرة.. منها، بل فى مقدمتها تقرير السفير الممتاز يحيى عبدالقادر الذى تمكن من شق طريقه بالعاصمة السوفيتية. وكنت قد التقيت لأول مرة بالسفير يحيى بمدينة جدة بالسعودية خلال شهرى ديسمبر ١٩٦٥م ويناير ١٩٦٦م، بعدها زرته بمقره بالعاصمة اليوغوسلافية «بلجراد» عام ١٩٦٨م، وها أنذا ألتقى به للمرة الثالثة فى موسكو، ولم أكن أعلم وقتذاك أننى سألتقى به للمرة الرابعة خلال شهرى مايو ويونيه ١٩٧٢م.. فالحياة سلسلة من الحلقات، حلقة وراء الأخرى، وكل حلقة لا تشى ولا تبوح بما وراءها.. فالحلقة الأولى فى علاقتى بالسفير يحيى عبدالقادر لم تبح بما وراءها، حتى وصلنا إلى اللحظة التى التقينا معا فى موسكو عام ١٩٧١م. وذهبت مع عبدالملك للقاء الرئيس السادات، واستقبلنا الرجل ببشاشة وود ورحب بنا، وداعب عبدالملك وسألنى: ماذا أفعل فى موسكو؟! وطلب من عبدالملك أن يحدثه عما يجرى داخل الكواليس حول الموقف من مصر، خاصة أن القادة السوفييت هم الذين طلبوا منه الحضور، وأرسلوا له رسالة بهذا المعنى فى نهاية

شهر سـبتمبر. وكانت العلاقات بعد وفاة الرئيس عبدالناصر قد شهدت منعطفات حادة.. فخلال النصف الأول من مايو ١٩٧١م تمكن السادات من إزاحة مجموعة الورثة التى كانت تنافسـه على قمة السلطة، والتى كانت تعد الفريق الذى يعتمد عليه السوفييت فى مصر، كما كان السفير السوفييتى فى القاهرة قد تورط فى مؤامرة هذه المجموعة، وفى نهاية شهر مايو، وصل الرئيس السوفييتى «بودجورنى» إلى القاهرة، وطلب من الرئيس السادات توقيع معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفييتى، ووافق الرجل من أجل طمأنة السوفييت على مصالحهم، بعد أن اختفى رجالهم وراء القضبان. وهذه الزيارة عكست بشكل واضح شكوك موسـكو تجاه القاهرة، وتجاه السـادات بصورة لا تحتمل أى تفسير آخر. وتصور الرئيس المصرى أن السـوفييت بعد المعاهدة، سيبدون حسن نية، وسيعملون على تلبية احتياجات مصر من الأسلحة والذخيرة، ولكن شيئا لم يتغير، وبدأ السادات يتبرم من مثل هذه المعاملة وهذا التجاهل. وبعد أقل من شـهرين، قاد الرائد هاشـم العطا الشـيوعى انقلابا عسكريا فى السـودان، وتمكن من الاسـتيلاء على السلطة، ولكن دون أن يسيطر سيطرة كاملة على الأوضاع فى السـودان. وبعد وصول الفريق أول محمد صادق إلى طرابلس، ينجح فى إحباط الانقلاب الشـيوعى بعد الإيقاع بقادة الانقلاب الكبار أثناء عودتهم من لندن إلى الخرطوم. وقد أرغمت الطائرات الليبية الطائرة الإنجليزية التى تقلهم على الهبوط فى بنغازى، وبعد إلقاء القبض عليهم تم تسليمهم للرئيس السودانى جعفر نميرى الذى عاد إلى قمة السلطة، وسرعان ما تم إعدام قادة الانقلاب، وقادة الحزب الشيوعى. وخلال أيام الانقلاب، وصل «بوناماريوف» المسئول السوفييتى الكبير إلى القاهرة لإقناع مصر بمساندة الانقلاب، وعندما ذاع نبأ فشـل الانقلاب وإلقاء القبض على زعماء الخارج والداخل، ضغط من أجل الحفاظ على حياتهم، ولكنه فشـل أيضا. ونتيجة لموقف السادات الرافض للانقلاب الشيوعى فى السـودان، ومساندته لعودة الرئيس نميرى، ازدادت العلاقات المصرية – السوفيتية سوءا. ويتلقى السـادات الدعوة بعد شـهور من التجاهل له من جانب القادة السـوفييت لزيارة موسـكو، فيلبيها على أمل أن تؤدى إلى تحسـن العلاقات بصورة تخدم استعداده للحرب. ويشرح عبدالملك أسلوب عمل القيادة السوفيتية التى تميل إلى الجمود وعجزها عن المبادرة، ورغبتهـم القوية فى عدم إغضـاب الولايات المتحدة بصورة مزعجـة.. وينتقل للقول: إن المناقشات التى دارت بين القوى المسيطرة بالكرملين خاصة بعد فشل الانقلاب السودانى،

انتهت إلى التسليم بالنتيجة وبالأمر الواقع وبإدراك أن السودان والشعب السودانى لم يكن مستعدا لمثل هذه الخطوة التى سبقت زمانها، ولم يسبقها إعداد كاف. واتجه المتناقشون إلى العمل على بعث الدفء فى أوصال العلاقات مع مصر، وعلى ضوء هذه النتيجة، تمت الدعوة. وأكد عبدالملك أن السادات سيخرج من المفاوضات بنتيجة إيجابية. ثم قال: إنهم يدركون حجم خسارتهم بوفاة عبدالناصر، ويدركون أنه ليس عبدالناصر، ولن يكون.. ولكنهم أيضا كثيرا ما يقولون لأنفسهم إن السادات زعيم وطنى. ثم عقَّب قائلا: إنهم يتطلعون لوجود تيار ناصرى قوى فى مصر.. يكون أحد مكونات تيار يسارى كبير يملك قدرة الضغط على صانع السياسة والقرار. وبدا أنور السادات راضيا عما يسمع، وإن كانت شكوكه فى السوفييت تتغلب على إمكانيات الثقة بهم.. ولكنه توقف أمام تطلع السوفييت لوجود معسكر يسارى قوى، وسأل عبدالملك عن رؤيته لذلك، فتحفظ وهو يجيب قائلا: ليس هناك ما يوحى بقوة تأثير القوى اليسارية، ولكنها موجودة وتعمل بنشاط. والتفت إلى منتظرا تعليقى، فقلت إننى أود أن أحكى عن محطات لـ ٢٣ يوليو فى حياتى، أدت فى النهاية إلى تحديد موقفى. وفى ذلك أتشابه تقريبا مع جيلى، الذى استقبل ٢٣ يوليو وهو ينتقل من مرحلة الصبا إلى مرحلة الفتوة، هذا الجيل تحدد موقفه النهائى من ٢٣ يوليو وعبدالناصر عبر تجارب حياتية وشخصية وسياسية، شكلت محطات على الطريق، ومعظم هذا الجيل استقبل ٢٣ يوليو بآمال لا حد لجمالها فى النهوض بمصر، ومواصلة العمل من أجل إنجاز يقوم بنقل مصر إلى مستقبل أكثر ازدهارا وإشراقا. وعن المحطات التى مررت بها، فإن البداية كانت كالتالى:

• قررت مجموعة من الأقارب والأصدقاء السفر إلى القاهرة لمشاهدة العروض العسكرية والفنية يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٤م، ولاقت الفكرة قبولا ممن حولنا، وتضاعف العدد.. وشاهدنا العرض العسكرى فى الصباح. وتوجهنا فى المساء إلى الساحة الموجودة أمام قصر عابدين لمتابعة وسماع كلمات القادة.. وهناك سمعنا الهتافات تتردد بحياة جمال عبدالناصر فقط، رغم أن الرئيس محمد نجيب كان موجودا، ويتصدر المنصة باعتباره رئيسا، وكان يسمع الهتافات المؤيدة لناصر والرافضة له!! وكنا نتابع الصراع الضارى على القمة من خلال ما تنشره الصحف، ونتتبع أخبار المظاهرات التى تعكس مواقف الفرقاء. وكانت صدمتنا قوية عندما علمنا أن صاوى أحمد صاوى.. تقدم مظاهرات عمال النقل وهتف بسقوط الحرية

دعما للبكباشــى جمال عبد الناصر وفريقه على حســاب فريــق اللواء محمد نجيب، وكل مــن وقف بجواره أو ســانده. ومن قوة الارتباط بالأمل فــى ٢٣ يوليو «بلعنا زلطة» الهتاف بسقوط الحرية، رغم أنها مؤشر خطير على حقيقة المواقف والتوجهات اليوليوية، المهم أننا تابعنا ونحن نقف فى الصفوف الأولى للجماهير المحتشدة بالميدان هذه الهتافات، ووجدنا أن الإنصــاف يقتضى الهتاف للرجلين معا، فاللواء محمد نجيب هو الذى قاد المجموعة، وأعطاها هذا القدر من الشــعبية والقبــول، ولا يمكن تجاهله لمجرد أن عبدالناصر يريد أن يتخلــص منه.. فوقفت وهتفت: عاش نجيب، عاش جمال.. وارتج الميدان والجموع تردد هــذا الهتاف من خلفى، وكأنها كانت تنتظــر مثل هذا الهتاف.. وواصلت الهتاف، وكل مــن فــى الميدان يرفع الصوت مرددا.. وتراجعت الهتافــات بحياة عبدالناصر. وما هى إلا دقائق حتى حاصرتنا مجموعة من الرجال الذين يرتدون ملابس مدنية، وبدأت فى توجيه الســباب لنا.. وكانت صدمتى وصدمة الناس من حولى شــديدة، وهم يتهموننا بأننا جميعا مــن العملاء، وقالوا: إننى من المجموعة المدسوســة من عملاء الاســتعمار.. وأنه لابد من شنقى جزاء وفاقا لما أقدمت عليه.. وقال آخرون: بل يجب ضربه بالنار. والتف أبناء العم والأقارب والأصدقاء من حولى، ثم من حول المجموعة من الرجال التى حاصرتنا، وانضمت إلينا طوابير من المواطنين بالميدان، وقالت الدائرة المحيطة من أبناء العم والأقارب لهم: إننا أشــرف منكم جميعا، وإننا ســنتولى تأديبكم، وتجمهر الناس من حولنا، وحاولوا الاعتداء على أفراد هذه المجموعة، وهنا بادرت بالهتاف بســقوط الاســتعمار وعملاء الاســتعمار، ورددت الحشــود الهتاف، وأســقط فى يــد هذه المجموعة.. وفجــأة ظهرت مجموعة من الضباط الذين بدا أنهم كانوا يتابعون الموقف عن قرب، بعد أن تبينوا أننا والناس ســنفتك بأفــراد هــذه المجموعة التى كانــت ترتدى زيا مدنيا موحدا بعد أن فشــلت فى إخافتنا، أو إصابتنــا بالرعــب، وكانت النتيجة التى يمكن أن ينتهى إليها الموقف تختلف عن تلك التى خططوا لها، فقرروا أن يتدخلوا بســرعة، ومن فورهم قالوا لنا: إن ما جرى، خاصة ونحن موجودون أمام المنصة يمكن أن ينتهى بكارثة، وطلبوا منا أن نغادر المكان، وخشــى المواطنون وأبناء العم وباقى الصحاب من أن يكون فى الأمر محاولة لاستدراجنا بعيدا لإلقاء القبض علينا، أو الاســتفراد بنا وضربنا، وقالــوا ذلك صراحة للضباط. ووجدت واحدا من الضبــاط يهمس فى أذنى طالبا منى الخروج أنا ومن معى بســرعة من الميدان، والعودة من

حيث أتينا، وأقسم بشرفه أننى لو انسحبت فلن يلحق بنا أى أذى، ولكنه لا يضمن ماذا يمكن أن يحدث لو طال الموقف.. ووجدتنى أثق فى هذا الرجل وفى نصيحته، ومن فورى، بـدأت فى البحث عن طريق بين الحشـود للخروج من الميـدان، ومن خلفى رفاق الرحلة. «وبلعت الزلط».. لأننى كنت مازلت متعلقا بالأمل فى ٢٣ يوليو، بالرغم من أن المؤشر كان خطيرا وكاشـفا. وقلت للرئيس السادات: إن كل المؤشرات التى كشفت عنها التجارب لا تختلف عن ذلك، فسـأل الرجل عن المحطة التالية، وبدا وكأنه يريد أن يسـمع مثل هذه التجربة.. ربما لأن الفرصة لم تتح له لسماع مثل هذه الحكايات.

• وانتقلـت للحديث عن المحطة الثانيـة، فأوضحت أن الدائرة الانتخابية التى أنتمى إليها بمحافظة الشرقية، كانت تتقاسمها عائلات معروفة، ويفوز بالمقعد النيابى من ينتمى للحزب الحاكم، سـواء من الوفد أو من الأحرار الدستوريين أو السعديين.. وهكذا.. أى أن المقعد كان يدور وفقا للصراع السياسى بين القصر والإنجليز والأحزاب. وكانت قواعد اللعبة إلى حـد كبـير واضحة.. وفى ظل ٢٣ يوليو تم الإعلان عـن انتخابات نيابية عام ١٩٥٦م وتقدم ابن العم الدكتور رضوان مباشر.. العالم الذى أنشأ قسم الكيمياء الصناعية بكلية العلوم بجامعة القاهرة.. والحاصل على سبع درجات دكتوراة من جامعة ليون الفرنسية وجامعات أوربيـة أخرى، ومـن أوائل من توصلوا لعلاج لآثار الإشـعاع الذرى، وقد اسـتفادت منه اليابان لعلاج الضحايا عقب قنبلتى هيروشيما وناجازاكى.. لهذه الانتخابات للفوز بالمقعد النيابى. وفوجئنا بأن على صبرى تقدم للمنافسة على نفس المقعد بالرغم من أنه من مواليد بورسـعيد، وليس له أى علاقة بالدائرة، سـوى علاقة قرابة تربط بين أسـرته وأسرة على الشمسـى باشـا الوفدى الذى يملك عزبة بقرية «بهنباى» التى تبعد بمسافة ٣ كيلومترات عن قريتنا «القنايات». وحضر على صبرى، وطلب الاجتماع بمجموعة من الشباب، فذهبنا إليه فى بيت آل الشمسـى، وتحدث كثيرا عن دوره فى ٢٣ يوليو وعن أفضلية قادة يوليو على غيرهم من المرشحين، فقلت له بوضوح: إننا لن نتخلى عن ابن عمنا، وسنترك الحكم لصندوق الانتخابات.. فقال: وأنا أرضى بالصندوق كحكم.. وبعد أن غادر إلى القاهرة، كان قـد صدر قرار باعتقالى أنا ومجموعة الشـباب الذين حضـروا اللقاء، فهربنا جميعا بمجرد علمنـا بتحـرك قوات الشـرطة لتنفيذ أمر الاعتقال، ولم نعد إلا بعد ما يقرب من شـهر..

وبعد وصول على صبرى إلى القاهرة، صدر قرار باستبعاد أعداد كبيرة من المرشحين لإخلاء الدوائر لرجال يوليو، وكان من بين المبعدين الدكتور رضوان مباشــر ابن الدائرة.. وصاحب الإنجازات العلمية المبهرة.. وكان من بين المبعدين أيضا موسى صبرى رئيس تحرير جريدة «الأخبار» لإخلاء دائرة قصر النيل لمجدى حســنين الذى أنشــأ مديرية التحرير. وكان قد بنى حملته الانتخابية على هذا الإنجاز، أما موســى صبرى فخاطب ناخبى الدائرة قائلا: انتخبوا موســى صبرى الذى لم ينشئ مديرية التحرير! ! وكان علينا أن «نبتلع الزلط» مرة أخرى، وأيضا من أجل الدفاع عن آمالنا فى ٢٣ يوليو.



السادات فى موسكو.. للبحث عن سلاح (٢)

قال السادات بعد أن استمع إلى حكاية على صبرى وموسى صبرى وانتخابات عام ١٩٥٦م: إنه كان متعاطفا جدا مع موسى صبرى. وإنه ضحك كثيرا عندما علم أن شعاره هو: انتخبوا موسى صبرى الذى لم ينشئ مديرية التحرير..

وذكر أن عبدالناصر تساءل: وهل كانت هذه المديرية سُبَّة فى جبين الثورة إلى هذه الدرجة؟!!

ثم قال: هل قصد موسى صبرى اتهام مجدى حسنين بالسرقة. وبالفشل معا؟!.. لقد كان غاضبا. وما أغضبه أكثر أن يغنى عبدالحليم حافظ له أغنية تقول «موسى صبرى انتخبوه.. موسى صبرى بنحبوه».. وأن يصحبه فى جولاته الانتخابية. ثم سألنى: وماذا لديك بعد ذلك؟!.. فقلت له واقعة أكثر طرافة كادت تقضى على مستقبلى بالصحافة. فاعتدل فى جلسته.. وأخذ فى إشعال البايب وهو يستحثنى لكى أحكى هذه الواقعة..

فقلت: استدعانى مصطفى أمين.. وعندما ذهبت إليه.. طلب منى أن أسافر إلى كفر الشيخ لإعداد تحقيق عن مشاكل الناس هناك.. بعد أن كثرت الشكاوى من المحافظ حمدى عبيد.

نزلت من مكتبه وتوجهت إلى الأرشيف لقراءة ما هو موجود من معلومات عن المحافظ والمحافظة.. وصباح اليوم التالى توجهت إلى كفر الشيخ بسيارة من الأخبار.. وكان تصورى أن أصل قبل صلاة الظهر.. وفى أحد المساجد الكبيرة الموجودة بوسط المدينة أصلى الظهر. وأجلس مع المصلين لأسمع منهم.. بعدها أذهب للقاء المحافظ.

وفعلا.. أديت الصلاة بالمسجد.. بعدها تحلق المصلون من حولى بعد أن عرفوا من السائق أننى صحفى بالأخبار.. وبدأوا فى الحديث عن مشاكلهم وضيقهم من الأوضاع وعدم رضاهم عن أداء المسئولين.. كان الكل يتسابق لبث شكواه.. ولم أسمع واحدا يعترض على هذا السيل من الشكاوى.. ولم أسمع صوتا مؤيدا للمحافظ.

وبعد أكثر من ساعة غادرت المسجد وأنا أحمل أوراقى.. وأحاول ترتيبها وفقا للقضايا التى طرحوها.. واتجهت إلى المحافظة للقاء المحافظ حمدى عبيد.

ولم يطل انتظارى بمكتب السكرتير.. وجاء ترحيب المحافظ فاترا، فأدركت أن هناك من أخبره عما جرى بالمسجد.. وفى البداية رأيت من الأفضل أن أخبره بالهدف من زيارة المحافظة ولقائه.. فعبر عن اهتمامه بسماع رأى الناس.. وإن طلب تأجيل ذلك؛ لكى يكون موضوع حديثنا ونحن نتناول طعام الغداء.

وأمضيت وقتا معه بالمكتب.. ثم ذهبنا إلى القصر الذى يقيم فيه، وعندما جلسنا معا فى الصالون وبحضور عدد من معاونيه، بدأ فى توجيه السباب لى ولمصطفى أمين وللأخبار ولكل الصحفيين «ولاد ......» ولم يتوقف عن توجيه إهاناته للجميع.. وبكل ما فى قاموس السباب من كلمات حادة ومدببة ومؤذية.. ثم قال: أتريدون مهاجمة حمدى عبيد «يا بتوع الأمريكان»؟!.. هل تسعون لضرب ٢٣ يوليو ورجالها الذين أنقذوا مصر من الملك والاستعمار والرجعية والإقطاع؟!.. ألا تعرفون من هو حمدى عبيد وتاريخه الوطنى؟!

وهدأ قليلا..

وطوال هذا الوقت لم يتدخل أحد من الحاضرين لإقناعه بالتوقف..

ثم واصل قائلا: إننى أستطيع قتلك الآن ولن يحاسبنى أحد، ولن يسأل عنك أحد. وسألنى ألا تعرف أننى قادر على تقطيعك قطعا صغيرة، ودفن كل قطعة فى مكان؟!.. ثم لماذا نقوم بتقطيعك.. سنلقيك جثة فى البحر.. وظل يدور حول هذه النقطة طويلا.. ولم يكن أمامى سوى الصمت.. وكنت أنظر حولى وأتساءل: ما هو الخطأ الذى وقعت فيه لكى أتعرض للتهديد بالقتل والسب والتجريح؟!

نعم هو ضابط يوليوى. وهو الذى احتفظ بالمطبعة فى منزله.. وتولى طبع المنشورات الثورية.. وخاطر بحياته ومستقبله، ولكن كل ذلك لا يعطيه الحق فى سب الصحفيين أو فى تهديدى بالقتل.

واستمرت هذه المحنة بكل سوئها وضغوطها لما يقرب من ساعتين.. يهدد.. ويسب.. ويهدأ.. ثم يعاود من جديد.. ثم قال فى النهاية. «خلى مصطفى أمين ينفعك. أنت منذ الآن مفصول من الصحافة. ولن تعمل صحفيا مرة أخرى.. ولن تدخل الأخبار.. ولن تتمكن من العمل بأى صحيفة أخرى. وواصل قائلا: لن أقتلك وسأكتفى بفصلك من العمل».

ثم طردنى من منزله..

ولا أدرى كـم بكيـت، ولكننى لم أتوقف عن البـكاء طويلا.. بكاء داخلى فى صمت.. ولعنـت كل مـن لـه علاقة بـ٢٣ يوليـو.. واليوم الذى سـقطت فيه مصر فـى أيدى هذه المجموعة.

وبعد أيام.. تسـاءلت: ولماذا ألعن الجميع؟ إن الذى أخطأ فى حقى هو حمدى عبيد.. فلأكتف بلعنه. «فلا تزر وازرة وزر أخرى».

وبعد أن وصلت إلى القاهرة.. ذهبت إلى الأخبار.. وسـألت عن مصطفى أمين.. فعرفت أنـه بمكتبـه.. فصعدت.. وحكيت له ما واجهته طوال اليـوم، وبدا الألم على وجهه وهو يسـتمع إلى تطـاول المحافظ وتهديده لى بالقتل. وقـال مصطفى أمين: إن المحن هى التى تصنـع الصحفى.. وأن التجارب تتولى صقله. وأكد أن هذه المحنة سـوف تمر.. وأنها لن تكون نهاية المحن وعلىّ أن أتعلم منها وأن أتوقع مواجهتها بين الحين والآخر.

وحاول التخفيف من مرارة التجربة. ثم قال لى: أتعرف إن سـامى شـرف تحدث معه تليفونيا.. ونقل له شكوى حمدى عبيد من مصطفى أمين وجريدة الأخبار وعبده مباشر.. ثم طلب منى أن آخذ إجازة إلى أن يتمكن من إعادتى للانتظام فى العمل مرة أخرى.. وقال: إنه سيتحدث فى الأمر مع جمال عبدالناصر.. وسيوضح له حقيقة الأمر.. وتوقع أن حمدى عبيد قد روى له الحكاية من وجهة نظره.

وخرجـت من مكتب مصطفى أمين حزينا مهموما.. فتهديد حمدى عبيد لم يكن مجرد كلمات، بل تهديد حقيقى.. وها أنذا أفقد عملى.. ولا أدرى ما سوف يأتى به الغد.. إننى أثق فى وعد مصطفى أمين ولكن القرار ليس بيده.

وعدت إلى منزلى وأنا أحمل فى أعماقى بركانا من الغضب والألم والحيرة. وكان التساؤل الرئيسـى: وماذا سـوف أفعل؟!.. ولم يكن أمامى سـوى الانتظار لمعرفـة نتيجة جهود مصطفى أمين.

وأمضيت أيامى محاولا القراءة وممارسـة رياضة التنس لكـى أنفث عن البخار المتراكم داخلى أثناء ضرب كرة التنس بقوة ومحاولة تفريغ طاقة الغضب.

خلال هذه الفترة، زارنى صديقى المذيع الشرقاوى محمد الشناوى. فلاحظ أننى أحمل

هموم الدنيا كلها فوق رأسى. فسأل: فأجبته.. وبعد أن استمع إلى تفاصيل ما جرى.. أمسك بالتليفون وبدأ يتحدث مع الملحن محمد الموجى ويقص عليه ما فعله حمدى عبيد معى. وفى نهاية المكالمة طلب الموجى أن نذهب إليه فى شقته بشارع الشواربى مساء يوم الخميس المقبل.

وبعد انتهاء المكالمة وتحديد الموعد قال الشناوى مطمئنا: إننى سأعود إلى عملى إما مساء يوم الخميس نفسه.. أو صباح يوم الجمعة.. وأخبرنى أنه صديق للموجى.. والموجى صديق لحمدى عبيد.. وأنه يزوره دائما كلما حضر إلى القاهرة.

وقال إن عبيد أبلغ الموجى أنه سيزوره يوم الخميس.. لذلك حدد لنا موعدا لنلتقى جميعا.. وهو واثق أن المحافظ لن يرفض له رجاء للعلاقة القوية التى تربطهما.

وظل الشناوى يؤكد لى نهاية هذه المحنة، ولم يتوقف عن الإشادة بالفنان محمد الموجى فنيا وإنسانيا واجتماعيا. ونبتت كل زهور الأمل بالقلب.. وتحول العالم من حولى إلى حدائق بلا أسوار.. وبلابل لا تتوقف عن الغناء.

ولم أشك لحظة فى وعد الموجى.. وقلت إنها إرادة الله التى أرسلت محمد الشناوى لزيارتى.. وهى التى دفعت حمدى عبيد لزيارة الموجى مساء هذا الخميس القريب.. وتمنيت لو أن الأيام تتدافع بسرعة لتصل إلى مساء يوم الخميس.

وجاء الموعد. وتوجهت مع الشناوى إلى شقة الموجى بشارع الشواربى.. الأضواء خافتة فى مناطق ومبهرة فى مناطق أخرى.. وكان الرجل يجلس على «شلتة» فوق سجادة، والضيوف يجلسون مثله.. قليلة هى المقاعد بهذا الصالون.

وجلسنا فى مواجهة الرجل.. وطلب أن يسمع منى الحكاية.. فرويتها له. فتساءل بدهشة: حمدى يهدد ويسب ويفصل ويتوعد!!

فقلت له: ستسمع منه المعزوفة نفسها عندما يرانى فى ضيافتك.

فقال: إنه إنسان وديع كطفل ورجل تلقائى؛ يتحدث على سجيته وبانطلاقة. ولم أجرب عليه شرا، ولم ألاحظ عنفا.. فقلت للموجى: إنك تستقبله عندما يقرر أن يقضى أوقاتا طيبة.. أى أنه فى حالة حضور للاستماع إليك ولضيوفك من الفنانين والمثقفين.. والاستمتاع بضيافتك وكرمك وفنك. وتأخر الرجل فى الوصول. وبدأت أشعر بالقلق، وأخشى أن تكون هناك ظروف حالت دون حضوره. وبين الحين والحين يؤكد لى الموجى أنه سيحضر، وأن علىَّ ألا أشعر بالقلق.

وفعلا حضر قبل منتصف الليل.. وفى البداية لم يلاحظ وجودى بسبب الضوء الخافت.

وانتحى به الموجى.. وتحدث معه عنى وعن مستقبلى.. وأن المسئول هو مصطفى أمين.. إذا ما كان هناك خطأ فى التفكير فى إجراء تحقيق صحفى عن كفر الشيخ. أما عبده كمحرر صغير فهو لم يكن أكثر من منفذ.. ولم يكن يستطيع أن يرفض طلبا من رئيسه. واستمر الحديث فترة ليست قصيرة.. حاول خلالها الموجى أن يقنعه أننى لا أستحق أن أخسر مستقبلى.. وأفقد مهنتى لمجرد أننى نفذت أمرا لرئيس التحرير.. وأنه لا يمكن كأب أن يقبل بمثل هذا المصير الفظيع.

وطلب حمدى عبيد فرصة للتفكير فى الأمر.. فأخبره أننى موجود منتظرا منه العفو وقرارا بالعودة للعمل؛ باعتبارك الأكبر القادر على التسامح.

فطلب أن يرانى.. فانتقلت إلى جواره.. فسألنى عما إذا كنت أعلم من هو؟!.. فقلت له: طبعا.. وقد قرأت كثيرا عنك قبل أن أذهب إلى كفر الشيخ.. وأعرف دورك وجسارتك.

ثم سألنى عما إذا كنت قد سجلت شكاوى الناس؟!.. فأكدت له أننى لم أحمل معى جهاز تسجيل.. وسألنى مرة أخرى: لماذا وافقت على ما طلبه مصطفى أمين؟!.. فسألته: وهل تظن سيادتك أننى أستطيع الرفض؟!

فانتقل للحديث عن مؤهلاتى وعمرى.. وكم سنة قضيتها فى العمل كصحفى.. وعما إذا كنت متزوجا أم لا؟!.. فقلت له: لا.. فقال: أنصحك ألا تتزوج.. وضحك وضحك معنا كل من الموجى والشناوى. ثم قال: إننى لا أستطيع أن أرفض طلبا للموجى. وقال: سأتصل بسامى شرف الآن لكى تعود لعملك.

وطلبه فعلا. وطلب منه أن يبلغ جمال عبدالناصر أنه عفا عن الصحفى عبده مباشر.. وأنه يستأذنه فى عودته للعمل.

وبعد حوالى نصف ساعة تلقى مكالمة من سامى شرف لكى يبلغه أنه اتصل فعلا بمصطفى أمين وأبلغه بعودتى للعمل.

فتوجهت بالشكر له.. وشكرت الموجى جدا.. واستأذنت فى الانصراف.. وغادرنا أنا والصديق الشناوى.

واقترح الشناوى أن نتوجه لمسجد الإمام الحسين لأداء صلاة الفجر والسجود شكرا لله على هذه النهاية السعيدة لمحنة غير سعيدة.. وطوال هذا الوقت كان الرئيس السادات

يسمع باهتمام وتركيز. وفى النهاية علق قائلا: إن حمدى كان غلطان جدا.. ولولا أنه «دلوعة» جمال عبدالناصر ما فكر مجرد التفكير فى التصرف على هذا النحو.. وقال: لم أكن أعرف أن للموجى كل هذا التأثير على حمدى عبيد.

وواصلت قائلا: لقد ظللت مع جيلى «نبتلع الزلط» ونتجاهل كل المؤشرات وكل سلبيات النظام؛ تمسكا بالأمل فى الوفاء بوعود التقدم والازدهار حتى جاءت نكبة يونيه ١٩٦٧م وقتها تأكدنا أننا لن نستطيع أن نتعلق بالأمل أكثر من ذلك، فالهزيمة لم تكن لجيش، بل لنظام!!

فى تلك الأيام بدأت المواقف الجديدة تتبلور..

واستنادا إلى ما مررنا به من محطات حتى انتهينا إلى يونيه ١٩٦٧م أستطيع أن أقول لسيادتك إن أى تيار أو قوى ناصرية سيكون محدود التأثير والفاعلية.. ولا يمكن المراهنة عليه.

فقال الرئيس: إن هذا ما أفكر فيه.. ولكن الآخرين يفكرون فى الأمر بطريقة مختلفة. يريدون تيارا حليفا يتعاون معهم.

واستدار لعبدالملك خليل قائلا: بالقطع مررت بمحطات مختلفة عن تلك التى مر بها عبده.. فهل سترويها يوما أو تكتبها فى كتاب؟!!

فقال: إنه لا يجيد كتابة الكتب ولكنه سيرويها.

وقال السادات: إنه يتطلع لموقف سوفييتى إيجابى؛ وهو ما حضر إلى موسكو إلا لأنه توقع تغييرا لصالح مصر والقوات المسلحة، وهم يعلمون حقيقة احتياجاتنا، ويدركون أننا نستعد للحرب.. ولن تكون هناك حرب بدون سلاح.. فالمعركة المقبلة هى رهان مصرى على المستقبل.



الفصل التاسع

نميرى يثأر من الشيوعيين

بعد القضاء على الانقلاب العسكرى الشيوعى الذى قاده الرائد هاشم العطا يوم ١٩ يوليو ١٩٧١م، واستعادة الرئيس جعفر نميرى كامل سلطاته، وجه الشكر لكل من الرئيس المصرى أنور السادات والزعيم الليبى معمر القذافى وباقى أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية، لأنهم هم الذين تحركوا بقوة لمساندته ودعمه أثناء المحنة التى اقتلعته من القصر الرئاسى ليعيش فى المعتقل إلى أن تم تخليصه بعد فشل الانقلاب، وكانوا وراء عودته إلى منصبه واستعادته كامل سلطاته.

وكان نميرى شديد الامتنان للسادات، وفى الوقت نفسه لم ينس السادات لنميرى أنه حضر إلى القاهرة يوم ١٤ مايو ١٩٧١م أثناء ذروة الصراع على السلطة للتعبير عن وقوفه بجوار السادات.

كما كان الرئيس السودانى يشعر بالشكر العميق للعقيد الليبى، ولكنه كان يعلم فى الوقت نفسه أن الرجل الذى أدار الأزمة من طرابلس بكفاءة وذكاء مستفيدا من خبراته العسكرية التى امتدت لسنوات طويلة إلى أن تمكن من القضاء على الانقلاب هو الفريق أول محمد صادق وزير الحربية المصرى.

وطوال أيام الانقلاب التى كانت قصيرة جدا، كان العقيد فاروق بشير الملحق الحربى المصرى على اتصال به، ويحيطه بالموقف أولا بأول سواء أثناء وجوده بالقاهرة يوم ١٩ يوليو أو بالعاصمة الليبية طرابلس اعتبارا من يوم ٢٠ يوليو، إلى أن تم إخراج نميرى من المعتقل بعد نجاح القوة العسكرية المؤيدة له فى التحرك بعد إرغام طائرة الخطوط الجوية البريطانية التى كانت تقل قادة الانقلاب وعلى رأسهم بابكر النور وفاروق حمد الله من لندن إلى الخرطوم على الهبوط فى بنغازى، واعتقلتهم السلطات الليبية.

أدت هذه الخطوة والإعلان عنها إلى إصابة هاشم العطا ورفاقه فى الخرطوم بالصدمة، وإلى تشجيع أنصار نميرى وأعداء الانقلاب الشيوعى إلى التحرك مدنيا وعسكريا.

وعـــرف نمـــيرى أن هذه الخطة وضعهـــا الفريق أول صادق وراهـــن على نجاحها، وقد نجحـــت... وبعـــد نجاحها عاد إلى القاهرة حتى لا يعرف أحـــد بوجوده فى ليبيا، ولكى تظل العملية ليبية تماما.

وقد أبدى نميرى رغبته فى استقبال الفريق صادق بالخرطوم لتوجيه الشكر له شخصيا خلال اتصال تليفونى مع الرئيس الســـادات.. وتحدث الســـادات مع وزير الحربية، فقال له: لقد شـــكرنى تليفونيا، وأرســـل رسالة عن طريق المكتب الحربى المصرى فى الخرطوم، وأعتقد أن فى ذلك الكفاية.. فقال السادات، ربما يريد أن يسمع منك مباشرة، واقترح عليه السادات أن يسافر تلبية لدعوة النميرى، ورأى الفريق أول صادق أن يغادر مصر سرا وفى طائرة عسكرية وألا تطول الزيارة لأكثر من ساعات يلتقى خلالها بنميرى.

وهناك فى الخرطوم كان فى انتظاره وزير الدفاع السودانى، ومن باب جانبى، غادرت الســـيارات المطار إلى القصر الرئاسى، حيث كان الرئيس فى انتظار الضيف، وبود حقيقى استقبل الفريق أول صادق، وقال له: لقد كنت واثقا طوال أيام المحنة من فشل الانقلاب، ولكننى لم أكن أعرف كيف.. وعشـــت فى انتظار انقشـــاع هذه الغمة... ثم استطرد قائلا: وحتى الآن لا أعرف الســـبب فى أنهم اكتفوا باعتقالى.. ولم يحاولوا اغتيالى.. ولقد ســـألت بعضهم قبل أن تصدر الأحكام بإعدامهم، لماذا؟!.. فقالوا: كنا نخطط لمحاكمتك على كل الأخطاء التى ارتكبتها فى حق السودان والسودانيين، ليعرف السودانيون أنك خنت أمانة المسئولية، ولم تعمل إلا لمصلحتك لا لمصلحة السودان، ولم أقتنع بهذه الإجابة.

بعدهـــا توجه بالســـؤال للفريق أول صادق عما إذا كان ما قالـــوه صحيحا، فأجابه بأن المحاكمة وما يصاحبها من تشـــهير وفضح يمكن أن تكون ســـببا وجيها وعلى النقيض فقد يكون الاغتيال عاملا فى إثارة الرأى العام ضد الانقلابيين، خاصة أن الشـــعب الســـودانى مسالم يرفض الدم.. فاستراح النميرى لهذه الإجابة، ودعا صادق والوفد الصغير الذى كان يرافقه إلى رحلة نيلية، وأثناء إبحار السفينة الأنيقة فى مناطق التقاء كل من النيل الأبيض بالنيـــل الأزرق صحب الرئيس ضيفه إلى المقدمة ليســـمع منه تفاصيـــل عملية اعتقال بابكر النور وفاروق حمد الله.

وبعد أكثر من ســـاعة دعا نميرى الجميع لتناول الغذاء، وعلى المائدة اقترح على الفريق صادق البقاء للغد، ولم يعترض الرجل.

وإلى قصر الضيافة القريب من قصر الرئاسة، توجه الوفد المصرى لاستراحة قصيرة.. وفوجئ الجميع بقدوم نميرى ووزير الدفاع مع بداية المساء، واتجه الجميع إلى شرفة مطلة على النيل تحيط بها الحدائق.. وتحدث الرئيس السودانى عن عشق السودانيين «للونسة» أى لقاء الأصحاب فى منزل أحدهم فى نهاية اليوم للسمر، والجمع بين الحديث فى الأدب والسياسة والأحوال العامة والخاصة، وكثيرا ما تمتد إلى ما بعد منتصف الليل.

وتطلع وزير الحربية المصرى لمعرفة الثغرة فى إجراءات التأمين التى سمحت للانقلابيين بتحقيق مثل هذا الاختراق الذى أتاح لهم السيطرة على الأوضاع فى الخرطوم.. وأمسك وزير الدفاع بطرف الخيط، وأسهب فى شرح الظروف والأسباب.

ولأننى قرأت عن الاتهامات المتبادلة بين هاشم العطا وقادة الحزب الشيوعى القوى بالسودان وعن اتهامه لهم بأنهم السبب فى فشل الانقلاب، فقد وعدوه بتحريك الشارع لمؤازرة الانقلاب، ولم يتمكنوا من الوفاء به، فى حين خرجت المظاهرات المعادية للانقلاب بكثافة بعد اعتقال قادة الانقلاب فى ليبيا، فقد طلبت من نميرى إضاءة هذه النقطة، فقال: إن قادة الحزب الشيوعى كانوا فى انتظار وصول بابكر النور وفاروق حمدالله، لكى تنطلق المظاهرات للترحيب بهم، وتظل فى الشارع بعد ذلك تأييدا للانقلاب، ولم يكن يعتريهم الشك فى أنهم قد أمسكوا بزمام الأمور، خاصة أن الاتحاد السوفيتى أعلن عن مساعدته ووقوفه بقوة معهم، كما أن السادات أرسل وفدا ضم أحمد حمروش وأحمد فؤاد، بما يعنى قبول مصر بما جرى، بالرغم من أنها لم تعلن موقفها بشكل واضح من الانقلاب.

وفى الوقت نفسه بادر العراق تحت حكم البعث إلى تأييد الانقلاب والاعتراف بالسلطة القائمة والإعلان عن توفير كل الدعم والمساعدات المطلوبة.

هذه الثقة كانت وراء تأجيل عمليات التظاهر تأييدا للانقلاب، وكان التوضيح كاشفا لحقيقة موقف قادة الحزب الشيوعى، وفى الوقت نفسه يعطى الحق لهاشم العطا فى لوم الحزب وتحميله مسئولية الفشل.

وتطرق الحديث إلى المظاهرات المعارضة، فاعترف نميرى بأن تنظيمه السياسى «الاتحاد الاشتراكى» لم يتحرك بفاعلية وكان خاملا، وأن المبادرة كانت لقوى سياسية من خارج هذا التنظيم.

وسألته: وماذا عن العاملين بالقطاع العام والحكومة؟!.. فقال إنهم من المكونات الرئيسية

للاتحاد الاشتراكى.. وكان الاستفسار التالى حول قبول المواطن السودانى السياسى بالفطرة، عاشق التعددية والتنوع السياسى، فقال: صدقت.. لقد تأكدنا أن التنظيم السياسى الواحد لا يجد القبول من المواطنين السودانيين.

وعدت لأسـأله: ولماذا اقتدى بمصر فى هذا المجال؟! ولماذا لجأ للتأميم، والتحول إلى الاعتماد على القطاع العام فى دولة مازالت تحبو فى مجال الصناعة؟!.. فقال: إن الرئيس عبدالناصـر وراء تبنـى الحزب الواحد الذى يضم كل القوى السياسـية والتحول إلى طريق القطاع العام، ولم ينتظر الرجل السـؤال.. وقال: لقد دار الحوار حول الحفاظ على النظام السياسـى، ومخاطر الثورات المضادة.. وكان من أهم ما قاله: إن شـعوبنا لا تثور إلا عندما تشـبع، وضرب مثلا بثورة ١٩١٩م، حيث تحرك الطلبة، ثم تحرك الفلاحون والمزارعون بعد أن باعوا إنتاجهم من القطن بأسـعار قياسية نتيجة لظروف الحرب العالمية الأولى، أما الموظفـون فلـم ينضموا للثورة إلا بعد أن حصلوا علـى مرتباتهم، وكانت نصيحته أن يضع النظام دخول الناس تحت سـيطرته، وأن يوفر لهم مطالبهم واحتياجاتهم إلى مستوى دون الشبع حتى لا يثوروا.

وقـال: إن الذى قـدم له هذه المذكرة، أو هذه الدراسـة هو الدكتـور إسماعيل صبرى عبدالله، وقد اقتنع بها وعمل على أساسها.

وسألنى نميرى: هل كنت تعلم شيئا عن هذه المذكرة؟!.. أو أنها كانت وراء التحول إلى سياسة القطاع العام والسير على طريق التخطيط المركزى واقتصاد الدولة؟!.. فقلت له: لا.. ولكنى أعلم أن الدكتور راشـد البراوى وهو شـيوعى مثله مثل إسماعيل صبرى عبدالله كان وراء قرارات الإصلاح الزراعى التى صدرت ابتداء من شـهر سـبتمبر ١٩٥٢م، وأن المذكرة التى أعدها حول هذا الشأن حازت على رضاء عبدالناصر وعدد كبير من ضباط يوليو.

وسـألت نميرى عما إذا كان عبدالناصر قد أعطاه نسـخة أو صورة من مذكرة إسماعيل صبرى عبدالله؟!.. فأجاب بالإيجاب.. فاستأذنت أن أقرأها.. فقال إنه سيرسلها لى غدا.

وجاء الغد وعدنا إلى القاهرة دون أن تتاح لى فرصة الحصول على صورة منها، أو حتى قراءتها.

وشـارك الحاضرون فى الحوار حول دور القوى الشـيوعية فى كل من مصر والسودان، وكان الانقلاب الشـيوعى يلقى بظلاله علـى المتحاورين، وجاء الحديث حول دور كل من

الدكتور راشــد البراوى والدكتور إسماعيل صبرى عبدالله فى التأثير على عبدالناصر ودفعه لتبنى سياسات يســارية أو اشتراكية اقتصادية واجتماعية، وسياسية وثقافية أسهمت فى دفع مصر للاقتراب من الاتحاد الســوفيتى، ودول الكتلة الشيوعية، ليضيف أبعادا أخرى للحوار والمتحاورين.. ونال الاتحاد الســوفيتى نصيبا وافرا من لعنات نميرى، فقبل مغادرة صادق للقاهرة كان القادة الســوفييت قد أرســلوا بونا ماريوف للضغط على القاهرة للحفاظ على حياة قيادات الحزب الشــيوعى، وعلى رأســهم رئيسه عبدالخالق محجوب والشفيع أحمد، بالإضافة إلى قادة الانقلاب بابكر النور وفاروق حمدالله وهاشم العطا من الإعدام.

ودافــع نميرى عــن إعدام هــؤلاء القادة اســتنادا إلى تورطهم فى الانقلاب العســكرى وخطورتهم على الأمن القومى الســودانى، وأكد أنه ســيطارد كل قيادات الحزب التى لم تقع بعد فى قبضة السلطة.

وهــذا الإصــرار كان يعنى أن النميرى قرر إدارة ظهره للاتحاد الســوفييتى وكل الدول الشــيوعية، وأن مطاردة شــاملة إما قد بدأت أو ستبدأ لأعضاء الحزب الشيوعى، وأن هذه المطاردة سترغمهم على النزول تحت الأرض لتجنب قبضة السلطة.

ولم يكن واضحا خلال هذه الفترة ما إذا كان نميرى سيلجأ للاعتماد على القوى السياسية التقليدية ممثلة فى حزبى الأمة والاتحاد أم سيتجه إلى القوى السياسية الإسلامية.

ومنذ البداية كان حليفا للشــيوعيين الذيــن كانوا القوة التى اعتمد عليها لتنفيذ انقلابه العســكرى، ومن تلك اللحظة لم تتوقف التجاذبات والصراعات، ولكنه ظل دائما حريصا على الاستمرار على قمة السلطة.

ورأى نميرى أن الحوار قد طال حول هذه القضية، فقرر تغيير مســار الحديث بعد أن لاحظ أن الفريق أول صادق ظل مســتمعا، ولم يحاول التدخل فى المناقشــات، فابتعد عن قضايا السودان والانقلاب العسكرى الشيوعى، وسعى لاستيضاح بعض الحقائق حول صراع السلطة الذى شهدتها مصر خلال شهر مايو الماضى، وبجرعة كبيرة من الصراحة قال لوزير الحربيــة المصرى: إننى مازلت أتشــكك فى أن الفريق أول محمــد فوزى دبر أو كان يدبر لانقلاب عسكرى على السادات، وواصل قائلا: كما أننا هنا فى الخرطوم مازلنا فى حيرة حول خروج الســادات منتصرا فى هذه المواجهة غــير المتكافئة مع مجموعة على صبرى، التــى ضمت وزراء الحربيــة والداخلية والإعلام والمخابرات العامــة ومجلس الأمة واتحاد العمال والتنظيم السياسى الوحيد!!!

وأخذ الخيط وزير الدفاع السوداني الذي تساءل بدوره عن موقف السفير السوفييتي في مصر طوال هذه الأزمة؟!!.. وقال صادق: ربما كانت الثقة العالية بالنفس وراء فشل هذه المجموعة، بجانب الاستهانة بالسادات، ثم توقف برهة قبل أن يواصل قائلا: إن الشرعية تمنح الحاكم أكثر من ٥٠٪ من قوته ونفوذه، وبالتالي فإن ذلك يحرم الآخرين من هذه النسبة، ثم يدور الصراع بين الشرعية وعدم الشرعية، وبمجرد أن تكون القضية بين هذين القطبين خاصة في دولة مركزية قوية كمصر، فإن فرص فوز الشرعية تكون أكبر.

ودار نقاش حول هذه القضية وبدا واضحا أن الرجل تجنب أن يتحدث عن دوره الرئيسي في إحباط الانقلاب العسكري الذي خطط له فوزي، ولم يحاول الإجابة على أسئلة نميري أو وزير الدفاع.

وكانت قضية الشرعية في مصر الدولة المركزية بقوة طوال تاريخها، تطرح لأول مرة بمثل هذه الصورة أمام نميري، وظل طوال ما تبقى من وقت «الونسة» التي تخللها تحلق الجميع حول مائدة عشاء.. يسأل ويستوضح، وبدا وكأنه يحاول أن يعرف موقع السودان من هذه القضية، وموقف الشرعية في العاصمة الخرطوم، لا على ضوء ما جرى خلال أيام انقلاب هاشم العطا، بل على ضوء التاريخ السوداني.



الفصل العاشر

السادات يقرر فصلى من العمل

تواصلت مظاهرات الطلبة طوال النصف الأول من عام ١٩٧٢م، وبذلت قوات الشـرطة الكثير من الجهود للحد من هذه المظاهرات، إلا أن الطلبة كانت لديهم الخطط المناسـبة.. فـإذا ما تم تفريق المظاهرات فى منطقة أو شـارع مـا، فإنهم يعودون للتجمع فى مناطق أو شـوارع أخرى، وبما كان يصيب قوات الأمن بالحيرة. وبلغ مثل هذا النشـاط ذروته خلال شـهر مايـو ١٩٧٢م، وعندما حل شـهر يونيه أخـذت القاهرة تعيش مرحلـة المظاهرات الكبـيرة، بالإضافة إلى احتلال ميدان التحرير. وبالنسـبة للمظاهـرة التى أحاطت بمبنى جريدة الأهرام واحتشـدت بشـارع الجـلاء بحجم تجاوز العشـرة آلاف متظاهر.. أعطت المظاهرة مؤشـرا مهما، ألا وهو الربط بين النظام السياسـى وصحافته، وكما يجرى الهجوم والهتاف ضد النظام والرئيس والوزارة وحكومة هارفارد، بدأت الصحف تتعرض للهجوم، وتـرددت هتافات معادية لرؤسـاء تحريـر الصحف القومية وفى مقدمتهم هيكل وموسـى صبرى. وتابع الموجودون بالأهرام المظاهرة والهتافات، وتبينوا وجود أكثر من قائد للهتاف وبما يوحى أو يشير إلى أن هناك أكثر من مجموعة، وبدا واضحا أن هناك مخططا وراء هذا الحضور المكثف للمتظاهرين أمام الأهرام، ودعم هذا التفكير اسـتمرار المتظاهرين فى الموقع وعدم انصرافهم، ولو أن الأمر مظاهرة تحمل رسـالة إدانة للجريدة ورئيس تحريرها، ومن يعمل بها سـواء لمسـاندتهم لرئيس الجمهورية أو باعتبارهم جزءا مـن نظام يرفضونه، أو لموقف رئيس التحرير الذى دعم السـادات بقوة خلال أزمة الصراع على السـلطة، لاكتفوا بالهتـاف لفترة ثـم انصرفوا لمواصلة التظاهـر للضغط على الحاكـم والحكومة.. لكن عدم الانصراف والاستمرار، دفع مجموعة من الأهرام إلى الاستنتاج بأن هناك من يدبر شيئا غير معروف الملامح. وقدرت أن وجود هذه الآلاف يشكل خطرا لا على الأهرام فقط، بل وعلى منطقة عشـش الترجمان وبولاق، وأن هذا الخطر يمكن أن يصبح واقعا بشـعا إذا ما أقدم متظاهر واحد على إلقاء طوبة أو حجر باتجاه الواجهة الزجاجية للمبنى للتعبير عن غضبه

وسخطه. كانت صورة ما جرى فى يناير ١٩٥٢م، وما أسفرت عنه من حرائق شملت عدة مبان ومنشآت بالقاهرة ماثلة أمام عينى، وكان يسيرا قراءة سيناريو الأحداث فيما لو بدأت عملية التخريب التى سرعان ما ستتجاوز الدائرة المحدودة للأهرام والمناطق القريبة منه. وإذا ما اشتعلت الحرائق فى هذه المناطق الهشة فاحتمالات امتداد النيران إلى مناطق أخرى لا يمكن تجاهلها، والاحتمال الأسوأ تمثل فى أن حرائق ١٩٧٢م قد تتجاوز ما ترتب من آثار ونتائج على حريق ١٩٥٢م، كان الموقف خطيرا، بل خطيرا جدا، وخشيت من عواقب العجز عن مواجهة الموقف. وتساءلت: أين أنت يا أستاذ هيكل؟!.. فلو كنت موجودا ما تصاعد الأمر إلى هذه الدرجة، ولتمكنت من حسمه بما هو معروف عنك من حكمة وخبرة، ولكن هل يعنى عدم وجودك أن نقف عاجزين؟! ها هو الموقف يتطور، والاحتمالات تحمل الكثير من الأخطار، وتفتح الباب لأحداث لا تحمل أى خير لمصر أو المصريين. واستعنت بالله، وقررت أن أواجه المتظاهرين على أمل السيطرة على المظاهرة فى المرحلة الأولى، وإذا ما تمكنت من ذلك سأعمل على قيادتها بعيدا عن الأهرام فى المرحلة التالية. وقدرت أننى بالضرورة سأخاطب عواطف المتظاهرين ومشاعرهم لا عقولهم، وبالتالى سأضطر إلى قول ما يساير غضبهم، وأيا كان الثمن الذى يمكن أن أدفعه فيما بعد عما سأقوله، فإن المواجهة والعمل على درء الخطر قضية تستحق مثل هذا الثمن. وكنت على يقين أن النظام سيتوقف أمام ما سأقوله، لا أمام الهدف مما أقول، ومع ذلك لم أتراجع. واتجهت فى طريقى إلى خارج المبنى، فأمسك بذراعى الأستاذ مكرم محمد أحمد، وحذرنى بعد أن قرأ ما عزمت عليه، فقلت له: اطمئن، ولا تخش شيئا، فالمواجهة خير من العجز. ووقفت أمام مدخل الأهرام، وخاطبت المتظاهرين، فسألتنى مجموعات منهم: مَن أنت؟!.. فأعلنت للجميع اسمى وعملى كرئيس للقسم العسكرى «وقتذاك».. وأوضحت لهم أننى أتحدث باسم الأهرام، ووجدت من حملنى على الأعناق، وكان من بينهم الزميل رمضان السائق بالأهرام، وامتدت الأيدى لتناولنى ميكروفونا، وخاطبت الجميع بعد أن صمتوا ليسمعوا صوتا من الأهرام بعد أن طال انتظارهم قائلا: أيها الطلبة الشرفاء، يا أنقى عناصر هذه الأمة وأملها وضميرها اليقظ، أقول لكم: إن من يأمرون بإطلاق النيران على صدوركم إنما يلفون حبلا حول عنق النظام، اهتفوا معى: «يسقط الطاغية».. «يسقط الجلاد»، واستجاب المتظاهرون، وصفقوا طويلا، ورددوا الهتاف من خلفى. وأعدت الهتاف مرات ومرات، بعدها شعرت

أن اللحظـة التى أقود فيها المظاهرة بعيدا عـن الأهرام قد حانت، فطلبت ممن يحملوننى على أكتافهم أن يتحركوا باتجاه تقاطع الجلاء مع شارع ٢٦ يوليو، ثم من التقاطع إلى شارع رمسيس، وواصلت الهتاف وهم يرددون. وعندما استقرت المظاهرة فى شارع رمسيس تركتها وأنـا أحمد الله على هذه النتيجة، وعدت إلى الأهـرام، وهناك تذكرت أننى لم أذهب إلى وزارة الحربيـة لأداء عملى كباحث عن الأخبار والمعلومات، فذهبت إلى مبنى الجراج لكى أعثر على سـيارة تنقلنى إلى الوزارة، وما إن وصلت إلى مكتب الوزير حتى أخبرنى العقيد جمال حسـن مديـر مكتبه أن الوزير سـأل عنى، وطلب أن يرانى فـور وصولى، ودخلت مكتبه، وقبل أن يمد يده ليصافحنى سـألنى عما إذا كنت قد شـتمت الرئيس فعلا خلال المظاهرة؟!.. وبالرغم من دهشتى من سرعة معرفته لما جرى، ورغبتى فى معرفة كيف؟!.. فقد قصصت عليه الأحداث بترتيب حدوثها مع توضيح للأسباب والأهداف، وقلت له كل مـا جـرى والهتاف الذى رددته، ولماذا كان على أن أفعل ذلك، للسـيطرة على المظاهرة، وحمايـة الأهرام والمنطقة، بـل والقاهرة من الأخطار التى أحدقـت بها. وأوضحت له أن المظاهـرة قد دخلت فى مرحلة تغلبت علـى المتظاهرين عقلية القطيع، وفى هذه الحالة لا يمكـن التنبؤ بمسـار الأحداث، ويكفى إقدام متظاهر واحد علـى إلقاء طوبة أو حجر على الواجهة الزجاجية لمبنى الأهرام، ومشـاهدة الزجاج وهو يتكسـر حتى يندفع الجميع وهم فـى حالـة من الهياج والغضب، ويخـرج الانفجار المكتوم فى داخلهم على شـكل أعمال تخريبية منها التكسـير والحـرق والنهب، وفى ظل هذا المناخ يجد «فئران الشـوارع» من الصبية المنحرفين والجانحين والعاطلين والجائعين والحاقدين والصائعين، الظروف ملائمة للنهب والسلب والتخريب بكل قواهم وطاقتهم، فهم بطبيعتهم وظروفهم أهل لاستغلال هذا المنـاخ، ويمكن اعتبارهـم أخطر العناصر خلال المظاهرات. وواصلـت قائلا: إن الإنصاف وسعة الأفق وحسن الفهم للأوضاع وما يمكن أن تتطور إليه، وما حققته من نجاح فى حماية الأهـرام، بل والقاهرة كلها من حريق مماثل أو أخطر من حريق يناير عام ١٩٥٢م، يفرض علـى صاحب القرار تكريمى ومنحى وسـاما رفيعا بجانب الإشـادة العلنية بما قمت به، فضحـك الفريـق أول صادق وهو يقول: إن صاحب القرار أمر بإلقاء القبض عليك، واتهمك بأنـك مجنـون، ثم إن الكل يعلم أنك قريب منى، وهناك الآن من يتسـاءل عن دورى فى تحريضك على سـب الرئيس. ولا شـك أن الرجل شعر بالرضا بعد أن سمع روايتى وعرف

التفاصيل، وكان سعيدا بكل ما قمت به، ولكنه تساءل بصوت عال: كيف يمكن شرح الأمر وتبريره للرئيس السادات؟!.. ثم سألنى عن الأستاذ هيكل؟!.. فقلت له: لو كان موجودا لسارت الأمور فى مسار آخر، فعلق قائلا: من المهم أن نحاول أنا وهو، توضيح حقيقة الموقف للرئيس السادات، وشرح الأسباب التى كانت وراء ما قمت به.. وقال: ويجب أن تعلم أنه غاضب جدا، من وصفك له بالطاغية والجلاد. ثم أخبرنى إن ممدوح سالم وزير الداخلية قد أصدر أوامره بالبحث عنى وإلقاء القبض على. وطلب الاتصال بوزير الداخلية، حيث شرح له الموقف، وأبلغه أنه سيتحدث مع الرئيس السادات لتهدئة ثورته، ويبدو أن ممدوح سالم قال كلمات تحمل ضرورة تنفيذ أمر إلقاء القبض على، لأن الفريق أول صادق رد عليه قائلا: إن عبده مباشر يرتدى الزى العسكرى باعتباره ضابطا مكلفا بالقوات المسلحة، وليس من سلطات وزارة الداخلية إلقاء القبض على العسكريين، كما أنه يحمل رتبة عسكرية فخرية منحها له الرئيس السادات منذ عدة أشهر تكريما له على دوره فى عمليات الكوماندوز خلال معارك الاستنزاف، وقال له: إننى أتطلع لأن تأمر رجالك بالابتعاد عن عبده مباشر، للاعتبارات التى قلتها لسيادتك. وفى المساء التقيت بالأستاذ هيكل فى مكتبه، وكان متفهما بصورة مدهشة لكل ما حدث، بالرغم من أن البعض حاول تشويه صورتى، وروى الأحداث بشكل مغاير تماما، وعبر لى عن سعادته وشكره لما قمت به، وطلب أن يسمع منى كيف فكرت وأقدمت على مواجهة المتظاهرين؟!.. فرويت له الأحداث، كيف قرأتها.. وكيف واجهتها؟!.. وجاء تعقيبه مماثلا لتعقيب الفريق أول صادق، فقد قال كيف يمكن أن نبرر الأمر للرئيس السادات؟! فأخبرته أن الفريق أول صادق، أجرى مكالمة لوزير الداخلية، فقال: إنه سمع من صادق حكاية هذه المكالمة. وفعلا قام الأستاذ هيكل بتوضيح الأمر للسادات، وكذلك فعل الفريق أول صادق، وكلاهما أبلغنى أن الصفحة قد طويت، وأن الرئيس قد اقتنع وانتهى الأمر. وقلت لنفسى: لو أنه اقتنع لاتصل بى على الأقل ليسمع منى، أو ليوجه لى الشكر، وبما أنه لم يفعل، فإن الأمر لم ينته بعد بالنسبة له. ومرت أيام عام ١٩٧٢م بكل أحداثها، وفى أكتوبر أقال السادات وزير الحربية محمد صادق، وبعد أسابيع صدر قرار بفصلى من العمل ضمن قائمة الكُتَّاب والصحفيين الذين تم فصلهم، وكنت الوحيد بين المفصولين الذى لا ينتمى إلى أى جماعة يسارية أو حتى معارضة للسادات. وكانت المفارقة قائمة بين دورى فى مظاهرتى ١٩٦٨م

و١٩٧٢م فــى المظاهرة الأولى تمكنت ومجموعة رائعة من الأصدقاء من ســرقة المظاهرة التى دبرها النظام لامتصاص سخط المواطنين على الأحكام الهزيلة على بعض قادة يونيه ١٩٦٧م، وحولناهــا إلى مظاهرة معادية للنظــام، وهتفنا ضد النظام الديكتاتورى وســطوته، وطالبنا بالحريــة وبحكومة حرة.. وكنــا صادقين فى الموقف الذى اتخذنــاه، ومع ذلك كان قرار الرئيــس عبدالناصر بعــدم اعتقالى، قرار رجل دولة، فقد قال لمدير المخابرات الحربية: إن وجــودى كمقاتل بالمجموعة ٣٩ قتــال، أفضل لمصر من وجودى بالمعتقــل. وفى المظاهرة الثانيــة، قدت المظاهــرة بعد أن خاطبت المتظاهرين وهتفت ضد الســادات، لا لأننى ضد الرجل أو ضد سياساته أو مواقفه، بل لأننى قدرت أن هناك أخطارا يمكن أن يتعرض لها مبنــى الأهرام والموجودون به، وخطر من أن يتكــرر حريق يناير ١٩٥٢م، أى أن الضرورة فرضت على هذا الموقف، أى أننى فى النهاية من وجهة نظرى وفى ظل الظروف الموضوعية كنت أؤدى مهمة وطنية، ومع ذلك تقرر فصلى من عملى ونقلى إلى هيئة الاستعلامات. ولم أعد إلى عملى إلا يوم ٢٨ ســبتمبر ١٩٧٣م، ففى الكلمة التى ألقاها الرئيس الســادات فى مناسبة رحيل عبدالناصر، أعلن عودة المفصولين من الكُتَّاب والصحفيين إلى أعمالهم، كان الرجل يســعى من أجل وحدة وطنية، وهو مقدم على إطلاق هجوم عســكرى واسع النطاق لتحرير مساحة من الأرض المحتلة فى سيناء. قبل هذه اللحظة، أى قبل الإعلان عن عودة المفصولين بساعات، اتصل السادات بالأستاذ هيكل وأبلغه بأن الجميع سيعودون فيما عدا عبده مباشــر، وكان منطقيا أن يســأله: لماذا؟!.. فقال الرئيس: إن أحمد إسماعيل وزير الحربية، القائد العام، طلب ذلك، وأبلغه أنه لا يأمن على القوات المسلحة فيما لو عدت، وأن أمامــه ملفــا بالأخطاء التــى وقعت فيها، خاصة دورى فى انقلابات عســكرية ومنها المحاولة الانقلابية الأخيرة التى قادها اللواء على عبدالخبير بعد إقالة الفريق أول صادق. وفعــلا جرى التفكير فى الانقلاب على الســادات، وتمت عدة اجتماعات نوقشــت فيها الفكرة، ولكن رأى اللواء عبدالخبير التراجع عن المحاولة تماما لأسباب شرحها للمجموعة التى شــاركته فــى التفكير والتخطيط، وقد رأى المشــاركون ومعظمهم من الأصدقاء تجنب الاتصال بى بأى شــكل من الأشــكال، لأن مثل هذا الاتصال سيورط الفريق أول صادق فى الانقلاب لعلمهم جميعا أننى ألتقى بالرجل بانتظام، وسواء أخبرونى أو أشركونى فى الأمر أو لا فإن شــبهة الاتهام بالاشتراك ســتثار ويرتبط بها شبهة ضلوع الوزير السابق فى هذه المحاولة، وهم جميعا يريدون من قلوبهم تجنيبه مثل هذا الموقف.

وطــوال فــترة التخطيط التى لم تطل، تجنبوا الاقتراب منى أو من الوزير الســابق. فرد هيكل على الرئيس الســادات، طالبا الحضور إليه ومناقشــته فــى الأمر، فرحب الرجل، وخلال اللقاء، قال السادات: لقد أردت أن أحيطك علما بالموقف من عبده مباشر حتى لا تفاجأ بالأمر، خاصة أنه الوحيد الذى لن يعود إلى عمله.. فشــكره هيكل، وقال للرئيس: إن الأمر بهذه الصورة سيكون مثار تساؤل عام، لماذا تم استثناء هذا الصحفى من العودة إلى الأهرام؟! وسيجرى تفسير الأمر على صور مختلفة، وستتناثر الشائعات، والحل من وجهة نظرى، أن يجرى الإعلان عن تقديم عبده مباشر للمحاكمة بالتهم الموجودة فى الأوراق التى تحدث عنها أحمد إسماعيل، فى الوقت نفسه الإعلان عن عودة المفصولين. ورد السادات بأنه يقبل بهذا الاقتراح، واتصل بالفريق أول أحمد إسماعيل، وطلب منه تقديم عبده مباشر للمحاكمة، وأن يجرى تسليم الملف للقضاء العسكرى لتوجيه الاتهام، ورد أحمد إسماعيل قائلا: إن الأوراق التى تتحدث عنها ليســت وثائق يمكن أن يســتند إليها القضاء. فتساءل السادات: يعنى يا أحمد عايز الراجل ميرجعش شغله دون سند أو اتهام حقيقى؟!.. وقال بحســم عبده حيرجع شــغله مع كل المفصولين. ثم اســتدار لهيكل قائلا: يا محمد سأعلن عن عودة كل المفصولين فى الكلمة التى سألقيها، ولن أستثنى عبده مباشر، فشكره الأستاذ هيــكل. المهم أن الأســتاذ هيكل لم يخبرنى بما جرى إلا بعــد نهاية الحرب، ولكنه كان حريصــا دائما على أن يطلب منى عدم الاحتكاك بأحمد إسماعيل. وكانت علاقتى بأحمد إسماعيل طيبة إلى أن قرر الرئيس عبدالناصر إحالته إلى التقاعد فى يوم الهجوم الإسرائيلى على الزعفرانة فى سبتمبر عام ١٩٦٩م، حيث تولى المنصب بعد استشهاد الفريق عبدالمنعم ريــاض يــوم ٩ مارس ١٩٦٩م. وبعد قرار الرئيس، كتب الأســتاذ هيــكل بالصفحة الأولى بالأهرام أن عبدالناصر يشعر بمدى الخسارة على رحيل عبدالمنعم رياض على ضوء أحداث الزعفرانة، وأنه قرر تعيين قيادات عسكرية شابة ومواكبة للعصر، بدلا من جيل القيادات التى تقدمت فى الســن، ولم تتمكن من مواكبة ما هو جديد. ولأن هيكل كتب ذلك بصفته المحرر العســكرى للأهرام، فقد تصور أحمد إسماعيل أننى الذى كتبت ذلك. وعندما نقل لى صديق مشترك غضب الرجل مما نشره الأهرام، اتصلت به تليفونيا، وأوضحت له أننى لم أكتــب ذلك، ولكن الأســتاذ هيكل هو الذى كتبــه، رد بغضب: إن هيكل ليس المحرر العســكرى للأهرام، وأنه يكتب دائما تحت عنوان بصراحة، وهو مقتنع أننى الذى كتبت

لأننى المحرر العسكرى للأهرام، وأن ما كتبته يشوه صورته أمام الجميع، كما أنه ظلم وافتراء على الحقيقة. وأكدت له خلال المكالمة، أننى لم أكتب، وليس لدى أى سبب لأكتب عنه بهذه الصورة، وأن علاقتى به كانت دائما طيبة، كما أننى لم ألتق بالرئيس عبدالناصر طوال هذه الفترة، وهذا أمر يمكنه التأكد منه، ولم أحادثه تليفونيا، وبالتالى فإن من كتب التقى بعبدالناصر، أو حدثه تليفونيا، وسمع منه هذا الرأى.. ليس ذلك فقط، بل يبدو واضحا أن الرئيس هو الذى طلب النشر، وبهذه الصياغة. فقال بألم: ليتنى أتمكن من تصديقك.

❑❑❑

الفصل الحادى عشر
حوار فى جزيرة الفرسان

كثـيرا ما كان الرئيس السـادات يطلب الالتقاء بالقـادة والضباط هنا أو هناك بجانب حرصـه على حضور معظم حفلات تخريج دفعات جديدة من الكليات العسـكرية، خاصة بعد عاصفة مايو ١٩٧١م، وكانت له أسـبابه، ولكنها لم تكن مطروحة بشـكل علنى، ولم يكن هناك من هو على اسـتعداد لسؤاله عنها. وكان واضحا أنه يريد أن يكون على اتصال دائم بالقوات المسلحة وهو يخطو على طريق الاستعداد الجدى للحرب، ومن خلال كلماته كان يسـعى لتحقيق مجموعة من الأهداف، وإرسـال رسائل لهذه الجهة، أو تلك.. وربما أراد أن يضع قدمه داخل القوات المسـلحة، وأن يؤكـد حضوره بجانب القائد العام، وأن تتاح له فرصة الحوار مع مجموعة مختلفة من القادة بشكل مباشر، ليسمع منهم وليجعلهم أكثر قربا منه سـواء بالحوار أو بالاسـتجابة لمطالبهم. وخلال هذه الزيارات فى معظمها، كنت الصحفى الوحيد الذى يتابع، لا بصفتى الصحفية، بل باعتبارى المستشـار الصحفى والسياسـى لوزيـر الحربية. وكان الرئيس يرتجل كلماته، فهـو يعرف ما يريد أن يقوله، والأهداف التى يسـعى لتحقيقها.. ولم يكن أمام الفريق أول صادق سـواى لكى يطلب منه كتابة الكلمة التى ألقاها الرئيس بجانب تقرير للنشر الصحفى عن الزيارة. وفى المرة الأولى التى طلب فيها منى ذلك فى أعقاب لقاء بالجيش الثانى الميدانى، أخبرته إننى لم أكتب كل ما قال الرئيس، بل سـجلت مجموعة من النقاط، فطلب أن أجلس مع اللواء حسـن الجريـدلى، أمين عام الوزارة وكل من العميدين جمال حسـن مديـر مكتبه ومحمود عادل المسئول عن العمليات لاستكمال كتابة الكلمة.. وقد بذلنا جهدا لكى نتذكر، لأننا كنا على يقين أن الوزير سـيقرأ الكلمة وكل ما نكتبه للرئيس الذى يريد لرسـائله أن تصل ولأهدافه أن تتحقـق. وفعلا قرأ الوزير الكلمة للرئيس، فوافق على نشـرها.. وفى اليوم التالى انتقل الرئيس لزيارة الجيش الثالث، وتكرر الأمر نفسه، ولكننا حرصنا على تسجيل كل ما يقال خلال اللقاء، واسـتمر الأمر على هذا المنوال. وبعد زيارة للقوات الموجودة بمنطقتى بلبيس

وأنشــاص، عدنا جميعــا إلى القاهرة.. وعندما انتهيت من كتابــة التقرير الخاص بالزيارة والكلمــة، توجهــت إلى مكتب الوزيــر، فأبلغونى أنه ينتظرنى بمجلس الــوزراء.. وهناك وجدت موظفا من المراسم فى انتظارى على المدخل، قادنى إلى حجرة بالدور الأول.. وبعد لحظات حضر الوزير وقرأ ما كتبت، ثم اتصل بالرئيس السادات، وقرأ له التقرير والكلمة، فسأله عما إذا كان هو الذى يكتب ذلك، فأخبره أننى الذى أتحمل هذه المسئولية، فطلب منه إبلاغى شكره، وفى الوقت نفسه طلب أن أعد له الكلمات التى سيلقيها خلال زياراته المقبلة، وأنه سيبلغ الوزير بالنقاط المطلوب التركيز عليها. وكلفنى صادق وهو يشعر بالرضا أن ألبى طلب الســادات، وأكتب له كلماته، ثم قال: اقرأ كل ما قاله الســادات من قبل، وعــد لقراءة خطب الرئيس عبدالناصر، وأخبرنى أنه ســيأمر بتزويدى بكل كلمات رئيس الوزراء الإسرائيلى ووزير الدفاع ورئيس الأركان لأتابع مواقفهم وسياساتهم. وبدأت مرحلة جديــدة، كنت أعرف أو أتلقى خــبر وموعد الزيارة والقضايا المطلوب التركيز أو الإشــارة إليها، وبعد أن أقوم بقراءة ما صدر عن إسرائيل أو عن دول المنطقة فيما يتعلق بمصر، أبدأ فــى الكتابــة. وخلال هــذه المرحلة، تصاعد التوتــر مع الاتحاد الســوفييتى وزادت حدة الخلافــات فى وجهات النظر وتباعدت المواقف، وبدأ وزير الحربية فى التحدث علنا عن المماطلة فى تزويد مصر باحتياجاتها العســكرية وعدم الوفاء بالعقود التى تم توقيعها، كما أزاح الســتار عن الضغوط الســوفيتية للحصــول على مزيد من القواعــد الحربية والبحرية والجوية فى مصر خلال الزيارات التى يقوم بها داخل القوات المسلحة. وقد تجاوبت هذه القوات مع موقف الوزير، وأكدت تقارير الرأى العام زيادة حدة الكراهية للسوفييت، وقد شكل كل ذلك ضغوطا على الرئيس السادات، ولم يكن أمامه سوى التجاوب مع اتجاهات القوات المسلحة. وساعدنى ذلك كثيرا وأنا أؤدى هذه المهمة. وكان المتبع أن أكتب مسودة الخطــاب، وأعرضها على الفريق أول صادق ليبــدى ملاحظاته عليها، وعلى ضوئها أعيد الكتابــة، ثم تجرى بعد ذلك كتابته بخط اليــد على يد خطاط، وخلال مصاحبته للرئيس ســواء فى الطائرة أو السيارة أثناء التوجه إلى الموقع، يعرض عليه الخطاب.. واستمر الأمر على هذه الوتيرة دون أن يعلم أحد من خارج دائرة مكتب الوزير شيئا عن هذا الدور أو هذه المهمة. وخلال زيارة للجيش الثانى بالإسماعيلية، طلب الرئيس أن أذهب إليه فى استراحة جزيرة الفرســان، وهناك أملانى عدة نقاط طلب منى التركيز عليها وأنا أكتب الكلمة التى

سـيلقيها غدا بالجيش الثالث بالسـويس، ووعدته بإنجاز ما طلب قبل أن يحل المسـاء، فقال: يكفى أن أقرأه فى الطائرة العمودية «الهليوكوبتر» صباح الغد. كانت كل النقاط تتعلق باحتقان العلاقة المصرية، السوفيتية، فقد زار موسكو يومى ١، ٢ فبراير عام ١٩٧٢م، وعاد وهو يحمل كثيرا من الوعود، وعاش تحت وطأة التصور أن الأمور ستختلف فى أعقاب هذه الزيارة، التى أكد خلالها للزعماء الثلاثة بريجنيف وكاسـيجين وبودجورنى أن صبر مصر أوشـك علـى النفاد، وأوضح لهم مـا تتطلبه الأوضاع الحالية فى المنطقة وشـرح لهم آخر تطورات الصراع المصرى الإسرائيلى، والظروف التى تمر بها الجبهة ومشاعر الغضب التى تجتاح القوات المسلحة، وقد جاء رد الزعماء مطمئنا، وأعربوا له عن اقتناعهم بكل ما قال، ثم قالوا بثقة إنهم سيبدأون اعتبارا من الغد فى إصدار التعليمات للوفاء بالصفقات التى لم يتم تنفيذها بعد، والبدء بتنفيذ الصفقات الجديدة. توقع السادات أن يبدأ وصول شحنات الأسـلحة فورا.. ولكن الشحنات التى بدأت تصل لم تتضمن شيئا من الأسلحة المطلوبة أو المتفق عليها. كان السـوفييت يتلاعبون وينـاورون. وبدا لى بصورة واضحة أن الرئيس وهو يملى على هذه النقاط، أنه فى حالة غضب شديد، وإن حاول السيطرة عليه.. وتأكدت من اسـتنتاجاتى، عندمـا طالبنى أن تكـون الكلمات والصياغة قويـة وواضحة وحاسمة، مع تجنـب العنف والحدة. وكان الطريق ممهدا لأسـأله: ما الـذى يدفع قوة عظمى كالاتحاد السوفييتى للمماطلة؟!.. ثم أليس لهذه القوة مصالح فى المنطقة وفى مصر لتحافظ عليها؟! قال: بالقطع لهم مصالح.. ولكنى أتوقع أنهم يشـعرون بالاستياء لإبعاد رجالهم من مواقع السـلطة فى مايو ١٩٧١م.. ومن موقف مصر من الانقلاب الشيوعى فى السودان، وفى كلا الموقفين كنت على اتصال بالقادة السـوفييت وأوضحت لهم ما سوف أفعله وأسباب ذلك، فعلت ذلك قبل التخلص من مجموعة على صبرى ومحمد فوزى، بل وعقدت معهم معاهدة لإزالة شكوكهم ولضمان مصالحهم. وعدت لأسأل: ألم تكن مصر تعلم وهى تخطو فى اتجاه السـوفييت، أنها اختارت اللعب مع قوة عظمى لها أهداف ومصالح مع المعسـكر الغربى، بل وعلى اتسـاع الكرة الأرضية.. فى حين أنها دولة تحاول جاهدة الخروج من معسـكر التخلف، وأن ما تملكه من أوراق ليس بالكثير؟! فالتفت الرئيس، التفاتة مَن لم يتوقع مثل هذا السؤال.. ثم قال: لقد كان عبدالناصر يدرك هذه الحقيقة بشكل ما فى البداية، ولكنه أدركها بشكل كامل خلال السنوات الأخيرة، أو فلنقل خلال العام الأخير من حياته، وكان

ذلــك وراء إعلانه قبــول مبادرة روجرز وزيــر الخارجية الأمريكــى الخاصة بوقف حرب الاســتنزاف بشكل أساســى أثناء وجوده مع القادة السوفييت فى موسكو فى منتصف عام ١٩٧٠م. فعقبت قائلا: لقد جاء الإدراك متأخرا، وبعد أن ثبتوا أقدامهم لا فى مصر فقط، بل فى المنطقة وفى القارة الأفريقية وأصبح لهم أسطول بالبحر المتوسط وقواعد برية وبحرية وجويــة فــى منطقــة لم يكن لهم وجــود بها قبل بــدء علاقتهم بمصر عــام ١٩٥٥م. قال السادات: لم يعد من المجدى البكاء على ما فات، ولكن من الضرورى إجراء عمليات تقييم مســتمرة للعلاقات مع الســوفييت قبل اتخاذ أى قرارات. كانت الجملة تحمل كثيرا من المؤشرات والإشارات والدلالات، وكانت تعنى أن الرجل يمر بهذه المرحلة وأنه على وشك اتخاذ قرارات مهمة فى هذا الصدد، ولكننى لم أشأ مواصلة الحوار حولها، وعدت لأسأل عن موقف عبدالناصر من الســوفييت، وعما إذا كان يفكر بشكل جدى فى إنهاء العلاقات معهم بعد إعلان قبول مبادرة روجرز؟! وقال السادات: لا أعتقد أنه قد حسم اختياره بهذه الصورة، وقد ناقشــت الرئيس جمال حول هذه النقطة، فقال: إنه كان يشــعر باليأس من موقف الزعماء السوفييت، وواصل قائلا: فى تصورى أنه قبل المبادرة كوسيلة للضغط عليهم من أجل تغيير موقفهم. وهنا قال الرئيس السادات: لقد رحل الرئيس جمال عبدالناصر بعد حوالى شــهرين من قبوله للمبــادرة الأمريكية، وترك من خلفه كارثــة اقتصادية، وأخرى سياســية.. ولكن الأولى هى الأســوأ.. فلقد نقلت مصر بغباء شديد الأسلوب السوفييتى فى إدارة اقتصــاد الدولــة، ولم يكن ذلك ملائما لأنها كانت تفتقــر للموارد المالية والإمكانيات والكوادر البشــرية، ولم يكن هناك من هو قادر على التوقف والمراجعة. وقلت للرئيس: فى بداية الثورة كانت بريطانيا مدينة لمصر بأربعمائة مليون جنيه استرلينى.. ومثل هذا المبلغ كان كافيا لبدء مشروعات تنمية اقتصادية تساعد مصر على التحول إلى كيان قوى اقتصاديا.. فالتقط الســادات الخيط، وقال إن مصر كانت عفية وقوية فى ذلك الوقت، وكان ممكنا أن تصبــح أفضل، ثــم علينا أن نتذكر أن عمليات التمصير عــام ١٩٥٦م والتأميم عام ١٩٦١م أضافت أكثر من ألف مليون جنيه، ولو سارت مصر على الطريق الصحيح لتحولت إلى قوة اقتصاديــة كبيرة، ولتحققت انطلاقة هائلة فى كل المجالات، ولكن التطبيق الاشــتراكى والاختيارات الخاطئة وانتشــار الفســاد والخوف، أصاب مصر بالشلل، وأقعدها تماما. ولا يمكــن لمصر الخروج من هذا المأزق إلا بانتصار عســكرى يوفر لهــا القدرة على الانتقال إلى

اختيــارات جديــدة. ووصل الحوار إلى نقطة النهاية، فها هو الرجل يرســم خريطة الأيام المقبلة، ويكشف عن منهج تفكير، واضح المعالم ركيزته انتصار عسكرى يقود إلى تغيير فى المســارات التى قيدت حركة مصر فى الماضى. ومن خلال الحوار مع كل من موسى صبرى وأنيس منصور، عرفت أنهما يخططان لحوار عميق وشــامل مع الســادات حول ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وكل منهما صديق أثير للرجل، وقد حصلا على وعد بالبدء فى التســجيل عندما تسمح الظروف..، والتزم السادات بوعده بعد انتصار أكتوبر ١٩٧٣م. وقبل أن أستأذن فى الانصراف، تطلعت للحصول على وعد مماثل، وقال الرجل إنه سيخصنى ببعض ذكرياته، ولكن الوقت حاليا مازال مبكرا. وخرجت من الاستراحة وأنا أدرك أن الصورة قد أصبحت أوضــح فيما يتعلق بعلاقات الســادات بالاتحاد الســوفييتى وأننى أســتطيع كتابة الكلمة المطلوبة بشــكل أفضل. وفى الاســتراحة التى كنا نقيم بها بالإسماعيلية عكفت على كتابة الخطــاب، واضعا فى اعتبارى الالتزام بكل ما قاله الرئيس، وبعد أن انتهيت من كتابته، قرأته، ورأيت أننى يجب أن أكتبه مرة أخرى. وذهبت إلى الفريق أول صادق، فلاحظ أن الكلمــة تتضمن هجوما قويا على الســوفييت، فأوضحت أنى التزمــت بما طلبه الرئيس، فوضع تحت بعض الجمل والفقرات خطوطا، وقال: إنه سيذهب الآن إلى الرئيس بصحبة اللواء ســعد مأمون قائد الجيش الثانى، وســيعرض عليه الخطــاب، فربما يعيد النظر فى الأمر. وعندما عاد، ســألنى: ماذا فعلت وقلــت للرئيس: لقد تحدث عنك كثيرا، فقلت: لقد طرحت عليه عددا من الأسئلة لأتبين ماذا يريد أن يقول فى خطابه غدا، بعد أن أملانى النقــاط التى يجب التركيز عليها.. فقال، لقد أبدى إعجابه بالخطاب، وقال إنك التزمت بــكل ما قاله، ونفذت تعليماته بدقــة. وبهذا الخطاب الذى ألقاه الرئيس أثناء لقائه بقادة وضبــاط الجيــش الثالث الميدانى بالســويس، عبر عن غضبه واســتيائه مــن موقف القادة الســوفييت، وكانت الرسالة واضحة، وحملت إنذارا مبكرا بالقرار الذى اتخذ خلال شهر يوليو ١٩٧٢م بتحرير مصر من الاستعمار السوفييتى، ولكن مثل هذه الرسائل لا تؤدى فى معظــم الأحــوال إلى تغيير جــذرى فى مواقف الــدول العظمى. كان للســوفييت أطماعهم ومصالحهم وعلاقاتهم وتوازناتهم، ولم يكونوا بالمرونة التى تسمح بإجراء تغيير فى مواقفهم. كانت هناك اتصالات واسعة النطاق مع الولايات المتحدة للتوصل إلى أرضية جديدة مشتركة تعمل على تهدئة المخاوف والشــكوك فى العاصمتين موسكو وواشنطن. وفى مايو ١٩٧٢م،

اســتقبلت موسكو الرئيس الأمريكى نيكســون، ودارت مفاوضات بين الطرفين، انتهت إلى تفاهم مشــترك، وكانت قضية الصراع العســكرى والسياســى فى الشــرق الأوسط، والنزاع المصــرى الإســرائيلى من القضايا الموضوعة على مائدة المفاوضــات، وقد انتهى الطرفان إلى فرض الاسترخاء العسكرى على المنطقة، وبصورة أخرى استمرار حالة اللاسلم واللاحرب، بين مصر وإســرائيل. لم يكن الســادات يعلم شــيئا عن هذه الاتصالات فقــد فرض القادة الســوفييت كعادتهم قيودا صارمة للحفاظ على ســرية هذه الاتصالات، وبالتالى لم يكن فى مقدوره توقع اتفاق موسكو وواشنطن على تجميد الموقف فيما يتعلق بالصراع العربى المصرى الإسرائيلى. وقد دارت العجلة فيما بعد وفق ما أراد السادات، وتحول الغضب من المماطلة الســوفيتية إلى قرار بطرد الخبراء والمستشــارين الســوفييت يوم ٨ يوليو وتم تنفيذه يوم ١٦ يوليو ١٩٧٢م.



الفصل الثانى عشر
رحلة الإسكندرية مع فايتسمان (١)

بعـد أيـام من تحمله لمسـئولياته كرئيس لمصر خلفـا للرئيس جمـال عبدالناصر.. قرر السادات الاجتماع بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٠م.. وكان الهدف من الاجتماع إحاطة الرئيس علما بحقائق الأوضاع والموقف العسـكرى، وطرح القضايا التى تبحث عن حلول، وكل ما يتعلق بالخطط التى وضعتها القيادة العامة لرفع الكفاءة القتالية للقوات المسلحة ككل، وللقادة بصفة خاصة، وموقف التسليح والصفقات التى تم عقدها مع السوفييت وما تم تنفيذه منها. وتحدث الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية والقائد العام للقوات المسـلحة باسـتفاضة، ثم تحدث عدد كبير من القادة، وبدا واضحا أنهم مهتمون بطرح الأسـئلة أكثر من اهتمامهم بالحديث عن الظروف التى تمر بها القوات المسـلحة.. واستمع السادات باهتمام إلى أن بدأ فى مخاطبة المجتمعين، وفى البداية شرح الموقف كما يراه، وأبدى رأيه فيما سمعه من الوزير والقادة، ثم قال وهو يضغط على الحروف، وينتقى الكلمات، إنه يطلب منهم الاستعداد للحرب، وتحرير ولو عدة سنتيمترات شرق القناة وفقا للإمكانيات المتاحة لهم، وواصل قائلا: بعد ذلك يأتى دور السياسة. هذه الكلمات كشفت بصورة واضحة ومبكرة استراتيجية الرئيس السادات فيما يتعلق بالحرب والسلام، ولكن ما قالـه الرجـل لم يحظ بما يسـتحقه من عناية. لقـد كانت الكلمات دسـتورا لعمل رئيس الجمهوريـة، ولكنهـا لم تكن كذلك بالنسـبة لوزير الحربية ولعدد كبـير من أهل القمة.. فالأغلبية لم تأخذ ما قاله مأخذ الجد، بل لم يكن الفريق أول فوزى على استعداد للتعامل مع السـادات بصفته رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة، لقد كان هو وفريقه وعلى رأسهم على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعة يتعاملون معه على أنه رئيس مؤقت سرعان ما سيرغمونه على ترك منصبه ليكون من نصيبهم. وعلى ضوء الاستهانة بالسادات والاقتنـاع العميق بأنهم الأحـق والأجدر بحكم مصر، كانوا يتعاملـون معه، وعندما أعلن

بوضوح منهجه واستراتيجيته وأهدافه، تجاهلوا ذلك، وتصرفوا وكأنه لم يقل شيئا هاما وخطيرا. وكان عدم الاعتراف بأحقية السادات فى المنصب وراء محاولة الانقلاب العسكرى التى بدأها فوزى قبل أن يوارى عبدالناصر التراب، ثم تمكن الفريق محمد صادق رئيس الأركان من إفشالها، وأوقف دوران الآلة الانقلابية. وكانت هناك محاولة أخرى لإبعاد السادات عن المنصب، فأثناء اجتماع اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى العربى الذى دعا إليه الرجل لمناقشة الوضع بعد وفاة عبد الناصر، قال حسين الشافعى: إنه يخشى من نتائج اسم السادات كرئيس لمصر، فقد يرفضه الشعب، وهذا الرفض سيعنى رفض ثورة ٢٣ يوليو، بما يمثل إحراجا بالغا للجميع.. وورطة لمصر.. ورد السادات بقوة لإحباط هذه المحاولة بقوله: إنه يملك الشجاعة الأدبية للتخلى عن حقه فى رئاسة مصر، ودعوة اللجنة التنفيذية من جديد لاختيار مرشح آخر، وذلك حرصا منه على تسليم المسئولية لرئيس منتخب من الشعب. وانتهت المناقشات بتسمية السادات مرشحا لرئاسة الجمهورية، وفعلا تم انتخابه يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٠م.. ومنذ اليوم الأول، بل ومنذ ما قبل اليوم الأول، أخذ الرجل يتحرك لتثبيت أقدامه، ولكسب الوقت والعمل من أجل الفوز بثقة المواطنين. كان يعرف طريقه جيدا، فلقد ظل لسنوات يدرس ويخطط وينتظر، وكان مخططه للفوز بالرئاسة خلفا لعبدالناصر يعتمد على الصبر والمداهنة والتعمية، وكان لزوجته الفضل فى جعل بيته واحة يجد فيها عبدالناصر راحته من متاعب المسئولية وضغوط العمل، وقد نجحت أيما نجاح فى ذلك. كانت نية السادات تتجه للحرب، ولكنه وعلى ضوء ما سمع وما كان يعرفه من معلومات عن أوضاع القوات المسلحة من قبل، كان فى حاجة إلى وقت للاستعداد على كل المستويات العسكرية والسياسية والمدنية بما فى ذلك الاقتصاد. كانت مصر قد قبلت مبادرة روجرز، وفعلا تم وقف إطلاق النار على الجبهة اعتبارا من يوم ٨ أغسطس عام ١٩٧٠م، ولكن كانت فترة المبادرة ستة أشهر، وفى يناير ١٩٧١م كان على السادات أن يتخذ قرارا بعد مرور هذه الفترة. وأثناء اجتماع للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى لمناقشة الأمر، كانت وجهة نظر فوزى وباقى أعضاء مجموعة الورثة تتمثل فى استئناف معارك الاستنزاف مع إسرائيل.. ولم يكن الأمر بالنسبة لهم مجرد العودة إلى سياسة إطلاق النيران، بل كان أكثر عمقا وخطورة، فقد كانت هذه المعارك هى الطريق لبقاء الأوضاع كما هى، أى استمرارهم على مقاعد السلطة، وعجز السادات عن الإقدام على

التخلــص منهم.. خاصــة من وزير الحربية الــذى يقود العمليات ضــد العدو، لأن معنى الاقتراب منه يســاوى الاتهام بالخيانة. ولم يكن الســادات بالرجل الساذج لكى تمر عليه مثل هذه المناورة التى اســتهدفت إحراجه وحصاره، لذا أعلن أنه لن يوافق على استئناف معارك الاستنزاف إلا بعد استكمال منظومة الدفاع الجوى، خاصة عن صعيد مصر، لتأمين كل المنشآت من غارات العدو الجوية.. وبمثل هذا المنطق تمكن من الالتفاف حول اقتراحهم، ثم أكمل بطرح اقتراح بتجديد مبادرة روجرز لمدة شهر واحد، ينتهى يوم ٧ مارس ١٩٧١م. ولم يكن أمامهم ســوى القبول بالاقتراح، خاصة أن فترة الشــهر ليســت بالفترة الطويلة. وكســب الســادات مساحة من الوقت.. ويوم ٤ فبراير ١٩٧١م، فاجأ الجميع وهو يتحدث أمام مجلس الشــعب بطرح مبادرة للســلام، عمادها: انســحاب إســرائيل بعيدا عن ضفة القناة، وحتى منطقة المضايق الجبلية فى ســيناء، ثم العمل على إعادة فتح قناة الســويس للملاحة بعد أن تعبر القوات المصرية للسيطرة على الضفة الشرقية للقناة، كما تضمنت مد فترة وقف إطلاق النيران لمدة ســتة أشــهر بجانب الاستعداد لإعادة العلاقات مع الولايات المتحدة.. أدى إعلان المبادرة إلى إصابة مجموعة الورثة بالوجوم، كان الأمر شــديد الوقع، لأن الســادات لم يناقش الأمر معهم من قبــل، ولم يخبرهم بنيته، كانت المفاجأة صاعقة. فها هو يخرج بشــكل كامل عن فكرة أو مبدأ القيادة الجماعية التى ســبق أن التزم بها، ويتحداهم ويحشرهم فى مساحة ضيقة، ويحول بينهم وبين القدرة على مواجهة الأمر، بعد أن تحولت المبادرة إلى أمر واقع على المسرحين الإقليمى والعالمى. ولأول مرة: يسمع العالم صوتا موضوعيا ومختلفا عما كان يقال على لســان المســئولين العرب على امتداد ســنوات الصراع. كما أن المبادرة كانت التعبير القوى الثانى عن اســتراتيجية الســادات فيما يتعلق بالحرب والسلام، وبها اقترب من صناع السياسة والقرار بدول العالم الكبرى.. وإن أدركوا كمــا كان هو يدرك أن الوضع لم ينضج بعد لمثل هذه المبادرة، فمازالت القوى العالمية تنظر لمصر كدولة واجهت الهزيمة وعليها أن تقبل بما يفرضه الواقع أو أن تعمل على تغيير هذا الأمر الواقع. ولكن الســادات، كســب وقتا كان فى حاجة إليه، وأعطى إشارة مبكرة أنه قائــد يمكن التفاهــم معه، وأنه فى النهاية يريد الســلام ولكن ليس بــأى ثمن. وتفاعلت العوامل الداخلية والخارجية، وفى النهاية أعلن الرئيس السادات يوم ٧ مارس ١٩٧١م أن مصر غير ملتزمة بوقف إطلاق النار، وأوضح انتهاء مبادرة روجرز، وفى الوقت نفســه قرر

عدم تجديد معارك الاستنزاف. لقد تبين أن الوقت مازال مبكرا للقبول بمبادرة السلام التى أعلنها.. وفى الوقت نفسه لم يكن متاحا له الاستمرار فى القبول بمبادرة روجرز، وما ترتب عليها من وقف لإطلاق النيران بالجبهة، فأعلن نهايتها، ولكنه لم يمض حتى نهاية الطريق، ويعلن أو يقرر العودة إلى حرب الاستنزاف. وبرغم رضا مجموعة الورثة عن إلغاء مبادرة روجرز إلا أنهم لم يكونوا سعداء بموقفه من حرب الاستنزاف. وحاول الفريق أول فوزى استدراج السادات للتوقيع على قرار بتجديد معارك الاستنزاف، بأن قدم له القرار للتوقيع وهو يهم بركوب سيارته بعد انتهاء اجتماع للمجلس الأعلى للقوات المسلحة.. إلا أن السادات تنبه وقرأ الورقة المقدمة له بعناية.. بعدها وبخ وزير الحربية على مثل هذه المحاولة البعيدة عن الصواب، وشرف القصد. وانتهى الصراع على السلطة بين الرئيس ومجموع الورثة بنجاحه فى التخلص منهم ومحاكمتهم ووضعهم فى السجن، وبذلك جمع فى يده أهم خيوط السلطة، وواصل بعد ذلك سياسة كسب الوقت، فأعلن أن عام ١٩٧١م هو عام الحسم، ومر العام دون حسم! ! وكان فى حاجة لوقفة مع الصديق السوفييتى أمام استمرار المماطلة.. وفى النهاية قرر إنهاء مهمة المستشارين والخبراء والقوات السوفيتية فى مصر فى يوليو ١٩٧٢م. وفى أكتوبر أقال وزير الحربية محمد صادق واستكمل حلقات السيطرة على مفاتيح السلطة وصمد فى مواجهة ضغوط الشارع المصرى إلى أن أطلق الحرب من عقالها فى أكتوبر ١٩٧٣م، وحقق نصرا هائلا على القوات الإسرائيلية.. وبالنصر حقق المرحلة الأولى من استراتيجيته كما أعلن عنها فى أول اجتماع له بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة، بعدها بدأ مسيرة السلام بتوقيع اتفاق الفصل الأول بين القوات فى يناير ١٩٧٤م وواصل مسيرته السلمية بتوقيع اتفاقية الفصل الثانى. ولم تعد مثل هذه الخطوات أو الاتفاقيات تصلح للمرحلة المقبلة. كان السادات يعد المسرح عالميا وإقليميا ومحليا لخطوة غير مسبوقة، وبعد انتهاء مرحلة الإعداد فاجأ العالم بزيارته لإسرائيل فى هذه الليلة من نوفمبر ١٩٧٧م، كان السادات هو الشخصية التى كسبت رصيدا هائلا بإسرائيل. ومن بين كل القادة والمسئولين الذين التقى بهم كان «عزرا فايتسمان» من القلة التى تعاملت معه ببساطة ومودة واقترب منه على المستوى الإنسانى. ومن طرائف اللقاء الأول بينهما، أنه قال وهو يصافحه: «أى شيطان أوحى لك بفكرة زيارة إسرائيل، وإحراجنا جميعا داخل الدولة حكومة وشعبا، ولكى تكسب قلوب الناس، خاصة من خسروا آباء أو أبناء فى

الحـــرب؟! !». ثم قال له: لقد طرح البعض مخاوفهم مـــن أن تكون المبادرة خدعة هائلة، حيث ســتكون فى الطائرة مجموعات من المقاتلين مهمتهـــا إطلاق النار على كل القيادات والشخصيات الإسرائيلية التى ستكون بانتظارك فى المطار.. فأكدت لهم أنك لست بالرجل الــذى يفعــل ذلك.. أو حتـــى يفكر فى مثل هذه المجزرة، وقلت إن من يمتلك الشــجاعة للإقدام على هذه الخطوة هو رجل صادق وجرىء ويســعى لســلام حقيقى، ثم قلت إننى أضمن لكم ســلامة مقصده ونواياه، وعندما أصروا على وضع الخطط لمواجهة هذا الاحتمال تركتهم يفعلون ما يريدون، إنها المخاوف والشــكوك الإســرائيلية المتوارثة. وتنطلق موجة عالية من موجات السلام فى أعقاب زيارة الرئيس السادات لإسرائيل، وتبدأ الاجتماعات والزيارات والمناورات ويصل إلى القاهرة «عزرا فايتســمان» وزير الدفاع الإسرائيلى فى يناير ١٩٧٨م للمشــاركة فى اجتماعات اللجنة العســكرية ويســتقبله الســادات فى أسوان وفى القاهرة تبدأ الاجتماعات يوم ١١ يناير، وتتوقف.. ثم تستأنف مرة أخرى فى نهاية الشهر نفســه.. ويطلب الرئيس أن أذهب إليه فى أسوان، وأثناء اللقاء يبدى تقديره لوزير الدفاع الإسرائيلى ويقول إن موقفه من السلام تأثر كثيرا بإصابة ابنه «شاءول» فى حرب الاستنزاف إصابــة أثــرت عليه وعلى حياته، ثم ســألنى عما إذا كنت أســتطيع معرفة بعض مفاتيح شخصية الرجل.. وأعده بأن أبذل غاية الجهد، فيخبرنى أنه تحدث مع محمد الجمسى، ويطلــب منـــى أن ألتقى به والتنســيق معه. وأعــود إلى القاهرة، وألتقى بالوزير الجمســى ونتحاور حول الأمر، وأســتأذنه فى أن أعــود وألتقى به بعد أن أقرأ بعضا مما هو مكتوب ومنشــور عنه. وفى اللقاء التالى ســألته عما إذا كان ممكنا أن أصاحب الرجل فى أى رحلة يقوم بها خارج القاهرة.. فيخبرنى أنه طلب أن يزور الإسكندرية، واقترح أن أكون مرافقه فى الســيارة التى يســتقلها، وأن يكون الســفر عبر الطريق الزراعى، فســألنى: لماذا؟!.. فأوضحت أن مصر لا تكشــف وجهها للزائر، إلا إذا اخترق الدلتا، فالأرض والبشــر هما جوهر الحياة، وأهم أعمدتها.. وأريد له أن يرى ذلك طوال الوقت الذى تستغرقه الرحلة. ويجرى ترتيب الأمر مع الوفد الإســرائيلى، ومع فايتســمان، ويوافق الرجل على مرافقتى له. وخلال اتصال تليفونى مع الجمسى قبيل بدء الرحلة أسأله عما إذا كان ممكنا أن ينصح وزير الدفاع الإسرائيلى بزيارة سريعة لطنطا، كأكبر مدينة بوسط الدلتا، فيقول إنه سيقترح عليه ذلك، وهنا أرجوه ألا تكون هناك تشريفة وأن تمضى الأمور بصورة طبيعية، وألا تعوق

الإجراءات الأمنية هذه الخطوة لأننى أسعى لمعرفة رد فعله على كثافة الزحام، وتأثير ذلك على حركة المرور فى شوارع المدينة، وسأتولى توضيح تدفق الزائرين من مختلف مدن الدلتا على طنطا لزيارة السيد البدوى، ومن هو الرجل ودوره الدينى والجهادى. وأتلقى اتصالا تليفونيا يفيد اعتراض الفريق الأمنى على فكرة التوقف فى طنطا، وبعد حوالى الساعة يحدثنى الرجل ويقول إن فايتسمان راقت له فكرة المرور فى شوارع طنطا ومشاهدة مسجد السيد البدوى. ونبدأ الرحلة.. وأسأل الرجل عما تبقى فى ذاكرته عن فترة وجوده فى مصر؟!.. ويستفيض الرجل فى الحديث بكثير من الحميمية عن هذه الفترة، وتخترق السيارة منطقة شبرا الخيمة وأول طريق القاهرة الإسكندرية، ويلاحظ الرجل بعضا من فوضى المرور وعبور المشاة للطريق من أى منطقة دون مبالاة بالخطر أو بالسيارات التى تقطع الطريق بسرعة، وكثرة عدد السيارات من مختلف الأنواع، وبعد عدة كيلومترات يلاحظ أن الناس تعبر الطريق وهى تقود المواشى، ويسألنى ألا يوجد من ينظم حركة المرور ويفرض احترام القواعد، فأقول بالطبع يوجد، ولكن الواقع أقوى من المرور ورجاله، فإذا كانت الحقول على جانب من الطريق، والمنازل على الجانب الآخر، فإن الحل السهل هو اجتياز الطريق ومحاولة تجنب المخاطر بقدر الإمكان، ولقد كان من الصعب بناء أنفاق أو كبارى علوية على مسافات متقاربة للتيسير على الناس، وتمكينهم من عبور الطريق، وتجنب المخاطر، والسبب الأهم تمثل فى عدم توفر الموارد المالية لتنفيذ هذا العمل. كانت عيناه ترصد ما يراه، حركة دائمة على الطريق، كل شىء يتحرك، سيارات النقل والملاكى والدواب والدراجات والموتوسيكلات والأتوبيسات من كل الأحجام والأنواع والميكروباصات.
وقد قال إن إسرائيل لا تعرف أبدا مثل هذه الكثافة على الطرق، فعقبت قائلا: إن عدد السكان محدود والدولة مساحتها لا تتجاوز ٢٠ ألف كيلومتر مربع بخلاف مساحة الأراضى المحتلة من مصر وسوريا والأردن وفلسطين. فقال بسرعة إسرائيل لم تحتل أبدا أرضا فلسطينية، فعقبت إنها قضية للمناقشة لا للجدل، وللحقائق التاريخية لا لمنطق القوة والأمر الواقع. ولاحظ زحف المبانى على الأراضى الزراعية المجاورة للطريق وكثرة عدد المنشآت المتعددة النشاط: المقاهى والمطاعم والورش والمساكن والمساجد، ولكن الملاحظة الأهم كانت فى كثرة عدد القرى على الجانبين، فبين كل قرية وقرية توجد قرية ثالثة، بالإضافة إلى وجود مدن صغيرة كثيرة، واستفسر عن أسماء بعض هذه القرى والمدن، وسألنى عن

عددها؟!.. فقلت له: هناك بمصر أكثر من خمسة آلاف قرية، فتساءل: خمسة آلاف؟!.. فقلت له: نعم.. وأكدت أنها جميعا مكتظة بالسكان، وهناك دائما محاولات للبناء على الأراضى الزراعية بالمخالفة للقانون فى معظم الأحوال لاستيعاب الأسر الجديدة. فقال إنها بالقطع مشكلة مستعصية أمام الحكومات المصرية. فقلت إنها واحدة من المشكلات.. ولم تتوقف الملاحظات أو التساؤلات، وكنا مازلنا فى بداية الطريق!!!

❑❑❑

عندما اعترى فايتسمان الانزعاج !! (٢)

كانت السيارة تقطع الطريق إلى الإسكندرية بسرعة متوسطة حتى يتمكن ضيف مصر «عزرا فايتسمان» وزير الدفاع الإسرائيلى ورئيس الوفد المشارك فى اجتماعات اللجنة العسكرية التى بدأت أعمالها بالقاهرة فى يناير ١٩٧٨م، أى بعد شـــهرين تقريبا من زيارة الرئيس الســـادات لإســـرائيل عام ١٩٧٧م. وبالرغم من أن الرجل قرأ كثيرا عن مصر وعاش بها فترة غير قصيرة خلال مرحلة الشباب، وشاهد مئات أو آلاف الخرائط العسكرية وغير العسكرية والصور الجوية لمئات الطرق والمنشـــآت والأهداف العسكرية والمدنية باعتباره قائدا عسكريا بارزا، إلا أن ردود أفعاله وملاحظاته على ما يراه خلال الرحلة كانت تعبر عن حالة الدهشة والمفاجأة وفيما بعد الانزعاج بل الانزعاج الشـــديد. ومن خارج السيارة شـــاهد فلاحا يحرث أرضه بمحراث قديم وتقليدى، فطلب من السائق أن يقترب منه، أى أن يخرج من الطريق إلى طريق جانبى لكى يلتقط صورة للفلاح والمحراث، فاستأذنته أن نكتفى بالتوقف على جانب الطريق، وبدت عليه كل علامات الدهشة، وأنا أشرح له أن هذا المحراث هو المحراث نفسه الذى كان يستخدمه الفلاح الفرعونى.. وقال ربما تكون مصر هى الدولة الوحيدة التى مازالت تستخدم مثل هذا المحراث وتساءل: ولماذا تأخر الفلاح فى استخدام المحراث الميكانيكى، فأكدت له أن هناك عملية توسع فى اســـتخدام هذا المحراث، ولكن الأغلبية سواء بســـبب الملكيات المحدودة، أو قلة الدخل تواصل اســـتخدام المحراث التقليدى، وواصلت قائلا: إن معظم الفلاحين مازالوا يســـتخدمون السواقى والطنابير، وأحيانا الشواديف لرى الأرض، وأن عملية الرى مازالت تتم بأسلوب الغمر، لا الأسلوب الحديث أو الأساليب الحديثة والمتطورة للرى، مثل الرى بالتنقيط، وقلت له إننا سنمر على عدد من السواقى، وسنتوقف أمام واحدة منها. فسأل مستفسرا، ولماذا لم تستخدم مصر أساليب الرى المتطورة، فقلت لأنها مكلفة، والأهم أنها تعتمد على الطاقة الكهربائية، وهى حاليا لا تكفى لاحتياجات المصريين، فالطاقة المنتجة أقل من الاحتياجات الحالية المختلفة. وانتقلت لأقول له إن موارد مصر قد استنزفتها سنوات الحرب مع إسرائيل، وإن السلام سيتيح لها إعادة بناء ما خربته الحرب وما تأخر تنفيذه من برامج تنموية اقتصادية واجتماعية، فقال: إن مثل هذه الأبعاد غير واضحة أو غير مفهومة فى إسرائيل، وأكد أنه يراها الآن بصورة مختلفة عما

كان يراها من قبل. ورأيت ساقية على يسار الطريق، فسألته هل يتوقف ليتابع حركتها من هذه المسافة، أم نتحرك على أمل أن نجد واحدة على يمين الطريق، فقال أفضل أن تكون على يمين الطريق حتى أراها عن قرب، فمثل هذه المشاهد تظل فى الذاكرة طويلا، لأنها تحفر مسارا يرتبط بأبعاد كثيرة سيكون لها تأثير مباشر على العلاقات بين البلدين، ثم التفت إلى وسألنى: هل قرأت شيئا عن التطور الزراعى فى إسرائيل؟!.. فأجبت بأننى قرأت الكثير، فقال: إن السلام بين البلدين سيفتح أبوابا كثيرة للتطور المتبادل. وطوال الوقت كان يتابع بانزعاج لم يحاول أن يخفيه حركة الناس على الطريق وفى الحقول تحديدا وكأن الأرض مزروعة بالبشر، وسألنى عما إذا كان اليوم إجازة أو أن هناك مناسبة ما تقتضى أن يخرج الناس؟!.. فقلت له: إن ما يراه هو الحركة العادية اليومية لهم. كانت السيارة قد اقتربت من مدينة بنها، فشاهد محلات ومقاهى ومطاعم وورش إصلاح سيارات وإطارات، ولاحظ أن سيارات النقل تتجمع فى عدة مناطق على جانبى الطريق، أما السيارات الملاكى فتتوقف أمام مقاهى ومطاعم على الطريق مباشرة، فأوضحت له أن لسائقى سيارات النقل احتياجات تختلف عن احتياجات الذين يستخدمون السيارات الملاكى، لذا اختلفت الأماكن التى يترددون عليها. ولأول مرة ألاحظ أن عدد سيارات النقل والملاكى كثيرة بصورة ملفتة للنظر فعلا. وخلال اختراق السيارة لمدينة بنها قال: كنت أتصور أن القاهرة هى المدينة المزدحمة باعتبارها العاصمة، فقلت له: إن كل المدن تعانى من الازدحام وزيارة نسبة الكثافة السكانية بها، وأردفت قائلا: إن عدد سكان مصر كان عام ١٩٥٢م يبلغ ١٨ مليون نسمة تقريبا، أما الآن فعدد السكان بلغ مثلى هذا الرقم. وبعد أن عبرنا النيل، كان الانزعاج قد نال منه، وهو يتابع هذه الأمواج البشرية، فقال متسائلا: ألا من نهاية لهذا التدفق البشرى؟! وبهذا التساؤل وضعت يدى على واحد من أهم مفاتيح التفكير التى كنت منذ البداية أسعى وراءها، ولم يحاول أن يسمع منى إجابة، والتزم الصمت، واستغرق فى التفكير. وظلت الحالة كما هى على الطريق.. وسألته ونحن نقترب من مدينة طنطا: عما إذا كان مازال راغبا فى مشاهدة المدينة من داخل السيارة؟!.. فقال: نعم.. مازلت راغبا.. فاستأذنت أن ندخل المدينة فى سيارة واحدة، فوافق وأصبح برفقتنا داخل السيارة اثنان من رجال الأمن بدلا من واحد. وبدأنا نسير فى شوارع المدينة باتجاه مسجد السيد البدوى، وأجبرنا الزحام على التحرك ببطء، وبدأ يتصرف كسائح ويسأل ويستفسر ويستوضح ويعبر عن ملاحظاته. وشرحت له أن الخدمات والمرافق ليست فى حالة جيدة، وأن عمليات الإحلال والتجديد والصيانة بالنسبة لمعظم

المرافق كانت مؤجلة بسـبب الحرب. وأوضحت له أن المواطنين من مختلف مدن وقرى الدلتا يتدفقون لزيارة ضريح السـيد البدوى للتبرك به، وأن يوم الجمعة من الأيام التى يصعب فيها السـير فى شوارع المدينة، أما خلال الاحتفال بمولده، فلا مجال لحركة السيارات، وواصلت قائـلا: إن عـدد الزوار خلال المولد يتراوح بـين مليونين وثلاثة ملايين زائر، معظمهم يفترش الطريق. وقلت له إن صاحب الضريح رجل صوفى تقى نقى أخلص فى عبادة الله، وسار على نهجه عشرات الآلاف من الناس.. وأثناء الغزو الصليبى قاد أتباعه لقتال الغزاة، فاستحق لقب الصوفى المجاهد. وكان مما قلته إن هناك باعة تخصصوا فى بيع أنواع من الحلوى والحمص، واقترحت أن أشترى لهم بعضا منها، فوافق، فنزلت وحدى واشتريت كميات صغيرة عدت بها إليهم، وسرعان ما بدأوا فى تذوقها وأبدوا إعجابهم بها. وغادرنا المدينة وهو يقول: إن مصر التى أراها الآن تختلف كثيرا عن مصر التى فى التقارير.. أو فى الأوراق. وسألنى: هل تتشابه كل المدن المصرية، أى هل تشبه كل مدن الدلتا مدينة طنطا؟!.. فقلت له: لا يوجد اختلاف كبير بين كل هذه المدن. وعدت لأسأله عن رؤيته للسلام ولمهمة اللجنة العسكرية؟! أى بدأت أقوم بواجبى كصحفى يسأل مسئولا إسرائيليا يلتقى به لأول مرة. كان الرجل صريحا وواضحا، ثم قال إن إجابتى على أسئلتك الآن قد لا تكون كلها للنشر، فأكدت له إننى أعرف ذلك، وتطرق الحوار إلى أبعاد قضية السلام والانسحاب من كل سيناء بما فى ذلك المستوطنات ومدى الارتباط بين عمل اللجنتين السياسية والعسكرية، وعما إذا كان هو شخصيا من المتفائلين أو المتشائمين؟!.. وعندما سألته عن الرئيس السادات وعما قاله له عندما التقى به لأول مرة فى إسرائيل؟!.. عبر عن احترامه العميق له ولشـجاعته لا فى قرار الحرب فقط، بل على الإقدام على هذه الخطوة البالغة الجرأة والاتزان، وحسـن الفهم، والتى تمكن بها من حصار كل القوى السياسـية فى إسرائيل بسلاح السلام، الذى تمثل فى زيارته كأول مسئول عربى يقتحم علينا بيتنا، ويقول: ها قد أتيت إليكم من أجل السلام.. فماذا أنتم فاعلون؟! وعندما وصلنا إلى الإسكندرية تركت «عزرا فايتسمان» ليقوم بزيارته للمدينة، ولأعود أنا إلى القاهرة فى اليوم نفسه.. وقبل أن أتوجه إلى منزلى، توجهت للقاء الفريق أول الجمسى، لأحيطه علما بالإطار العام للرحلة، ولأقترح السفر إلى أسوان للقاء الرئيس. وخلال مكالمة تليفونية، طلب السادات من الجمسى أن أسافر إلى أسوان صباح الغد.. وقررت أن أكتب تقريرى عن الرحلة قبل أن أتوجه للنوم.. وقد راعيت أن يكون مختصرا. وفى أسوان سلمت التقرير للرئيس فوضعه جانبا، وطلب أن أحكى له ما جرى. فقلت

له : لقد أردت أن يرى الرجل الكثافة السـكانية لمصر واسـتمرار حركة الحياة، ولم يكن هناك أفضل من رحلة طويلة نخترق فيها الدلتا.. وفعلا كان الرجل مندهشا وحائرا ومنزعجا وهو يتابع ويلاحظ حركة الناس، وكأن وجودهم حدث فجأة.. أى وكأنهم لم يكونوا من قبل، أو لم يكن وجودهم بهذه الصورة، أو هذا البروز.. ووصلت إلى النقطة التى انفجر عندها قائلا: ألا من نهاية لهذا التدفق البشرى؟! فقال السادات، شكرا لقد أعطيتنى مفتاحا من المفاتيح الرئيسية لشخصيته، وتفكيره.. وأعتقد أنه سـيكون من أقوى العناصر المؤيدة للسـلام.. أولا.. بسبب إصابة ابنه فى الحرب.. وثانيا.. لسـبب موضوعى، هو اقتناعه على ضوء الصدمة التى اعترته، بأن الكثافة السكانية المصرية لم يجر وضعها فى الاعتبار فى مكانها الطبيعى من قبل، كانت تناقش كأرقام باردة لا كواقع حى، وقد اصطدم هو بهذا الواقع الحى وتأكد، أن هذه الكتلة السكانية باقية ولا يمكن إلحاق الهزيمة النهائية بها، ومستمرة فى وجودها فى كل الأحوال. ثم أردف قائلا: لقد أقنعته بطريق ناعم وغير مباشر، بأن مصر جادة فى طلب السلام، وأن مشاريعها متوقفة بسبب نقص الموارد التى اسـتنزفتها سنوات الحرب مع إسـرائيل.. وأن هؤلاء البشر يتطلعون لحياة ومرافق وخدمات أفضل، ويتطلعون لزراعة عصرية متطورة تستخدم الأجهزة والآلات والمعدات الحديثة، ولتطور صناعى وتقدم اقتصادى. وسألنى: هل كنت تقصد كل ذلك وأنت تركز على مشاهدته للمحراث والساقية؟!.. ثم انتقل ليسألنى: لماذا اقترحت دخول طنطا؟! فقلت: لقد أردت أن أحكى له قصة السيد البدوى.. الصوفى المجاهد فى سبيل الله، وأنه قدوة لعشرات الآلاف مـن المريدين، كمـا أردت أن يرى أن هؤلاء المريدين يفدون بالآلاف على المدينة لزيارة ضريحه، والتبرك به، ثم كنت أريده أن يرى الشوارع والمرافق والخدمات كما هى فى الواقع، متخلفة ومهترئة وفى حاجة إلى استثمارات ضخمة. وكرر شكره لى.. وقال: إنه سيقرأ التقرير، وسيرسل لى خطاب شكر، فقلت له: هناك قضية حيرتنى، ومعى كثير من أبناء جيلى من بين قضايا كثيرة محيرة، فيما يتعلق بـ ٢٣ يوليو وهذه القضية هى الشعارات التى رفعتها الثورة، وإننى أرجو أن يتسع وقته لأطرحها عليه. مد يده إلى البايب وبدأ فى إشعاله، وهو يطلب منى أن أبدأ حديثى.. وطرحت عليه القضية، بل قل إننى بدأت فى محاولة معرفة بعض من أسرار ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.



الفصل الثالث عشر

حوار مع السادات حول شعارات ٢٣ يوليو

كانت معنويات السادات عالية عندما التقيت به فى أسوان فى يناير ١٩٧٨م فمنذ أيام استقبل «عزرا فايتسمان» وزير الدفاع الإسرائيلى ورئيس الوفد العسكرى المشارك فى أول اجتماع للجنة العسكرية بالقاهرة. وكان «فايتسمان» الذى شغل من قبل منصب قائد القوات الجوية ورئيس هيئة عمليات القوات المسلحة الإسرائيلية قبل أن يتسلم مسئولية منصب وزير الدفاع فى حكومة «مناحم بيجين» يعد من الصقور، هذا إذا ما صدقنا أن فى إسرائيل صقورا وحمائم فتطورات الأحداث طوال سنوات الصراع العربى الإسرائيلى أكدت أن المعاناة لم تتوقف فى ظل أية حكومة إسرائيلية سواء أكانت من الحمائم أم من الصقور. وتحولت إسرائيل من مجرد مشروع استعمارى استيطانى ورد فى كتاب الدولة اليهودية لتيودور هيرتزل وفى قرارات المؤتمر الأول للحركة الصهيونية فى «بازل» السويسرية عام ١٨٩٧م إلى دولة عام ١٩٤٨م أى بعد ٥٠ عاما فقط. ومنذ قرار التقسيم الذى أصدره مجلس الأمن عام ١٩٤٧م وحتى معركة أكتوبر ١٩٧٣م واصلت الحكومات الإسرائيلية الافتئات على الحقوق الفلسطينية والعربية إلى أن أصبحت كل أراضى فلسطين فى قبضة الدولة الإسرائيلية عقب نكبة يونيه ١٩٦٧م ولكن كل هذا النجاح لا يرجع إلى عبقرية وذكاء القيادات السياسية والعسكرية الإسرائيلية بل إلى تخلف العدد الأكبر من الزعامات العربية التى تحملت المسئولية على امتداد هذه الفترة فالكل وقعوا فى أخطاء كارثية أو تقاعسوا عن حمل مسئولياتهم أو ساروا خلف طموحاتهم ومصالحهم فقط وأداروا ظهورهم للقضية الفلسطينية والمصالح العربية. فالملك «عبدالله» ملك إمارة شرق الأردن كان يعمل من أجل توسيع مملكته وأوكل قيادة جيشه للجنرال «جلوب» الإنجليزى أما القوات العراقية فقد تركت ظهر القوات المصرية مكشوفا أمام القوات الإسرائيلية وعندما طالبتهم القيادات العسكرية المصرية بتحمل المسئولية قالوا «ماكو أوامر» أى لا توجد لديهم أوامر، ولم يختلف موقف المملكة الهاشمية فى العراق عن المملكة الهاشمية فى الأردن، وبالنسبة لسوريا فقد تقاعست عن دفع قواتها إلى مسارح العمليات أما باقى الدول العربية فلم تكن لها قوات

يعتد بها، وبالنسبة للقوات السودانية فقد كانت عند حسن الظن بها. المهم هنا أن جيوش سبع دول عربية لم تتمكن من حشد قوات بمسرح العمليات مساوية أو مكافئة للقوات الإسرائيلية ويمكن أن تعترى كل المراقبين الدهشة من قدرة اليهود على حشد قوات مقاتلة تتفوق كما وكيفا على القوات العسكرية العربية وفى حين كانت القيادة العسكرية الإسرائيلية موحدة كانت القيادات العسكرية العربية متعددة ولا يجمع بينها شىء مشترك. وهكذا ولدت دولة إسرائيل بفضل أخطاء وخطايا الزعامات العربية التى بدأت منذ بدء تنفيذ مخطط إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين. وعندما صدر قرار التقسيم عام ١٩٤٧م رفضه العرب تمسكا بالحقوق الكاملة دون أن تكون لديهم القوة التى تحمى هذه الحقوق أو تدافع عنها. كانت الحكمة وتوازنات القوى ومقتضيات السياسة وفهم قواعد الحركة على المسرح العالمى تفرض على العرب قبول القرار أولا، وعندما يتحسن موقفهم فيما بعد يمكنهم التحرك إلى الأمام ولكنهم وهم فى حالة غيبوبية وتخلف رفضوا. وبعد ٨ سنوات من الميلاد أقدم رئيس مصر على تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦م دون أن يضع فى اعتباره أو دون أن يحسب حسابات تدخل كل من بريطانيا وفرنسا عسكريا للدفاع عن مصالحهما فى القناة ولم يخطر له على بال إمكانية تحالفهما مع إسرائيل. وما لم يحسب حسابه حدث وبدأ العدوان الثلاثى فى نهاية أكتوبر ١٩٥٦م وحققت إسرائيل من انتصارها هدفين رئيسيين الأول حماية وجود إسرائيل الذى لم يعد مهددا والثانى فتح خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية، أى أصبحت إسرائيل دولة مطلة على بحرين هما المتوسط والأحمر وبالمرور فى خليج العقبة انفتح أمامها الطريق إلى شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا ومرة أخرى تكون أخطاء القادة العرب هى الباب الرئيسى للنجاح. وعندما نسترجع أحداث يونيو ١٩٦٧م سنتبين أن أخطاء الرئيس المصرى عبد الناصر هى السبب فى تحول إسرائيل إلى إمبراطورية فقد اندفع يحشد قواته فى سيناء بالرغم من تورط قواته فى المستنقع اليمنى منذ أكتوبر ١٩٦٢م ولم يكتف بذلك بل أقدم على إغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب على إسرائيل. وكان الرئيس السادات أول من تعامل مع الصراع بالحكمة والاتزان فقد استعد لمعركة هجومية وهو يرفع رايات السلام سواء بقبوله تمديد العمل بمبادرة روجرز أو بطرح مبادرة سلام فى فبراير ١٩٧١م. وفاجأ السادات العالم بانتصاره فى أكتوبر ١٩٧٣م واستثمر الانتصار واستعادة الكبرياء ليطلق

مبادرة سلام حاصر بها إسرائيل وكسب الرأى العام العالمى. كان وهو يستقبلنى فى استراحته بأسوان هادئا واثقا من نفسه ومن إستراتيجيته وهى الإستراتيجية التى أعلن عنها لأول مرة أثناء اجتماعه بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٠م بعد توليه مسئولياته كرئيس لمصر يوم ١٦ أكتوبر أى بعد ذلك بثلاثة أيام ولم يتوقف أمامها أحد. كثيرا ما قال للرئيس الأمريكى وللشعب الأمريكى لقد مددت يدى بالسلام منذ عام ١٩٧١م وكان متأكدا أنه يقوم بتصحيح أخطاء السنين وما وقع فيه من سبقه من رؤساء وزعماء. وقد أوضحت للرئيس السادات أن الهدف استجلاء بعض الحقائق عن شعارات ثورة ٢٣ يوليو. وقلت فى البداية أن ما أطرحه هو رؤية شريحة من جيلى الذى يختلف عن الجيل الذى قاد الثورة للشعارات التى رفعوها وطرحوها وكانت البداية شعار الاتحاد والنظام والعمل الذى تحول إلى أغنية تقول كلماتها «على الإله القوى الاعتماد فانهضى يا مصر يا خير البلاد واصعدى للمجد وامضى للرشاد بالاتحاد والنظام والعمل» وكانت تعليقاتنا سلبية فالشعار الذى كنا نردده فى الكشافة ونحن فى نهاية المرحلة الثانوية وقتذاك كان «الله الملك الوطن» وبالتالى كان تساؤلنا هل يعنى شعار الثورة تراجع أدوار الله والوطن؟ لقد سقط الملك ولكن الدين والوطن لهما حضور قوى ولا يمكن تجاهلهما. نذكر أن أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة طرح قبل يوليو ١٩٥٢م شعار «الله الوطن الملك» ووجدنا أنه أفضل من شعار «الله الملك الوطن» فالوطن يسبق الملك وهذا وجدناه منطقيا ومناسبا لذا وجد منا كل القبول. ثم يأتى شعار ٢٣ يوليو فلا تجد فيه شيئا يستحق الترحيب فهو فى البداية والنهاية يفرض واجبات على المواطنين دون أى يعدهم بشىء. وتساءلنا إذا ما كانت ثورة فما هو وعدها لأهل مصر؟ لقد أطلت الثورة دون أن تعد مصر أو المصريين بأى شىء يجعل المستقبل أفضل أو الحياة أكثر جمالا وبهاء. لقد كنا قد انتهينا من دراسة الثورة الفرنسية وشعارها البراق «حرية إخاء مساواة» لقد قدمت وعودا للمواطنين بل لكل الأوربيين، أضاءت لهم الحياة وقدمت لهم منارات للحركة على المسرح السياسى والاجتماعى. كما أنها فى الوقت نفسه قدمت شعارا مقبولا يحظى بالرضا الجمعى ودفعت شعارات الكنيسة ومبدأ التثليث إلى الخلف ولو قليلا وأعنى.. الأب والابن والروح القدس. لقد راعى الثوار أن يكون شعار الثورة ثلاثيا ومماثلا لشعار الكنيسة كمقدمة لكى يحل محله. ولم تكن هناك مقارنة بين شعار الثورة الفرنسية والثورة المصرية يوم ٢٣ يوليو

١٩٥٢م. وبعد هذا الشعار طرح الثوار شعار «ديمقراطية اشتراكية تعاونية» وكنا قد تقدمنا بالمرحلة الجامعية وأتاحت لنا دراستنا للقانون فهما أفضل للأوضاع خاصة والأساتذة يتعاملون معنا كأبناء وكان ردنا أو رد بعضنا ساخرا حيث تم طرح شعار «طعمية ملوخية مهلبية» لقد كان شعارا ساذجا بل شديد السذاجة ولا يعكس أى فهم للنظريات والعلوم السياسية. وبعد سنوات على قمة السلطة طرح الثوار المبادئ الستة التى وردت فى دستور عام ١٩٥٦م الثلاثة الأولى منها هى القضاء على الاستعمار وأعوانه وعلى الإقطاع وعلى الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم والمبادئ الثلاثة التالية كانت إقامة جيش وطنى قوى وعدالة اجتماعية وديمقراطية سليمة. والمبادئ بهذه الصورة كشفت عن التالى: أن الثوار يعرفون جيدا من يريدون القضاء عليهم أى الاستعمار والإقطاع والاحتكار. أما مبادئ البناء فقد جاءت عامة مبهمة ولا تحمل وعودا محددة وواضحة. والذى نعرفه جيدا أن الحركة الوطنية المصرية كانت تعمل بكل همة من أجل القضاء على الاستعمار فما هو الجديد بالنسبة لنا عندما يعدنا الثوار بالقضاء على الاستعمار أما الإقطاع فكان واضحا أنهم يريدون القضاء على كبار الملاك لأن مصر لم تعرف الإقطاع بالصورة التى كانت معروفة فى أوربا حيث يمتلك الإقطاعى الأرض ومن عليها من بشر. أما فى مصر فكان الملاك يملكون الأرض ولا ملكية أو سيطرة لهم على البشر قد يسيئون معاملتهم ويضغطون عليهم ولكنهم لم يكونوا أبدا عبيدا بالنسبة لهم. كما أن مفهوم الاحتكار أمر نسبى فى بلد زراعى مازال يحبو على طريق الصناعة ولا يعرف الشركات الكبيرة المنتجة القادرة على ممارسة الاحتكار. وفيما يتعلق بالبناء بعد مرحلة القضاء على أعداء مصر الثلاثة فإن بناء الجيش الوطنى القوى هو واجب كل النظم السياسية وبالتالى فهو لا يمثل وعدا ثوريا أما العدالة الاجتماعية فكانت شيئا مبهما؛ لأنها لم تستند إلى جذور دينية أو سياسية وقد ظلت كذلك ولم يحدث أن جرى توضيح أبعاد وجذور هذه العدالة. وفيما يتعلق بالديمقراطية السليمة لم يقل لنا الثوار من الذى سيحدد سلامة الديمقراطية؟ إننا نعرف الديمقراطية وندرسها ولكن وصفها بأنها لابد أن تكون سليمة يعنى وجود من يحاول أن يفرض علينا تصوره لها أو من يحاول تضليلنا لكى يستمر قابضا على السلطة بكل قوة. هكذا نظرنا إلى المبادئ الستة وهكذا أوضحها وشرحها لنا أساتذة كبار بكلية حقوق الاسكندرية من أمثال الدكتور عبدالحميد متولى والدكتور حسين فهمى عميد الكلية وقتذاك أى منتصف الخمسينيات. وبعد الوحدة

مع سوريا والاحتكاك بحزب البعث وشعاراته طرحت علينا السلطة ابتداء من عام ١٩٦١م، أى بعد الانفصال شـعار اشتراكية حرية وحدة. كان الشـعار جيدا وواضحا وسياسيا بكل المعانى ولكنه كان يعنى بالنسـبة لنا أن الحرية مشـروع مؤجـل ويأتى دورها بعد تحقيق الاشتراكية ووفقا للظروف التى كانت مصر تمر بها والصراعات الدائرة مع كل القوى تقريبا فإن الأمر سيتطلب عدة عقود قبل الوصول إلى مرحلة الحرية. كان واضحا بعد سنوات طوال أن ثـوار يوليو لم يتمكنوا من طرح شـعار جيد ينال رضـا واقتناع الرأى العام ولكن ذلك لا يمنـع أن عبـد الناصر تمكن من صعود قمة من قمـم الزعامة خلال فترة حكمه وبالرغم من الهزيمة الموجعة فى يونيو ١٩٦٧م فقد ظل متماسـكا واحتفظ بوزن نسـبى عند الجماهير. كنـت قد تحدثت طويلا ولكننى حرصت على اسـتثمار الفرصة لأطرح وجهة نظرى حول شعارات الثورة لكى أستمع إلى ما يقوله الرئيس. وبهدوء قال السادات لقد كانت مجموعة القيادة للضباط الأحرار تضم عددا من المنتمين للأحزاب الشيوعية وعددا آخر من المتعاطفين أو المنتمـين للإخوان المسـلمين بالإضافة إلى مجموعة مـن أبناء العمد، ولم يكن ممكنا طرح شـعار يقبله كل هؤلاء، لذا اتفقنا على أن يكون شـعارنا الاتحاد والنظام والعمل. لقد كنا نطلـب من المواطنين الاتحاد لا الفرقة والنظام لا الفوضى والعمل من أجل النهوض بمصر، نعم لقد طالبنا المواطنين ولم نعدهم بشـىء. وأقول لك إن جمال كشخصية لا يجب أن يعد بشىء، بأى شىء لأنه يعلم أن هناك من سيحاسبه إذا ما قصر فى الوفاء بهذا الوعد أو إذا ما أوفى به بصورة لم ترض الناس. لقد ظل حريصا على ألا يعد بأى شـىء وإذا اضطر إلى ذلك وعد بأشـياء فضفاضة أو عامة لا يمكن الإمسـاك بها. فى الوقت نفسه لم يكن جمال بالشـخص الذى يحدد معالم الطريق الذى ستسـير عليه الثورة، لقد كان «براجماتيا» أى يتصرف على ضوء الواقع ويترك للظروف أن تحدد مسـار قراراته وفى ذلك كان يفضل ألا يبـادر فى معظم الأحوال وأن يكون فى موقف رد الفعل. ولأننا كنا جميعا فى مقتبل العمر فقـد كنـا نعلم من ومـاذا نكره وما يجب أن نفعله مع أعداء مصـر لقد طرحنا القضاء على الاسـتعمار والإقطاع والاحتكار. كان علينا أن نطرح ما يجمع الناس عليه لم نكن نريد أن نطرح أهدافا خلافية، كنا نكره الاسـتعمار والشـعب كله يكره الاسـتعمار لذا لم نتوقع أن يختلـف معنا أحد حول هذا الهـدف وطالبنا بالقضاء على الإقطـاع وكانت كلمة الإقطاع الاختيار الأفضل من كبار الملاك كنا نعرف أن مصر لم تعرف الإقطاع بالمفهوم الأوربى ولكن

اســتخدام كلمة الإقطاع كان الأنســب والأكثر تأثيرا خاصة عقب أحداث قريتى كفور نجم وبهوت حيث تمرد الفلاحون على الملاك الكبار وتطوع مئات المحامين للدفاع عن الفلاحين مجانا، لقد كانت قضية حظيت باهتمام الرأى العام وبما أنها كانت قبل اندلاع الثورة بعدة أشــهر فقد رأينا الاســتفادة منها. وقطعا لكم الحق فى أن تســخروا من شــعار «اشتراكية ديمقراطية تعاونية» لأننا فيما بيننا لم نشــعر بالرضا عنه وقراءتكم لشعار «اشتراكية حرية وحدة» كان صحيحا فلم تكن الحرية مطروحة فى ذلك الوقت كهدف لقد كانت على الأقل بالنسبة لجمال هدفا مؤجلا ولكنها لن تكون كذلك الآن.

❑❑❑

الفصل الرابع عشر

الدسائس عند السادات

بعــد انتهاء الاجتماع الصباحى لأقســام التحرير بجريدة الأهرام، اتجهت مع عدد من الزملاء إلى الكافتيريا لتناول قدح من القهوة والدردشة قبل بدء رحلة البحث عن المعلومات والأخبار. فى تلك اللحظات تلقيت اتصالا تليفونيا من يوسف السباعى وزير الثقافة سألنى فيه عن الوقت المناسب لزيارته بمكتبه، وتم تحديد الموعد. وعندما التقينا، سألنى لماذا لم أكتــب كتبا عن معركــة أكتوبر؟ كان قد مضى عام تقريبا منذ أيام الانتصار ولم تكن الفكرة بغائبة، ولكن توالى الأحداث، وانشــغالى بالعمل اليومى لساعات طويلة، كان وراء تأجيل التنفيــذ بالرغم مــن أننى وضعت تخطيطا لثلاثة كتب.. الأول عــن الرجال الذين قاتلوا، والثانــى عن يوميات المعركة فى ســيناء والجولان، والثالث عن رؤيتى للحرب وأســلوب المتابعة والمشــاهدات، وأجبت بأننى على الطريق. فقال: إن الرئيس الســادات، سأله عما إذا كان يعرف لماذا لم أكتب كتبا عن المعركة حتى الآن؟ وطلب أن يسمع إجابة، وتوقف ثم قال: يبدو أن هناك لغزا وراء هذا السؤال. وفوجئت به يتصل بالدكتور الشنيطى رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة للكتاب تليفونيا، ويخبره أننى سأسلمه كتابا عن المعركة خلال أيام، وأن واجبه أن يكون لهذا الكتاب أولوية. ونصحنى بالانتهاء من إعداد الكتاب حتى لا تثــور الشــكوك حول موقفــى، وأوضحــت أننى كتبت عشــرات المئات مــن المقالات والتحقيقــات، وأدليت بعشــرات الأحاديث الصحفية، وشــاركت فى عشــرات البرامج التليفزيونية، ثم تساءلت أبعد هذا هناك من يشك أو يتشكك؟ فقال السباعى، لقد أخبرنى السادات إن أحمد إسماعيل وزير الحربية، كان مصرا على عدم عودتك للعمل بالأهرام بعد أن قرر الرئيس عودة كل المفصولين من الكتاب والصحفيين إلى أعمالهم يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٣م، لولا تدخل الأستاذ هيكل. قلت له: لقد أساء وزير الحربية فهم ما نشره الأهرام عقب إبعاده عن منصب رئيس الأركان فى سبتمبر ١٩٦٩م، واتهمنى بالإساءة إليه والتشهير به ظلما، مع أننى أكدت له أن الأســتاذ هيكل هو الذى كتب هذا الخبر.. فرد الســباعى

قائلا: لا تنس أن هناك من يؤكد للسادات، إنك حزين على إقدام الرئيس على إبعاد هيكل من الأهرام. وكان السادات قد قرر إقالة الأستاذ هيكل فى أول فبراير عام ١٩٧٤م، وفى الوقت نفسه قرر العفو لأسباب صحية عن مصطفى أمين وعودته للعمل بدار أخبار اليوم، كما طلب من توأمه على أمين العودة من لندن وتعيينه رئيسا لتحرير الأهرام بجانب الدكتور محمد عبد القادر حاتم الذى تسلم مسئولياته كرئيس لمجلس الإدارة. وواصل يوسف السباعى حديثه قائلا: إن هناك تقارير تم عرضها على الرئيس السادات تذكر إنك تزور كلا من محمد صادق وهيكل.. فأكدت له إننى فعلا أزور الرجلين، ولكن ذلك لا يعنى أبدا أننى قد انحزت إليهما فى صراعهما مع رئيس الجمهورية، أو أننى اتخذت موقفا سلبيا من المعركة أو من مشوار السلام الذى بدأ بتوقيع اتفاقية الفصل الأول بين القوات. فقال السباعى، سأنقل للرئيس السادات كل ما قلته، وسأخبره إنك انتهيت فعلا من كتابة كتاب عن أكتوبر. فأوضحت له، أننى سأكتب ثلاثة كتب متتالية عن المعركة، التى عشتها بكل كيانى، مثلما عاشها كل مصرى فى تلك الأيام المبهرة. وخرجت من عند يوسف السباعى، وفى داخلى تساؤلات كثيرة عن هذا المناخ، وعن كل هذه الدسائس التى أتعرض لها. فها أنذا بعد كل ما كتبت عن الحرب والسلام، تثور من حولى علامات استفهام تتعلق بإصدار كتاب عن المعركة، ويتولى البعض إثارة الشكوك حول هذا الأمر، مرة بسبب موقف أحمد إسماعيل منى، ومرة أخرى بسبب زيارتى لرئيس التحرير المبعد من الأهرام ولوزير الحربية السابق محمد صادق. وبعد هذا اللقاء بعدة شهور صدر كتابى الأول عن المعركة فى سلسلة كتاب اليوم التى تصدر عن دار أخبار اليوم، وبعد ذلك بعام صدر كتابى الثانى عن الحرب بعنوان «يوميات أكتوبر فى سيناء والجولان» عن دار المعارف ، وصدر الكتاب الثالث عن المعركة وعنوانه «من أوراق مراسل حرب فى أكتوبر» عن الهيئة العامة للاستعلامات عام ١٩٨٠م، أما الكتاب الرابع فكان عن معارك مصر مع إسرائيل منذ عام ١٩٤٨م وحتى عام ١٩٧٣م، وصدر عن الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠٠٧م. وبعد صدور أول كتاب عن المعركة، حرصت على إرسال نسخة منه للأديب الكبير يوسف السباعى، ورد على الإهداء برسالة تهنئة وشكر بالغة الرقة. ومرت أسابيع قبل أن أتلقى منه مكالمة تليفونية، كرر فيها تهنئته، ثم سألنى عن موعد إصدار الكتاب الثانى، فوعدته بألا تطول المدة التى تفصل بين الكتابين، وفجأة سألنى، عما إذا كنت قد أهديت نسخة من كتابى

لسيادة الرئيس، فأكدت له إننى سأرسل أول نسخة من كتابى القادم. وفى يوم تسلمى نسخ الكتاب الثانى عن المعركة، أرسلت نسخة عليها إهداء للرئيس أنور السادات. وفوجئت بعد مرور عدة أسابيع بوصول رسالة من الرئيس تقول سطورها: «تلقيت بامتنان النسخة من كتابكم «يوميات أكتوبر.. فى سيناء والجولان» التى بعثتم بها هدية منكم لى.. وقد نالت كل قبول.. لقد تناولت فى الكتاب.. القرار التاريخى الذى اتخذناه للدخول فى الحرب ضد العدو الإسرائيلى.. كما وصفتم بدقة سير العمليات الحربية.. والمعارك الضارية التى دارت بين مصر وسوريا وبين العدو الآثم.. على أرض سيناء والجولان. إن شهر أكتوبر من الشهور المجيدة فى تاريخنا الحديث.. فقد رفعنا فيه أكاليل النصر فوق ربى سيناء.. وحققنا أكبر انتصار عرفه تاريخ الأمة العربية منذ أجيال، انتصار هو نتاج الجهد والعرق الممتزج بالدم الحر الأبى للإنسان المصرى فى عهده الجديد.. ومساره الصحيح. لقد أعجبنى حسن تنسيق الكتاب.. وما حواه من صور تاريخية ووثائق ومعلومات تجعل القارئ يعيش جو المعركة.. ويقف على حقيقة الجندى العربى.. ومدى أصالته وبطولته.. مما نعتز به ونفخر.. إن المجهود المحمود الذى بذلتموه فى إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة الممتازة.. يستحق كل التقدير.. إن المشاعر الرقيقة التى عبرتم عنها لى.. فى كلمات الإهداء.. كان لها أحسن الوقع فى نفسى.. ومع تقديرى لهذه المشاعر.. أبعث إليكم بأخلص الشكر مقرونا بأطيب التمنيات وبمزيد من التوفيق.. فى مجال الصحافة والتأليف.. رئيس جمهورية مصر العربية أنور السادات. وفى الرابع من يناير عام ١٩٧٧م، أحصل على درجة الماجستير فى العلوم السياسية، فأبادر بإرسال نسخة من الرسالة التى تحولت إلى كتاب صدر عن المعهد العالى للبحوث والدراسات العربية للرئيس السادات. ويرد الرئيس برسالة تهنئة تقول كلماتها: تلقيت بالامتنان.. النسخة من الرسالة التى موضوعها.. «المؤسسة العسكرية الإسرائيلية» التى حصلتم بها على درجة الماجستير.. والتى بعثتم بها هدية منكم لى.. وقد نالت الاستحسان وحسن القبول.. لقد تناولتم فى هذه الرسالة.. بالبحث والدراسة المستفيضة.. إنشاء المؤسسة العسكرية الإسرائيلية.. وعوامل تكوينها.. وأهداف هذا التكوين.. والدور الذى قامت به هذه المؤسسة من أجل خلق إسرائيل.. وما أداه العمل العسكرى.. فى كل مرحلة من مراحل تطور المخطط الصهيونى.. كما أبنتم.. بوضوح.. مسئولية هذه المؤسسة فى إنجاز المهمة القومية لإسرائيل.. وكيف أنها أصبحت

مناط أمل الصهيونية فى تحقيق غاياتها.. ومدى سـيطرتها على كافة الأنشطة القومية فى إسـرائيل. لقد لمسـت المجهود الكبير.. الذى بذلتموه فى إعداد هذه الرسالة.. وإن حسن تنسـيقها.. وتبويبها.. وما تضمنته من أبحاث ودراسـة.. ومن معلومات قيمة عن حروبنا الأربعـة.. مع عدونا الغادر.. يسـتحق التقديـر، لكم منى أجمل التهنئـة القلبية.. على حصولكم على درجة الماجسـتير.. وأعرب لكم عن أخلص الشـكر.. على ما سـطرتموه فى عبارة الإهداء من كريم المشاعر.. وصادق الأحاسيس نحوى.. متمنيا لكم كل الصحة والمزيد من التوفيق.. رئيس جمهورية مصر العربية أنور السـادات. وخلال زيارة قام بها السادات لمبنى القيادة العامة بمدينة نصر، لمحنى جالسا بقاعة الاجتماعات، وفى نهاية اللقاء مع القادة، اقترب منى فوزى عبدالحافظ سكرتير الرئيس، وطلب منى مرافقته لتحية الرئيس، وسرنا معا حتى دخلنا الصالون الذى يجلس فيه السادات مع وزير الحربية ورئيس الأركان وكبار القادة، فتوجهت إليه فوقف مرحبا، وكرر تهنئته لى على مؤلفاتى ثم سألنى عما إذا كنـت قد كتبت شـيئا للتليفزيون، فأجبته بأن أحدا فـى التليفزيون لم يطلب منى ذلك، فتجاهل الرد، وسـألنى عن الكتب الجديدة التى أكتبها، وعما إذا كنت سأواصل البحث والدراسـة للحصول على درجة الدكتـوراة، فقلت له، إننى أحـاول، فتمنى لى التوفيق، وصافحتـه مودعا، ثـم صافحت القادة، وأنا فى طريقى للخـروج من الصالون، والانضمام للزملاء من الصحفيين والإعلاميين الذين ينتظرون فى قاعة أخرى مجاورة. وواصلت طريقى بعد انتهاء هذه المهمة وبعد ما يقرب من أسبوعين تلقيت اتصالا تليفونيا من الأستاذ أحمد سـعيد أمين نائب رئيس التليفزيون، سـألنى فيه مداعبا عما إذا كنت فى حالة خصام مع التليفزيون، ثم واصل حديثه متسائلا لماذا لم أحاول كتابة عمل إبداعى للتليفزيون؟ وسألته بدورى، إيه الحكاية؟ فقال الحكاية باختصار «عاوزينك تكتب ثلاثة أفلام للتليفزيون كل فيلم يذاع خلال سـهرة تليفزيونية»، ولمزيد من التوضيح طلب أن تكون القصص عن أبطال وبطولات من أكتوبر، وواصل قائلا، وبرجاء ألا يكون من بينها عمل عن إبراهيم الرفاعى. وسألته، عن الأسباب، فقال: لقد قدم لنا أحد الكتاب قصة عن الرفاعى وتم فعلا التعاقد معه، وعاد ليسألنى، متى سأنتهى من كتابة هذه الأعمال؟ فأجبته، إننى سأتصل به عندما أنتهى من كتابتها، ووعدته بأن الأمر لن يسـتغرق كثيرا من الوقت. وبعد عدة أيام، عاود الرجل الاتصال بى للاستفسار عما إذا كنت قد انتهيت من كتابة ولو قصة واحدة؟ فسألته،

وما هى أسباب هذا الاستعجال، فقال إن مكتب الوزير يضغط من أجل إنجاز هذه القصص حتى يمكن أن يجرى بثها على شاشة التليفزيون خلال الاحتفال بيوم النصر فى أكتوبر القادم. وما لم يقله أحمد سعيد أمين، قاله وزير الإعلام فى مكالمة تليفونية أعقبت هذه المكالمة، فقد أخبرنى أن الرئيس السادات وراء هذا الاستعجال. وعندما ذهبت لمكتب أحمد سعيد أمين لتسليمه القصص الثلاث، طلب منى أن أختار كاتب سيناريو لإعداد هذه الأعمال، فطلبت إمهالى عدة ساعات. واتصلت بالصديق المذيع محمد الشناوى الذى أصبح نائبا لمدير إذاعة الشعب التى أصبحت فيما بعد القاهرة الكبرى وسألته من يرشح لكتابة سيناريو ثلاث قصص سلمتها للتليفزيون، فأجاب قائلا: إنه يقوم بتدريس مادة السيناريو بأكاديمية الفنون. والشناوى، هو الصديق الذى ذهب معى إلى محمد الموجى لإقناع حمدى عبيد محافظ كفر الشيخ بعودتى للعمل بعد أن صب جام غضبه على وقرر منعى من العمل صحفيا بالأخبار لأننى حاولت أن أعد تحقيقا صحفيا عن مشاكل المحافظة تلبية لطلب من مصطفى أمين. وبعد انتهاء الحوار مع الشناوى اتصلت بنائب رئيس التليفزيون لأطلب منه أن يكون الشناوى هو كاتب السيناريو. وفعلا تم إنجاز هذه الأعمال تلبية لإشارة أو طلب من الرئيس السادات.



الفصل الخامس عشر

السادات يرفض منح أمريكا قواعد عسكرية بسيناء

حققت مصر انتصارها الكبير على إسرائيل فى أكتوبر ١٩٧٣م، وتمكنت من تحرير مساحة من أراضيها المحتلة فى سيناء بالقوة، ولكن ظلت المساحة الأكبر من سيناء فى قبضة قوات الاحتلال الإسرائيلى.. وأدى الانتصار إلى تغيير جذرى فى موازين القوى، وأدرك العالم أن الهزيمة يمكن أن تلحق بإسرائيل، وأنها ليست بالمناعة التى ظل الإعلام الإسرائيلى يركز على زرعها عالميا وإقليميا.

وبالانتصار استعادت مصر كبرياءها وعانت إسرائيل الانكسار، وتعددت الشروخ التى أصابت كيانها، وتزعزعت ثقة الإسرائيليين فى الحاضر والمستقبل، بل وفى معظم القيادات السياسية والعسكرية.

فى ظل هذه الظروف بدأت الولايات المتحدة تحركا سياسيا ودبلوماسيا لإنجاز اتفاقيات فصل بين القوات المتحاربة، وتمكنت فعلا من التوصل لاتفاقية فصل بين القوات المصرية والإسرائيلية أنهت بها الوجود العسكرى الإسرائيلى غرب القناة.. بعدها توصلت إلى اتفاقية مماثلة بين سوريا وإسرائيل.

ومرة أخرى تنجح الجهود المشتركة لكل من أمريكا ومصر وإسرائيل فى التوصل إلى اتفاقية للفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية.. وفشلت كل الجهود لإقناع سوريا بتوقيع اتفاقية مماثلة، وآثرت الاكتفاء بالاتفاقية الأولى للفصل بين القوات التى سبق أن وقعتها، وقرأ السادات الرفض السورى، وأدرك أبعاده وعمق تأثير القادة السوفييت على القيادة السورية.

ولم يكن الرئيس المصرى الذى يتطلع لتحرير كل سيناء المحتلة ليكتفى بما تحقق، وكان على بينة أن مصر لا تملك القوة العسكرية الكافية لتحرير ما تبقى من سيناء، وأن محاولة الحصول على السلاح من السوفييت ستكون باهظة الثمن بعد كل الشروخ التى أصابت العلاقات المصرية - السوفيتية، بعد إنهاء الاحتلال السوفيتى، وأيضا بعد عودة الولايات المتحدة إلى مسرح الشرق الأوسط بعد أكتوبر ١٩٧٣م، وانفرادها بالعمل وإنجازها

الكثير من الأهداف التى تساعد على تخفيف حدة الصراع ودفع الأطراف الإقليمية لإنجاز اتفاقيات أسهمت فى خفض درجة التوتر بين مصر وإسرائيل.

كما أن محاولة الحصول على أسلحة من الترسانة الأمريكية لمحاربة إسرائيل، كان محكوما عليها بالفشل قبل أن تبدأ، أما التحول إلى السوق الأوربية أو غيرها فلم يكن واردا لعدم توفر الموارد المالية الكافية.. وكان الاقتصاد المصرى يعانى من التخلف والجمود ونقص الاستثمارات.. أما المخزون السلعى خاصة القمح فقد اقترب جدا من حافة الخطر.

ولم يكن أمام الرئيس السادات سوى طرق أبواب السلام بقوة لاستعادة سيناء مستثمرا الانتصار، واستعادة الكبرياء، وإدراك إسرائيل وكل القوى العالمية أنها دولة قابلة للانكسار.. ومثل هذه الفترات التاريخية عادة ما تكون قصيرة، بعدها يتسرب الانتصار من أصابع المنتصرين ويفقدونه كورقة هائلة على مائدة المفاوضات.

وفى الوقت نفسه كان الاتجاه للسلام هو الاتجاه الرئيسى للسادات منذ تسلم سلطاته كرئيس للجمهورية، فخلال حديثه مع أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى أول لقاء له معهم، طالبهم بتحرير مساحة من الأرض شرق القناة، بعدها ستتولى السياسة الباقى.

أى أن الحرب كانت مرحلة يعقبها التحرك على طريق السلام.

وكان السادات يفكر فى خطوة جسورة وغير تقليدية، وبصورة أخرى كان يتطلع لاقتحام السلام، كما اقتحم القناة يوم الهجوم، ومثل هذه الخطوة يجب أن تكون مختلفة وتحمل فى طياتها ما يحقق صدمة تدهش العالم وتدفعه بقوة للعمل من أجل تحقيق إنجاز تاريخى فى قضية الصراع العربى الإسرائيلى، كان يبحث عن قوة دفع هائلة يمكنها تجاوز العقبات التاريخية، والشكوك العميقة لدى كل الأطراف.

وقاده التفكير إلى دراسة زيارة إسرائيل من أجل السلام، كان الإسرائيليون دائما ما يقولون إننا لا نجد شريكا عربيا يمكنه العمل معنا من أجل السلام.

وتساءل: ولماذا لا أكون أنا هذا الشريك، وأن يكون العالم كله شاهدا على قوة عرض السلام الذى يتقدم به؟

وفى سرية تامة بدأت دراسة كل ما يتعلق بهذه الزيارة، تحركت الوفود إلى المغرب وأمريكا ورومانيا وإيران.. وتمت لقاءات بين مسئولين كبار من مصر ومن إسرائيل، منهم موشى ديان وإسحق رابين من إسرائيل وحسن التهامى وكمال حسن على من مصر.

وتبلــورت الفكرة، وأصبحت خطة عمل، وأصبح المســرح معــدا لمثل هذه الخطوة غير المسبوقة فى العلاقات المصرية الإسرائيلية.

وتحولت الفكرة إلى واقع مبهر تجاوز فى إبهاره هبوط أول إنســان على القمر، أى أن هبوط طائرة الرئيس السادات فى إسرائيل تم تشبيهها بالهبوط على القمر.

وكسب السادات بهذه الخطوة الرأى العام الإسرائيلى بالإضافة إلى الرأى العام الأمريكى، وتحولت هذه المســاندة إلى أوراق قوية استخدمها الســادات على مائدة المفاوضات، وبهذه الصــورة يمكن القــول إن الزيارة أحدثت المتغير الجذرى الذى أراده الســادات فيما يتعلق بقضية السلام.

وفى النهاية تمكنت مصر من توقيع اتفاقية كامب ديفيد للسلام عام ١٩٧٩م.

كان السادات يسعى لتحرير الأراضى العربية المحتلة، ولكن القادة العرب خاصة أهل الحكــم والقرار فى كل من ســوريا ومنظمة التحرير الفلســطينية لم يكونوا فى الموقع الذى يجب أن يكونوا فيه، كما أن الســادات يســبقهم كثيرا فيما يتعلق بقراءة الخريطة الدولية وبالنسبة لفهم الواقع واستشراف المستقبل.

وركز الســادات على تحقيق أهدافه لاسترداد كل الأراضى المصرية المحتلة طوال الفترة التى أعقبت انتصار أكتوبر ١٩٧٣م.

ولكن هذا الاهتمام بالمصالح المصرية قوبل بحالة من العداء من جانب أطراف أقوياء مثل الاتحاد السوفييتى ومعظم دول العالم العربى.

فقــد اجتمــع الحكام العرب فى بغداد بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد وقرروا عزل مصر ومقاطعتها والعمل على تجويعها.

وتكشــف الوثائق على ســبيل المثال أن السعودية التى كانت تدعم مصر بمعونات مالية قدرها مليار دولار ســنويا قررت وقف هذه المساعدات اعتبارا من يوم ١٨ سبتمبر ١٩٧٨م، وبدأت فى اليوم نفسه فى سحب ودائعها من البنك المركزى المصرى.

ونفــذت معظم الدول العربية قرار قطع العلاقات ولم يبق بمصر ســوى ســفارات عُمان والســودان والصومــال.. ولم تكتف معظم الدول التى قاطعــت بالمقاطعة، بل اندفعت على طريق العداء لمصر دون أن تتوقف لا أمام الماضى أو الحاضر، أو حتى المســتقبل.. تناســت كل ما قدمته وفعلته مصر وتمادت فى الهجوم عليها.

وإذا مــا أخذنا ســوريا على ســبيل المثال، فقد قبلت أن تتحــول إلى مخلب قط فى يد الاتحاد السوفييتى، وكلفت «أبونضال» قائد المنظمة الإرهابية الفلسطينية للعمل ضد مصر، وكانت أولى عملياته، اغتيال يوسف السباعى فى مدخل فندق هيلتون قبرص يوم ١٨ فبراير ١٩٧٨م.

أما منظمة التحرير فاتهمت مصر ورئيسها بالخيانة، وهذه الحملة الشرسة من العداء لم تحل بين السادات وبين مواصلة جهوده لاستعادة الأراضى المحتلة فى سيناء، وفى الوقت نفسه أمر الدبلوماسية المصرية بالعمل لاختراق هذه المقاطعة العربية.

وفى الوقت نفســه طلب من نائبه حسنى مبارك تحمل مسئولية ملف العلاقات السرية مع بعض الدول العربية المقاطعة.

وتمكــن مبارك من الاتفاق مع المملكة العربية الســعودية فــى يونيه ١٩٨٠م على وقف الحملات الإعلامية.

وحافظت الدبلوماسية المصرية على علاقات سرية مع كل من المغرب والجزائر والكويت والبحرين.

وعندمــا اندلعت الحــرب الإيرانية – العراقية يوم ٢٢ ســبتمبر ١٩٨٠م، بدأت عملية التصدع فى المقاطعة العربية لمصر، فقد ابتلعت القيادة العراقية موقفها المتشــدد من مصر، وبدأت فى طلب المساعدة.. وبدأت صفحة جديدة من العلاقات الوثيقة بين مصر والعراق، وكانت حاجة العراق للسلاح وللخبرة العسكرية المصرية أهم أسباب توثق العلاقات.

وقد أســند الرئيس الســادات هذه المسئولية، أى مسئولية إدارة العلاقات مع العراق إلى كل من نائبه حسنى مبارك وإلى محمد عبدالحليم أبوغزالة وزير الدفاع والإنتاج الحربى.

وتحمل هذان المسئولان أيضا مسئولية ملف مساندة المقاومة الأفغانية طوال فترة الجهاد ضــد القوات الســوفيتية فى أفغانســتان، وكانت هــذه القوات قد اجتــازت خط الحدود السوفيتية – الأفغانية فى نهاية ديسمبر ١٩٧٩م.

وأســهمت حركة الجهاد الأفغانى ضد قوات الاحتلال الســوفيتى فى بناء جسور أقوى بــين مصــر والمملكة العربية الســعودية وعدد من دول شــبه الجزيرة العربيــة، وكل هذه الدول كانت تعمل بالتنسيق مع الولايات المتحدة لدعم منظمات المجاهدين بالمال والسلاح والمتطوعين.

وفى الوقت الذى نشـطت فيه مصر لمواجهة حملات العداء السـوفيتية والعربية، كان على السادات أن يتعامل مع حملات العداء والغضب والتهييج الداخلية ضد معاهدة السلام والتى يقودها كل من القوى السياسـية الإسـلامية وفى مقدمتها جماعة الإخوان المسـلمين والقوى الماركسية والناصرية.

أى أن العداء للسلام والسادات قد جمع بين الإخوان وأعدائهم من الشيوعيين والناصريين.

وتناسـت جماعة الإخوان أن السـادات هو الذى أخرج معظم مسـجونيها من المعتقلين والمسـجونين وسمح لها بحرية العمل، خاصة فى الجامعات والشـارع السياسى للحد من نشاط القوى اليسارية التى لم تغفر للسادات انتصاره على مراكز القوى، أو مجموعة الورثة، بقيـادة علـى صبرى، والفريق أول محمد فوزى، فى معركة الصراع على السـلطة فى مايو ١٩٧١م، ووضعهم خلف القضبان، وطرده للخبراء والمستشارين السوفييت فى يوليو ١٩٧٢م وإنهاء عصر الاحتلال السوفييتى لمصر.

وتصاعدت حملات التهييج ضد الرئيس وأسـرته ونظامه.. ونشـطت القوى الإخوانية فى الهجوم على السـادات ومعاهدة السـلام، وتوالت الاتهامات بالخيانة وبالتنكر لقضية فلسطين.

وبالرغم من مراحل الانسـحاب الإسـرائيلى من سـيناء واسـتعادة مصر لسيادتها على الأراضى المحررة وفقا لمعاهدة السـلام، فإن هذه القوى، واصلت حربها الشرسة المجافية للإنصاف، والمعادية للمصالح المصرية.

وعرف الشـارع المصرى حالة متقدمة من الاحتقـان، وتنبهت أجهزة الأمن المصرية إلى انغماس القوى السياسـية الإسـلامية والجماعات الإرهابية التى ترفع رايات إسلامية فى عمليات تدريب عسـكرى لكوادرها، وتورطها فى عمليات شـراء وجمع وتخزين أسلحة، وبدء وضع خطط لاغتيال عدد كبير من المسـئولين وعلى رأسـهم السادات، وخطط أخرى للاستيلاء على السلطة.

وقدمت هذه الأجهزة للسـادات أشـرطة فيديو مصورة لعمليات التدريب على السـلاح وتقارير عن خطط الاغتيال.

ولم يكـن السـادات الذى قرأ التاريخ جيدا بغافل عمـا يمكن أن يتعرض له على أيدى أعدائـه وأعداء مصر، وكانـت مصادر الخطر متعددة، فهناك الاتحاد السـوفييتى والدول

العربية التى تدور فى فلكه خاصة سوريا، وهناك القذافى الذى انضم للقوى المعادية لمصر وللسادات. هذا بجانب الإخوان المسلمين الذين سبق لهم اغتيال المستشار أحمد الخازندار لأنه أصدر حكما على أعضاء بالجماعة لم يرض عنه حسن البنا، ومكتب الإرشاد، ثم محمود فهمى النقراشى، رئيس الوزراء ووزير الداخلية لأنه أصدر قرارا بحل الجماعة، وعضو التنظيم السرى سيد فايز لأنه كان مصدر إزعاج لقادته.

وفى فبراير ١٩٨١م، قام السادات بزيارة عدد من الدول الأوربية، وعندما التقى بمارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا قدم لها سرا تقريرا عن الأخطار التى تهدد حياته.

وقد قدم تقريرا مماثلا للرئيس الأمريكى «رونالد ريجان» يوم ٤ أغسطس ١٩٨١م.

كان السادات يتصرف وكأنه سيواجه الموت غدا، ولم يكن الأمر يسبب له إزعاجا، كان على يقين أنه خدم وطنه بكل الإخلاص، خاض حربا هجومية، وحقق انتصارا مذهلا على إسرائيل، ولم يتردد فى خوض معركة السلام، وتمكن من الفوز باتفاقية تعيد لمصر سيادتها على كل سيناء.

وحافظ بكل قواه على سيادة وطنه، ورفض كل الضغوط الأمريكية من أجل الحصول على قواعد عسكرية بسيناء، رغم أنهم عرضوا تقديم ١٠ مليارات دولار سنويا معونة ثابتة لمصر لا ترد.

كان العرض شديد الإغراء، ولكن حرصه على سيادة مصر كان أقوى من كل الإغراءات، فهو لم يقاتل لإنهاء الاحتلال السوفييتى لمصر والاحتلال الإسرائيلى لسيناء، ثم يأتى ليقبل باحتلال أمريكى تحت مظلة قاعدة عسكرية بسيناء.

ومضى السادات فى طريقه الذى حدده منذ تسلم مسئولياته كرئيس لمصر فى أكتوبر ١٩٧٠م، بثبات وإصرار وثقة عالية بالنفس وبالله وبمصر وشعبها العظيم إلى أن سقط شهيدا صباح يوم الاحتفال بيوم الانتصار عام ١٩٨١م!!!



ملحق صور

بسم الله الرحمن الرحيم

الرئيس

السيد / عبده مباشر

تحية طيبة وبعد ،

تلقيت بامتنان النسخة من كتابكم " يوميات اكتوبر . . فى سيناء . . والجولان " . . التى بعثتم بها هدية منكم لى . . وقد نالت كل قبول .

لقد تناولتم فى الكتاب . . القرار التاريخى الذى اتخذناه للدخول فى الحرب ضد العدو الاسرائيلى . . كما وضحتم بدقة سير العمليات الحربية . . والمعارك الضاريه . . التى دارت بين مصر وسوريا وبين العدو الآثم . . على أرض سيناء والجولان .

ان شهر اكتوبر من الشهور المجيدة فى تاريخنا الحديث . . فقد رفعنا فيه أكاليل النصر فوق ربى سيناء . . وحققنا أكبر انتصار عرفه تاريخ الامة العربية منذ أجيال ، انتصار هو نتاج الجهد والعرق الممتزج بالدم الحر الابى للانسان المصرى فى عهده الجديد . . ومساره الصحيح .

لقد أعجبنى حسن تنسيق الكتاب . . وما حواه من صور تاريخية ووثائق ومعلومات تجعل القارئ يعيش فى جو المعركة . . ويقف على حقيقة الجندى العربى . . ومدى أصالته وبطولته . . مما نعتز به ونفخر .

ان المجهود المحمود الذى بذلتموه فى اخراج هذا الكتاب بهذه الصورة الممتازة . . يستحق كل التقدير .

ان المشاعر الرقيقة التى عبرتم عنها لى . . فى كلمات الاهداء . . كان لها أحسن الوقع فى نفسى . . ومع تقديرى لهذه المشاعر . . أبعث اليكم بأخلص الشكر مقرونا بأطيب التمنيات وبمزيد من التوفيق . . فى مجال الصحافة . . والتأليف .

[توقيع]

رئيس جمهورية مصر العربية

الرسالة الأولى من السادات

بسم الله الرحمن الرحيم

الرئيس

السيد / عبده مباشر

رئيس القسم العسكرى بجريدة الاهرام

تحية طيبة .. وبعد ،

تلقيت بالامتنان .. النسخة من الرسالة التى موضوعها .. المؤسسة العسكرية الاسرائيلية .. التى حصلتم بها على درجة الماجستير .. والتى بعثتم بها هدية منكم لى .. وقد نالت كل الاستحسان .. وحسن القبول .

لقد تناولتم فى هذه الرسالة .. بالبحث والدراسة المستفيضة .. انشاء المؤسسة العسكرية الاسرائيلية .. وعوامل تكوينها .. وأهداف هذا التكوين .. والدور الذى قامت به هذه المؤسسة من أجل خلق اسرائيل .. ومأداه .. العمل العسكرى .. فى كل مرحلة .. من مراحل تطور المخطط الصهيونى .. كما أبنتم .. بوضوح .. مسئولية هذه المؤسسة فى انجاز المهمة القومية لاسرائيل .. وكيف انها أصبحت مناط أمل الصهيونية فى تحقيق غاياتها .. ومدى سيطرتها على كافة الأنشطة القومية فى اسرائيل .

لقد لمست المجهود الكبير .. الذى بذلتموه فى اعداد هذه الرسالة .. وان حسن تنسيقها .. وتبويبها .. وما تضمنته من أبحاث ودراسة .. ومن معلومات قيمة عن حروبنا الأربعة .. مع عدونا الغادر .. يستحق التقدير .

لكم منى أجمل التهنئة القلبية .. على حصولكم على درجة الماجستير .. واعرب لكم عن أخلص الشكر .. على ماسطرتموه فى عبارة الاهداء .. من كريم المشاعر .. وصادق الأحاسيس نحوى .. متمنيا لكم كل الصحة والمزيد من التوفيق ،،،

رئيس جمهورية مصر العربية

الرسالة الثانية من السادات



المؤلف بالزى المدنى فى الطابور العسكرى فى يوم تكريم المجموعة ٣٩ قتال



حوار بين السادات والفريق أول وزير الحربية حول تكريم المؤلف على شجاعته فى ميدان القتال



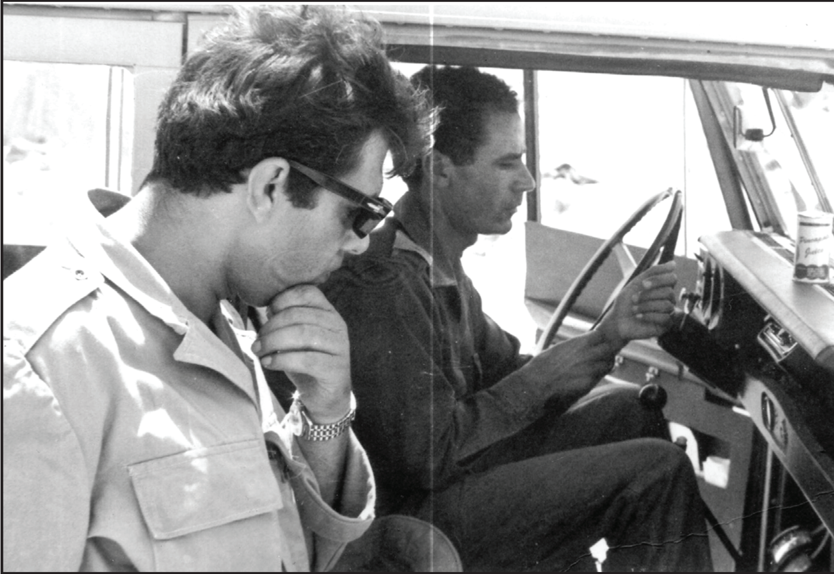
المؤلف خلف الرئيس السادات أثناء حضور مناورة بحرية بالإسكندرية



قبل التوجه لتنفيذ عملية خلف خطوط العدو



بالزى العسكرى برتبة الرائد، ومثبت بالجاكيت نوط الشجاعة العسكرى
من الطبقة الأولى



مع القذافى فى سيارته الجيب بصحراء «بنى غازى»